

علم المَكْ



مارون عبود

على المِحَكٌ

نظرات وآراء في الشعر والشعراء

تأليف
مارون عبود



على المَحَكِّ

مارون عبود

الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

بورك هاوس، شيبيت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تلفون: +٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٢٢٥٢٢

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: خالد المليجي

التقديم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٨٩٤ ٧

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٦.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرْخصة بموجب رخصة

الشرع الإبداعي: تَسْبُبُ الْمُصْنَفِ، الإصدار ٤٠. جميع حقوق النشر الخاصة بـنـصـ العمل

الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٩	أنقذ أم حسد؟
١٥	إمارة الشّعر
٢٣	الشعراء
٢٩	عباس محمود العقاد
٣٥	أحمد الصّافي النجّافي
٥٣	الزهاوي، بشارة الخوري، شibli ملاط
٦٩	شعراء الفرح والترح
٨١	محصول الشهر
١١٥	البراعم لعمر يحيى
١٢٧	عقرب لشفيق معلوف
١٤٥	هريستي وزبوني
١٤٩	محصول الشهر
١٧٣	ثلاثة دواوين للعقاد

جرى حديث بين الشيطان وإيفان، في رواية «الأخوة كرامازوف» للقصصي العظيم دوستوفسكي، فقال الشيطان لإيفان:

يجب أن تشك وتجحد، فبدون الشك والجحود لا نقد، وبدون النقد كيف تنفع ونهذب، إذا توارى النقد لم يبق إلا «أوصانا» وهذا لا يكفي، يجب أن نضع التقرير والنقد في كفَّي الميزان، ومع ذلك فما أنا الذي اخترعت النقد، ولستُ أنا تيس الخطيئة، يجب أن أنتقد لأن النقد أصل الحياة.

أنقدُ أم حسد؟

الويل للناقد في أمة لم يألف أدباؤها إلا قرابين المدح ونذور الثناء، يطرحها المؤمنون على أقدام تلك الآلهة ثم حسبهم الرضا والشفاعة.

والذي لفه ضباب النّد والبخور يزار حبه عن الأ بصار حتى تنكرت سحته وأصبح شبحًا مقدّساً، يؤذيه النقد ويذيبه التحليل. وكيف لا؟! أمّا صار عند نفسه كتابوت العهد، من لسه صُعِق؟

ومن لم يبرح هيأكل التقرير الموصدة النواخذة يضره القعود بالمرودة، ومن لم يتعود النظر إلى شمس الحقيقة يتململ إذا فجأه نورها، ويرمد إذا ثار في وجهه الرّهج، فماذا نفعل لأصحابنا ليألفوا تقلبات الأنواء واكتفوا بالأجواء؟ إن عاصفة أمرئ القيس أنزلت العُصَم من «القنان» واقتلت نخل تيما، وهدمت الأطم إلا المشيد بجندي ... وهكذا النقد فبصره يرتد كلياً دون جبل المسؤول، ولكن أدباءنا المعروفيـن كذلك «المدلل» القائل فيه شاعره المأفوـن:

خـطـرـاتـُـ النـسـيـمـ تـجـرـحـ خـدـيـهـ وـلـمـسـ الـحرـيرـ يـدـمـيـ بـنـانـهـ

فـلـلـهـ آـدـمـ! كـمـ وـلـدـ أـسـبـاطـهـ مـنـ أـشـكـالـ وـمـنـ أـلـوـانـ؟ وـلـلـهـ شـاعـرـنـاـ العـرـبـيـ! كـيـفـ هـامـ فـيـ مـحـبـوبـ إـذـاـ لـسـهـ تـضـرـجـ بـدـمـهـ وـلـوـثـهـ بـهـ، أـوـ لـيـسـ هـذـاـ الـحـبـيـبـ، كـمـ صـوـرـهـ لـنـاـ شـاعـرـهـ — وـالـشـعـرـاءـ فـيـ كـلـ وـادـ يـهـيمـونـ — كـتـلـكـ الـدـيـدـانـ الـتـيـ تـنـفـزـرـ إـنـ لـسـتـهـ؟

لـقـدـ تـجاـوزـ أـدـبـاءـ الـعـرـبـ تـخـومـ الـبـشـرـيـةـ، فـصـارـوـاـ طـوـبـاوـيـينـ، فـلـمـ لـاـ تـحـفـ رـعـوسـهـمـ بـهـالـاتـ مـنـ نـورـ كـصـوـرـ الـقـدـيـسـيـنـ؟ إـنـ أـهـلـةـ الـكـهـرـبـاءـ سـهـلـ اـصـطـنـاعـهـاـ، وـلـكـنـ كـيـفـ نـحـتـالـ لـجـرـىـ كـهـرـبـائـيـ يـتـصـلـ بـهـمـ فـلـاـ يـفـارـقـهـمـ فـيـ الـحـلـ وـالـتـرـحالـ؟

إذا كتب أحدهم مقالاً لم يرق لك، فالويل لك إذا جهرت بعقيدتك، فديوان تفتيشهم يؤدبك، وإذا أسمعوك قصيدة ولم تكتب — كما أشار مولاي محمد علي منذ سنوات — عند كل بيت، فأنت حسود، وإذا لم تصفق لكل شطر فأنت لئيم خبيث، أما إذا نقدت فأنت كافر بالعباقرة، تتهاون بنواغ الأمة.

يجب أن تقول في الشعرا الكبار — وما أكثرهم عندنا، أتَمَ الله نعمة الشهرة عليهم — ما قاله بيار لويس في فكتور هيغو:

عندما تقرأ فكتور هيغو يجب أن تقول: هذا سامٌ، هذا فريد، هذا عجيب! وإذا كنتُ لم أفهم فأنا حمار. يجب أن تقول في فكتور هيغو مقال النصارى في يسوع: هذا «إنسان، هذا إله». وأخيراً ثلث لويس الأقانيم وقال: «الأب والأبن وفيكتور هيغو».

مثل هذا القول يُرضي شعراءنا، مفاحر العرب وсадة العجم، بيضات الزمان، ومفارد الأوان، أما كتابنا، فعليك — لكي ترضي كبارهم — أن تقول فيهم ما قاله فيكتور هيغو في رنان: «إن الله خلقه بمرسوم خاص».

هكذا قُلْ إن كنتَ تؤثر رضاهم على سخطهم، وإذا التقى بأحدهم على إثر قصيدة أو فصل أذاعته إحدى الصحف أو المجلات، فمض شفتيك كالعنز، واستلهم بديهتك، والويل لك إنْ تخنُك البلاغة! هات أضخم الألقاب والنعوت، ولا عذر لك إذا قلت: لم أقرأها، عليك أن تقرأها، وإلا فأنت جاهل لا تتنزق الأدب الرفيع. ثم هبْ أنك لم تقرأها فلا تكسر خاطره، وقل فيها ما يتوقع أن يُقال، أو ما تعود أن يسمع، وترحّمْ بينك وبين نفسك على الحريري القائل:

وَالصِّدْقُ إِنَّ الْقَاكَ تَحْتَ الْعَطَبِ لَا خَيْرٌ فِيهِ فَاعْتَصِمْ بِالْكَذِبِ

أما إذا تلهجت ولم تقرظ فأنت حمار يا صاحبي! كما قال بيار لويس عن قارئ فيكتور هيغو.

الحسد ترس تناقلته أيدي أدباء العرب منذ عرروا النقد، فكم اتّقى به المتنبي صدمات منتقديه، سواء متحاملين كانوا أم منصفين!

أنقذ أم حسد؟

أما قال المتنبي منذ ألف سنة:

أَزِلْ حَسَدَ الْحُسَادِ عَنِّي بِكَبِّتِهِمْ فَانْتَ الَّذِي صَرَّبَتُهُمْ لِي حُسَادًا

ثم قال أبو فراس:

مَشِيتُ إِلَيْهَا فَوْقَ أَعْنَاقِ حُسَادِي

وكذلك قال شوقي أمس، وكذا يُقال اليوم، فُقلْ معي إذن: أَعُوذ بالله من الحسد، فالحسود لا يسود ...

لقد عفَت هذه الدعوى معالم الحقيقة، فأغامت سماء الأذهان وتنكرت المحجة، وكاد يتجمجم كل ناقد مخافة هذا الظن، ولكن الإخلاص للفن يدرأ الشبهات، وكم نتمنى على الله أن يكون فيينا من يحسد لنرفع رعوسنا بين أمم الأرض.
فحثَّا تلوك ألسنتنا هذه الكلمة؟! وإنما يقع وراءها أدباؤنا كالصائد في داموسه، وفيهم من لم تخطر له ببال يوم كان ينقد ولا يُنتقد؟

لقد قال طه حسين يوم نقد شوقي: «إن شوقي شبع مدحًا ولم يشع نقداً». ثم أشبعه، فما باله يتبرّم ويضيق صدره بالنقد؟ أمين مفروضة على قرائه وليس لهم أن يفكّروا أو يمحّصوا؟ وبعد، فما دعاه لذكر الحسد في معرض كلامه عن بارتو وبوانكاره؟ الفتوى عند سلامة موسى صاحب كتاب «العقل الباطن».

طالع مقال الأديب اليوم — وخصوصاً المأجور منهم — فتأسف على دقائق هدرتها، فإذا قرأتَ مثلًا مقالة طه «التأديب» أي درس الأدب، تقرأ صفتين من جريدة الإخاء الوطني العراقي ولا تظفر إلا بغمزات ولزات. ما هكذا كان يكتب طه، لقد كان نظره بشيء متى قرأناه، فهو إما اكتفى وشبع شهرةً فطرح «منجله» واستراح، واستهزأ بما قال عنه حسين هيكل، وإما أنه يكتب لأجل الجعال، كما يُشتمُ من الكلام المنقول عنه في المقال عينه، ورحمات الله على الفن! ما دخلت السياسة شيئاً إلا أفسدته. صدق الكلام المأثور!

لقدقرأنا البعض شعراء العرب في مصر، والعراق، وسوريا، والمهرج، قصائد طوبتها الصحف ونعتت شعراءها بالكتار، ومعظم هذه القصائد لا يتعدّى مبتذل القول ويدور على كل لسان.

شعر «مناسبات»: تهنت ورثاء ومديح، وبكاء على المجد الضائع، والثروة المفقودة. ويضحكنا شعر بعضهم الذي لم يُفْقِتْ تعبيره كلام العامة، فكانه أخبار محلية في جريدة. فهل الشعر ما استقام وزنه ورفقت قوافيه كدماميك البنائين؟ لقد بتنا إذا عرفنا «المناسبة» عرفنا ما سيقال فيها، ومتى عرفنا الشخص عرفنا القافية، كما سمعنا في لوكاندة قاصوف بعرس صلاح المنذر قصيدةً على الحال؛ لقد أتعب شاعريةً شعرائنا اسم تلك العروس اللطيف «ليندا»، فما ذكره منهم إلا أمراء الكلام.

وبعد، أليس ما ننعاه على المتقدمين هو هو الذي ننظمه اليوم، ونسميه شعراً؟ ويا ليت لنا بلاغة أولئك! فأكثر كلامنا حركات سيمائية تسحر عيون الناس، بل هذيان محموم يُضحكه يُكْرُه متى فارقه العارض. أما آنَّ أن يتعدى النظم هذه المناسبات، ويتجاوز شعرنا «يا ليل» المغني، و«يا عين» المطر؟

فما تقول في قصيدة يُمدح بها أو يُرثى ملُكٌ، أو يُهَنأ عريس، أو تنظم لحفلة، فلا تفهم منها إلا أنها تصلح لكل ملك، ولكل حفلة، ولكل من سيتأهل منذ نوح حتى المسيح الدجال!

أليست قصيدة كهذه في نظرك كما هي في نظري، مثل «شروال» أهالي قرية ... الذي كان يلبسه كلُّ من يتغَرَّب عن القرية – وأبعد غربة كانت إلى جبيل – حتى صار شعار الضياعة. أليست كذلك الخلعة التي كان يلبسها المشايخ في ذلك الزمان كلَّ عريس مشمول بالرضا، ثم تعود إلى «الدار» لتعاد – بعدئذ – إلى كل عريس؟

الشعر الحقيقي هو ما لا تستطيع أن تفصله عن صاحبه، ولو حلته في مختبر باستور. وما يُخرجه ويدفعه الأديب على الملأ يصبح ملُكَ الجمهور، يحق لكل مفكّر أن يقول كلمته فيه، ولا حسد ولا غيرة هناك، فإن أصحاب الناقد أفاد، وإن أخطأ هرَزَ به الناس، فلماذا كل هذه الموضوعات؟ وهل يكتثر النقاد – في الغرب – لغير الشعر البارع والنشر المتع؟ هناك ينماز الأديب بكثرة منتقديه، فترك النقد عندهم منقصة وسبَّة. وهذا شوقي ماذا تنقصَه النقد؟ لقد استحثه فاحتث، وجلي على شيخوخته.

أنَّظَلُ في القرن العشرين كما كَنَّا في القرن السابع؟ قال الأخطل: «جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر». فجَّرَ هذا الرأي الأدبي إلى هجاء كان جنایةً على الأدب والأخلاق.

أنقدُ أم حسد؟

وكذا حدث في القاهرة؛ فقد حمل أبو شادي حملةً شعواء على العقاد، فسبَّهُ هذا بما يندى له جبين الأدب، وكذا حدث بين شibli وبشارة في حفلة تأبين المرحوم وديع عقل، وإنْ كان تلميحاً لا تصريحًا.

وأرى اليوم طلائع مثل هذه في حديث بشارة مع صاحب العروبة، الحوماني، ثم في رد أبي شبكة على بشارة، كما أذكر حملةً نقدية كادت تكون خصبة لو لم تنته بالحيد عن خطط النقد، وتُعتقد الهدنة على ضفاف البردوني، فلو لم يهتم منها بشارة ما أخرج قصيده الرائعة «عمر ونعم»، وما قال له بدوي الجبل كما نشر في «برقة»: «ما هذا يا رجل؟ المتنبي من خدامك ... إلخ.»

وأذكر — وما أكثر ما أذكر — حملة لغوية، منذ سبع وعشرين سنة، على الملاط أو قد نارها بشارة، وكان من فرسانها إبراهيم منذر ويوسف مراد الخوري ومن لا أسميهم، وكانت الساحة جريدة «لبنان» للأسود، فاتهمهم الملاط بالحسد، ثم سكنت الزوجية بعد أن قالوا ما قالوه.

والآن أمامي مجلة العروبة «عدد ١٤»، قرأتُ فيه مقالةً مدافعٍ عن بشارة أسمى نفسه «قزم ...» ختمها بيتهين من نظم بشارة في أبي شبكة، وهما:

أَبَا شُبَيْكَةَ وَالْأَيَامُ مَهْرَلَةُ مَاذَا أَحَقًا حَذَقَتِ الشِّعْرَ أَمْ لَعِبًا؟
لَوْ كُنْتِ فِي الْوَحْشِ لَا أَرْضَاكَ لِي ظَفَرًا أَوْ كُنْتِ فِي الطَّيْرِ لَا أَرْضَاكَ لِي ذَبَابًا!

حقاً إنها لبدعة جديدة في الرد على النقاد بهذا العصر! فما هذا يا أبي عبد الله؟ لقد كدت أصبح بملء فمي: «أكذب نفسي عنك في كل ما أرى ...» لولا خشيتي وخوفي قانون «إلقاء الراحة». بيد أنني ثبتت إلى نفسي وقلت: لعل الأخ بشارة يريد أن يقول الشعر في كل الأغراض كسميه الأخطل، فلا حول ولا ...

هكذا سار ويسير النقد عندنا ... تُختَم المأساة بأكل اللحوم ونبش القبور! فمن لنا بزياد جديد وبتراء جديدة الحدود. أما هواة النقد فنقول لهم ما قاله أمس المندوب السامي للصحفيين:

«انتقدوا للأعمال لا الأشخاص.» ونزيد: «كونوا منصفين.»

فهل من نقاد مخلصين للفن لا يحابون كاتبًا ولا يمالئون شاعرًا، فلا يكيلون الثناء لشهر، ولا يتعامون عن جيد جاء من نكرة؟ ليت الصحف والمجلات تقلع عن هذه الألقاب التي تغُرُّ الأدباء وتخدع القراء، ولتيتها تذكر أسماءهم كما يُذكَر في أوروبا اسم فاليري وكبلنخ وتاغور وولز وشو وجيد ومن إليهم من كبار كتاب العالم، ثم لا يعرض لحصولهم الأدبي إلا في مختبرات التحليل. فلتترَكَنَّ الصحف هذه الظلasm التي ترقى بها قراءها، وتتفجَّر الأدباء حتى يصبحوا كالقطن المنفوش.

حَقًا إن محصلتنا الأدبي في تأثُّر مستمر، ونحن على أبواب مجاعة روحية، فأدباً نا اكتفوا بشهرة جوفاء تذهب بذهابهم كصدى ينقطع بانقطاع الصوت، إنهم كتلك الزهرة «شب الليل» التي تعيش في الظل ليلة واحدة. فإن النور أيها الإخوان، إلى الأدب الحال، ولا يغرنكم ما يقال اليوم، فالغد حَكْم جبار لا يعرف رحمة ولا محاباة.

وبعد، فأقول والأسف ملء الفؤاد، أننا إذا قرأتنا شيئاً قيِّماً فهو عيال على كتاب الغرب وشعرائه، إن لم يكن نصًا فمعنى، فعلى رفوفي كُتب أعظمُها جدًّا الإعظام حتى كتبتُ إلى أحد مؤلفيها، وأنا لا أعرفه، أثني على جهوده وعمق تفكيره. وكم كانت خيتي مُرّة بعد سنتين؛ إذ عرفت أن معظم الكتاب «مأخوذ»!

والبلية أنك إذا أرشدت الناس إلى هذا الأخذ الشريف، وقلت كلمة في أحد هؤلاء «الطوباويين» تغامزوا جميعًا عليك وقالوا: «حسداً». وهكذا ينجو المتبسوون بالجريمة. وجماع الكلام أن الناقد النزيه كالصيقل الماهر، يبدو جوهر السيف تحت أنمله شيئاً فشيئاً، أو كالمرشد الأمين يجذب إلى متحف مليء بعرائس الفنون، ويدلك عليها واحدةً واحدةً، ويشرح لك معاني جمالها، وما كان النقد قطًّا — منذ كان — إلا معواناً على رقي الفنون. وفنان لا يسمع غير التقريرظ لا يُبدِّع، والماء إن لم تصفقه الرياح ركَّد وأَسَنَ.

إمارة الشّعر

وتفرّقوا شِيئاً فَكُلُّ قَبْيلٍ
فيها أميرُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ بُرُّ

لعنة الله على هذه الإمارة الجوفاء، إمارة الشعر، فهي سخافة بلقاء أسقطتنا من عيون المغاربة، وأشد الناس رقاعةً وعتابهيةً شاعر يحلم بها، وشرُّ الثلاثة أديب يدعوا إليها، ويحمل الناس عليها حملًا، فهل كانت إمارة شوقي — وهو شاعر جيله — غير مهزلة سجلها الدهر، وأبى أن يكتمنها علينا التاريخ الذي لا يمحى ما يسجل؟ وأنكى البلايا أن تكون «الرَّدَّة» في مدرسة طه حسين؛ أما أنكر شيخ هذه الطريقة على الناس مبادعتهم أمس؟ فكيف يمهد — اليوم — لها ويوطئها ليتقمصها فلان؟ أنسى — هداه الله ونفعنا بعلمه — كيف سخر من مهرجان شوقي، وكيف شهَرَ من مؤمريه رجلاً يؤثِّره أي حافظ إبراهيم؟ وإن أنسَ لا أنسَ أنه لم يسلِّم من لسانه وألسنته أنصاره أحدٌ حتى النظارة.

أَخْارِجُ الأَدبَ المُتَبَعَ يجترحُ الْيَوْمَ مَا عَدَهُ أَمْسَ جَرِيَّةً لَا تُغْفَرُ؟! لَقَدْ كَانَ أَحْرَجَ مِنَ النَّظَامِ فِي حَظْرِ الْعَفْوِ، فَمَا عَدَ مَمَّا بَدَا حَتَّى حَشَرَ النَّاسَ حَوْلَ الْعَقَادِ، فَأَيْقَظَ فَتَنَّةً نَائِمَّةً وَأَعَادَهَا جَذْعَةً؟!

أَلَا لَيْتِ الطَّفْوَلِيَّةَ تَعُودُ! فَكُمْ لَهُونَا بِمَثَلِ هَذِهِ الْأَضْحُوكَةِ يَوْمَ كَنَّا غَلْمَانًا تَغْلِي صُدُورُنَا تَوْقَانًا إِلَى الرَّجُولِيَّةِ! فَمَنْ لَا يَذْكُرُ مثِيلَ تِلْكَ الْأَعْرَاسِ الصَّبِيَّانِيَّةِ ... فَعَرِيسَنَا كَانَ صَبِيًّا شَارِبًا مِنْ صَوْفِ، وَالْعَرْوَسُ صَبِيًّا ذَوَابِهَا مِنْ أَلْيَافِ لَا حَرْجٍ عَلَيْنَا بِنَوْعِهَا إِنْ اجْتَمَعَ فِيهَا الطَّوْلُ، فَمَا أَجْمَلَهَا أَعْرَاسًا حَافِلَةً بِكُلِّ طَرِيفٍ: دَفَوْفَ مِنْ تَنَكِ، وَخَيْولٍ مِنْ قَصْبِ، وَالشَّرَابِ مَاءً مَصْبُوغًا لَا أَذْكُرُ بِمَاذَا ...

فهلا تتذكر معي تلك السخرية وتقول: إنها وإمارة الشعر صنوان، تلك شهوة غلمان وهذه أمنية شيخ قلائد العقيان، وكهول شكسبيرو وشبنهور وهو فمان ...» ولقد صدق أغوصطيونس حين قال: «الرجال أطفال كبار». ورحم الله نيتشه القائل: «طلبت رجالاً عظاماً، فلم أجد إلا قروداً تقلد حركاتهم ...»

منذ سنوات أربع عرفت أستاذًا أجنبيًا «جامعيًا» ودكتورًا من السوربون أيضًا، تفرّد للأدب ومارسه تعليماً ونقداً، فتقاكرنا مرّةً أدب المغاربة واتجاهاته الحديثة، ومناحيه الأشبة، ومواجاته الصاخبة، قبل الحرب وبعدها، فانجرّ الحديث إلى أدب المشارقة عامّة، فأدب العرب خاصّةً، وتلوى البحث كما طابت له الريح، فتناولنا حتى اللغة العالمية والفصحي، فإذا صاحبى على دين كليمان هيار يرى رأيه، وملء عينه مرونة اللغة العربية وكفاءتها، كما وصفها لنا المشرق ماسينيون، ولو شكا حسين هيكل عجزها عن تأدية مراده ... ودعا سلامة موسى في «يومه وغدّه» إلى نبذها وأشار علينا — أصلحه الله — بالالتحاق بأوروبا حيث نفني في ذلك الخضم العجاج، منتظرین «البهائي» أن نُؤهّل يوماً إلى «الانعدام» في ذات تلك الوحدانية.

فمن يقرأ محاضرة ماسينيون ولا يقول مع الشاعر:

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبُ فِينَا وَمَا لِزَمَانَنَا عَيْبٌ سِوَانِ!

واطّرد الحديث فقال صاحبى: «عندكم أمير شعراء..»
 قلت: «نعم يا سيدي، فنحن العرب نحب التأّمر، ولو على أهل البيت!»
 قال: «وهل لأميركم هذا عرش وтاج وصولجان كأحشورش استير؟»
 قلت: «نعم، ويصلب هامان ... له كل ما للوك المهازل من أزياء وطراز. أمّا لهذا من أثّر في بلادكم؟»
 أجاب: «لا، فنحن إلى الجمهورية أميل مما إلى الملكية.»
 فقلت: «أمّا والله إنك لجاذب دع المزاح، أتظن أن كبار أدبائنا يشايرون هذه البدعة؟»
 قال: «أظن نعم.»
 قلت: «لا يا صديقي العزيز، ألم تقرأ ما كتب طه حسين عنها؟ فطه حسين أديب مجدد، ضخم أمره، وله تشيعُ أنصار الجديد، فهو شيخ أزهري «شرقاً» وسرابوني

«غريباً، وشمالاً وقبلةً يعلم الله ماذا. فهذا الإمام ولفه يسفهون حتى من يتحدث بالإمارة، وإن خبرت أنه جاء على ذكرها فاللهزء والسخر ...»
فقطاعني وقال: «لا تدافع يا صاحبي، حقاً يا صديقي أنكم - معاشر الشرقيين - مطبوعون على التمجيل والتعظيم». وابتسم.
فقلت: «ما لك؟»

قال: «أَلسْتُم تقولون عندما تذكرون الله: «سبحانه وتعالى، جل جلاله»، بينما نحن لا نقول إلا: Le Bon Dieu، وإذا ذكرتم شعراكم وكتابكم نسجتم حول أسمائهم عناكب الألقاب ونوعت حتى يختنقوا فيها كالذبابة التي تجذبها الرتيلاء؟ إن الألقاب عندكم تکال ولا تزان.»

قلت: «أَمَّا تعظيمنا لله فما إخاله عبيداً، أما الشعراء فهم أبناء الآلهة، أليس كذلك؟»
فلنعد عن هذا، إنني لم أفرغ بعد من حديث «الإمارة»، فاسمح لي أن أدرأ هذه الشبهة، فأنت كالحجاج وكثيراً ما تأخذون بالشبهات.
ألم يأتِكِ نبأ العقاد - وهو من مدرسة المجددين - على طريقة غوت وشلي وشكسبير وهو فمان؟

فما سمع بمهرجان الإمارة حتى هدر كالجمل الأورق، وطفق يكتب فصولاً «الشعر في مصر» يدحض بها تلك الضلال، هاك نتفاً منها، قال لا فُضُّ فوه:

ونظرت إلى العصور الحديدة بعد الإسلام، فلم أعن بشاعر واحد أنبته مصر يُذكر بين أعاظم الشعراء وتُذكر له رسالة من رسالات الحياة؛ فكل شعرائها عرب أو مقلدون للعرب، وكل هؤلاء وهؤلاء عالة على الأدب، ونفایة ضئيلة أولى بها أن تبيد وتهمل.

خطاب نفس صديقي واهتزَ لما قلتُ وغمغم، فقلتُ اسمع أيضاً:

فشاءت بينما مقاييس الأدب الإفرنسي الدارجة، وهي الطلاوة السطحية واللباقة العابثة، ومشينا معه في عيوبه ومحاسنه، وهي شبيهة بعيوننا ومحاسننا، فلم نفطن إلى فارق بين الصحيح والزيف، وبين الصدق والتمويه، ولم نخرج مما نحن فيه إلى مذهب غيره.

وتفرَّستُ بوجه صاحبي، فإذا بلونه قد اكتفَرَ وابتسمته اصفرت وقال: «أنت ماكر خبيث.»

قلت: «لا، صبراً!» وسقطت الكلام:

وخفيت علينا مقاييس الجد والاستقامة والبساطة التي امتاز بها الشعر الإنكليزي والألماني.

وحجاً بالاختصار قلت له: «ويقول عن شاعركم العظيم هيغو أنه مجلجل مزوق خلاب، فهل من يقول هذا يؤمن بإماراة شعر، و...»
فقطع علي حديثي وقال: «أينظم شعراً صاحبك هذا؟»
قلت: «نعم.»

قال: «وكيف أسلوبه وديباجته؟»

قلت: «لا يطبع على غرار هيغو.»

قال: «لا شك، أظن أنه نيء التعبير.»

قلت: «لم أقرأ له بعد ما يصح السكوت عليه فأحكم. إليك الآن ما ي قوله عن «أمير الشعراء» وإمارته في معرض نقهـ «خطاب العرش» الذي ألقاه الأمير في مهرجان «المبايعة» على وفود الشرق، قال — أي العقاد:

وقد يكون أميراً كأمير الشعراء، لا حس فيه ولا عقرية، ولا أشعار له ولا أحان.» ثم «فإن كل إمارة كذابة في هذه الدنيا فهي إماراة هذا الذي لا يكفيه أن يُعد شاعراً حتى يُعد أمير شعراً، وحتى يُقال إنه عنوان لأسمى ما تسمى إليه النفس المصرية من الشعور والحياة.»

ففقطعني هنا قائلاً: «أيطمع هذا أن يكون أمير شعراً؟» قلت: «لا لا، اسمع أيضاً:

إنما هم جميعاً — أي شعراونا — سواسية في تشبيع الورد بالخسوب، والبلابل بالقيان، والأزهار بالأعطار. ثم يقول: فكل شعراينا طويل قصير، بدین هزیل، أبيض أسود، أحول أعمش ... وكل ما يشهدونه من روعة الحياة لا يتعدّى ذلك الذي يشهده كل ذي عينين حيوانيتين، كلبيتين أو بقرتيتين أو فيليتين إلى آخر ما في الحديقة من ذوات العينين. فلو نظمت الكلاب والقطط يوماً باللغة العربية، لعلمت منها أنها هي أيضاً تفهم كما يفهم شعراونا أن الورد أحمر ... إلخ، وربما زادت على شعراينا بفهم ما لا يفهمونه وهو تحية الحب ... إلخ.»

فصاح صاحبي: «هوب، لا، إنه يغالي جدًا، هذا سباب وشتائم، ما هذا نقدًا!!»
 وكان معي صديق يسيغ الأدب ويلذ له حديثه، فقال لي: «فضحتنا يا شيخ، بحياة
 أبيك، كُفَّ عنَا شرُّك، إلَى هذا الحد ينتهي تجربيسك بنا؟»
 فأجبتُ: «لا تحتدَّ يا أخي! كل هذا في كتاب العقاد «ساعات بين الكتب..».
 فقال صاحبنا الأستاذ الإفرنجي: «ولكنها ساعات سويدة، أظن أنه كان يحلم
 بالإمارة والتتنفس ساعة كتب هذا!»
 وافترقنا على أن نلتقي، ولكن البحر ابتلع صاحبي الأستاذ، ففُجِعَ به الأدب
 والعبقرية.

وكان مساءً وكان صباح عام ثانٍ، على لغة سُفر التكوين، وطوى الموت أمير الشعراء،
 فخوى العرش الأسنى، فقلتُ في نفسي: «لقد أراح القضاء طه والعقاد من خزعبلة خالط
 أنها اللحم والدم». ولشد ما تعجبت حين فجأتنى الصحف بشائل بين الأنبياء.
 لقد آمن طه بما جده أمس، والتفت صوب العراق، وشوقى لم يُدفنَ بعد، وقال:
 إن إمارة الشعر ستكون في العراق بعد شوقي، لأنها الخلافة البطرسية، فلا بد منها
 في الكنيسة الكاثوليكية ...

يا سبحان الله! إن التحول والتتطور أظهر في الآراء والأ咪ال منه في كل ما هو كائن،
 وإلا فكيف يعترف طه بإمارة زائفة تهزاً بها أمس؟ وهبْه أقرَّها وأرادها فلم أشاح وجهه
 عن خليل مطران وهو أحد الثلاثة المفروضين؟ ألم يُثْنِ عليه طه؟ ألم يقدّمه حين ذكره
 في مقالاته «حافظ وشوقى»؟

ودارت الأفلاك دورتها والعقاد كالسماك الأعزل، لا يفتَّا يذكر يوسف، لا يشارك
 ولا يساهم أدباء الجيل في شيء حتى كان يوم ٢٧ أبريل؛ فإذا بحفلة تقام للعقاد
 بمسرح الأزبكية من أجل «نشيد» نظمه، فيتنصب طه حسين فيها خطيبًا، ويتكلّم عن
 «العقاد الشاعر»، وتتكلّم وتتكلّم «على لغته» حتى تُودي بالعقاد أمير شعراء، فحلَّ
 اليوم — في شرع طه والعقاد — ما لم يجُزِ البارحة، إنما لنك طالعهما ويمن طالع
 الأدب والتاريخ لم يكن في الحفلة شاعر، وكانت الحفلة مفاسدة «أدبيًا» غير مكثور عليها
 «وطنيًا»، وكانت إمارته كولاية ابن معتر، فلم يُحْصَ بين الخلفاء.

أما الشعراء فأدركوا بدهائهم — وهم أبناء الإلهام — تلك الحيلة المدبرة، فلم يقعوا
 في فخّ معاوية الذي أوحى إلى «مسكين» أن ينصبه، فراح — وأسفاه! — تعب النّقادَة

الحادق سُدَّى كصيحة النسر في الجو، وارفَضَتِ الحفلة عن لا شيء، اللهم إلا عن شنسنة
نعرفها من أخزم ...

وهكذا فشل العقاد وطه كما فشل الهااوي من قبل بدعوته إلى «الموسم»، فقامت
عليه قيامة الكَتاب والشعراء في «السياسة» يتهمونه بمراؤدة إمارة الشعر عن نفسها،
كما راودها ويراؤدها في كل قطر غواة، وهواة، هم أشبه بضفدع لافونتين، فانشقوا وما
صاروا جواميس!

وأدت نوبة العقاد وطه بعد شهرين، فثار عليهما الشباب الشعراً وشقوا عصاً
الطاعة. انقلابات ومفاجئات تذكّرني بما يحدث في المكسيك والبرازيل وأميركا الوسطى
حول انتخابات الرؤساء ...

وإذا كنتَ لم تملَّ حديثي بعد، فاسمع أحديثَكَ كيف ردَّ الشعراً على حفلة العقاد؛
التأموا بمسرح الهمبرا — أظنها الحمراء تنكرتْ علينا كلمة Alcool فعرَّبَها أحد
الفطاحل «الآلکحول» — وأقاموا حفلة كبرى لزكي مبارك، افتتحها خليل مطران — لا
أقول شاعر الأقطار، فلكل قطر من فيض الله ألف شاعر، وأنا لستُ من مذهبَه من فاته
اللحم ... — افتتحها خليل بنثر وشعر، وقال فيها شعرًا: ناجي «وراء الغمام»، وأبو
شادي «الينبوع»، والهااوي «الموسم»، والزجال رمزي نظيم، وغاب عنها صاحب «اللاح
الثائِه»، وغنَّى عبد الوهاب، وهذا هو الوفاء، فهو يرعى عهد «أميره» في مثواه، أو لم يقل
عبد الوهاب عن نفسه «إنه قصيدة من قصائد شوقي»؟ إذن كيف لا يكون مطرب حفلة
تقام ردًا على طه والعقاد؟

وبعد، أفلم تَرَ مثلَي أن الناس احتفلوا ليكرموا كاتبًا — أنا أرى رأي المازني في
شاعرية زكي، وقد عاهدتُ نفسي ألا أُحابِي — فتجمَعَتْ فتاة من رءوس الشعراء لتقول
فيه شيئاً؟ واحتفي بشاعر نظم «نشيدًا» لم يترنم به أحد، بل بكاتب أقام الدنيا وأقعدها
ليحطِّم شاعر الجيل، فما حضر الحفلة شاعر؟ ألا رحم الله الصاحب ابن عباد، فهو
والعقد عندي سواء، كما سوف ترى.

روى سلامة موسى صاحب «المجلة الجديدة» عن طه حسين في معرض الكلام، عن
الذين «يسمون أنفسهم أدباء الشباب» أنه قال له: «حبُّ الشُّهْرَة عدو الفن».
لقد وقعت على موضوع عتيق، إنما أسأل الآن الدكتور طه حسين على عَجَلٍ: هل
يطيق مولانا — أَيَّدَه الله — أن يطْبَّق لـنا ما نصح به أدباء الشباب على طه حسين؟ أقول
هذا ولا إخال مطلبي يعجز من عنده مقاييس ديكارت.

حاشية: لقد بَعْلُتْ بأمرِي — على لغة المفلوطي الذي فرَضَ درسه مجلسُ معارفنا الأعلى، وقد كنتُ بينهم ولا فخر، وأهمل جبران — وتلتفتُ كثيراً لعلي أرى المازني إما هنا وإما هناك، فما وقفت له على أثر؛ فقلت في نفسي: لئن تَخَلَّفَ عن شهود حفلة تتنصيب للأمير، ليسمعنا مقالاً أشبه بخطاب زيد قباء ... ولكنني تعبت الليل كله ولم أصطد شيئاً كما قال بطرس لعلمه.

فُلْ معي إذن يا أخي: قاتل الله إمارة الشعر، البشعة أمس، الحلوة اليوم في عيني العقاد! إن هذه الإمارة فتنة عمياً كمنايا زهير؛ فهي في أدبنا بيت الداء، وطلابها متخمون حتى الأفواه، يمضغون ما يتجلّبون ويجهرون، وعلى هذا الضعف في المعدة والأمعاء يحاولون أن يكونوا أبناء، ولما أتى نبأ إمارة العقاد خليل مطران، ظل يردد حتى آخر الليل بيته في علي يوسف:

بَنَاتُ الدَّهْرِ عُوجِي لَا تَهَايِي خَلَالَ الْوَادِي مِنَ الْأَسْدِ الْغَضَابِ

هلا، هلا، يا خليل، ففي كل وادٍ أسد وأشبال لولا تقليم أظافرها. فالمتأثرون بالشهرة الناهون عن طلابها يحوّلون الأنظار عن الأجم، فعطّفاً على الذرية ففيها بقاء النوع، وتعهدوا الشباب كالبستانى الذي يشد الفسيلة الجذعة إلى جذع الشجرة الشائخة. بحياتك قُلْ لِطَهَ عَنِي أَنْ يلاطِفَ أَدْبَاءَ الشَّبَابِ — قد تكون كلمة «يلاطِف» لا تعجبه ككلمة «تلاشى» — ويجري معهم على ما عُوَدَه إياه حفني ناصف، أمّا قال طه عن حفني: «كنا نستعينه على أن نكون خيراً منه، وكان يعيننا على ذلك راضياً به...»؟ فما بقي من جملة الأستاذ لا يعنيه، ولا أقول لا يعجبني، كما يقول هو، فأنا حسبي الرضا.

وقصارى الكلام: إن كنا نروم حُلُقَ أدب عربي غزير المتاع، عظيم الخطر، يتعدى ما يشهده ذووه من روعة الحياة ذلك الذي يشهده كل ذي عينين حيوانيتين كلبيتين أو بقرتيتين ... إلخ. فلا نزدِر نتاج الشباب، ولنمدّ إليه مبضع النطاسي لا مدية الجزار. أما إذا أردنا أدباً، إن نظمتْ فيه الكلاب والقطط باللغة العربية، علمت أنها هي أيضاً تفهم كما يفهم شعراً علينا أن الورد أحمر ... إلخ. فاجعل «صاحبك» أمير الشعراء وخاتمة الأدباء.

على المحك

وإن رأى سموه أن كلمتي هذه لاذعة قارصة جارحة، فإنني أحيله على زميله العتيق، الصاحب بن عباد القائل: هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا، والسلام على من أدى الأمانة ورد التحية.

١٩٣٤ / ٨

الشعراء

لولا الشاعر لماتت الآلهة، فالشعراء خالدون ومخلدون.
لا نعني بالشاعر كل علّاك وقوّاقتة، فمن مقلع واحد يصنع المثالون شخوصهم،
فمنها ما يُرفع ليصير إلّا في المحراب، ومنها ما يبطح لِيُجعل أُسْكُنَةً للباب.
ولا نعني بالشاعر ذلك الصاف الكلمات، الغواص على «درر» الألفاظ، فمن يعجز
عن التفكير والإبداع يعتصم بالفصاحة الجوفاء، ومن لا يحسن رمي الطير في مهابها
يقبع في الداموس، ومن يفته إبداع الجديد يُكثّر من اجترار القديم، فحتّام ننبش القبور
للبس الأكفان عربية وأعجمية؟! وإنّمّا يهيم شعراً وناكيد في كل وادٍ!
فمنهم من ينكت الطلول والدمن ويستوحى دارة ججل؛ حيث توقّح امرؤ القيس
وقد على ثياب العذاري، فأخرجهن من مستحّمهن على حد قول أبيوب: عرياناً خرّجتُ
من بطن أمي ...
ومنهم من يفتن عن نفسه بين حِكم ابن أبي سلمى الجافة كرمال الصحراء،
وزُهدّيات أبي العاتية الملومة من هنا وهناك كخبز الشحاذين، أو كالرداء المعّد يصلح
لجل الناس ولا يليق بوحد.
ومنهم من ينشدها في طوبيلات الأخطل التغلبي، فيقفو أثره حتى يغرق في موطئ
رجله، وتهبّ هوج الرياح فتزرده الصحراء.
ومنهم من يتعنّتر فيعرض سيفاً ورمحاً، ويناجي عبلة وهميةً كفول تأبّط شرّاً.
ومنهم من يتبع النابغة إلى دار مية، ويلحقه مع من لحقه في يوم صيده المشهور،
فيختفي عنه زياد، ويتركه مع واسق وضمران.

ومنهم مَن يهدج حول بيت الفرزدق كالقنافذ، فيراه موسعاً لكيه في المعد ...
 فيدعيه ويتبع جريراً فيظماً في فيفائه، ويتوه في بهاته التي تكذب فيها العين والأذن.
 ومنهم مَن يشوقه ابن أبي ربعة فيتضمخ ويقف مثله في الدروب، حتى إذا أدرك
 أن مطلبه عسير قعد حسيراً، والعين بصيرة واليد قصيرة.
 ومنهم مَن يتغلغل في ماخور أبي نواس، ويأوي إلى خمّارتة، فيضرب معه بسهم
 ظفر، كما قال البديع، فيحلو إنشاده لأنّه صادق نفسه.
 ومنهم مَن يغزو أبا تمام ويشنّ الغارة على البحترى، ويقف بباب المتنبي، فيصفد
 عنه شيخ الشعراء هازئاً متمتماً:

أَرَاهُ غُبَارِي ثُمَّ قَالَ لَهُ الْحَقِّ

ومنهم مَن يقصد البهاء فيرى في الفسطاط رجلاً مخنثاً حتى الميعان، فيتفيا في
 ظلال راحته، مستروحاً نسيمها البليل، ثم يُسْفُ ولا يقع.
 إن معظم شعرنا العربي لا تزال في أنفه الخزامة، وفي حنجرته هدير الفحول،
 وفي رجله خلخيل تُخشِّش، لقد صور الجاهليون والعباسيون أنفسهم ومحيطهم في
 شعرهم، أما نحن فنصوّرهم هم في شعرنا، كما كان يفعل مصوّروننا منذ نصف قرن؛
 إذ يصوّرون مار جرجس ومار شليطاً ومن إليهم – كأننا صيّبة مدارس ينسخون المثل
 ليأخذوا العلامة.

أمّا كان أولى بالبحترى أن يسأل أبا تمام متى يأكل حين سأله متى ينظم؟ أتسأل
 الطير متى تغرد، أم الرياح متى تهب، أم النار متى تتقدّ؟ إن الشاعر يقول متى جاش
 صدره. عفواً، لا يفعل هذا إلا شاعر وجد نفسه، أما مَن يفتش عنها بين طلول الجاهلين
 وخمارات العباسيين وقصور الغربيين، فينظم كل ساعة.

يسألون لماذا أخرج المهلل وعمرو بن كلثوم شعراً رقيقاً جيائشاً، وهما قبل الفرزدق
 الخشن الذي ينحت من صخر كما قيل فيه؟ فقل لهم إن الفرزدق قال قافية لا يعدلها
 شعر عربي هللةً ورقةً نسج وهي: «هذا الذي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَائِهُ»، وكذلك فعل
 دعبد الشاعر في قصيده: «مدارس آيات خلت من ثلاثة ...» التي احتذى مثالها حافظ
 إبراهيم في رثاء الإمام محمد عبده، فكانت خير ما قاله.

ويسألون لماذا يخشن الشاعر الواحد الجاهلي ويرق؟ أليس هذا دليل النحل، كما
 يزعم نقّاد اليوم؟ فقل لهم: لا، فالشاعر المطبوع يلبس لكل حالة لبوسها، يخشن ويرق

في قصيدة واحدة، فما الشعر إلا عودٌ أوتاره الفاظُه، يصفّفها الشاعر ويصلحها لِتُخرج
الحنَّ الذي يوْدُ.

أما الشاعر الملتمس بين خرائب المقدمين وقبور المتأخرین، فاكسعه وقل له: ارجع
إلى بيتك وفتّش عن نفسك في: حنایا ضلوعك، وثایا لحافك، وبين جدران مخدعك، وإن
لم تجدها هناك أولاً فلن تلتقي بها أبداً.

لا تفتش عليها في شكسبيرو شلر وغوت وهیغو وموسہ وبولیر؛ فهولاء قد عتقوا
وإن أبدعوا، ولم يروا ما ترى من العجائب، قُل له: انظر يا أعمى القلب، فكلُّ ما حولك
يدعوك، فلماذا ترُجُّ نفسك في الأعماق كالخلد؟ طالعْ كتاب الطبيعة فكل كلمة منه جبل،
إلا أنها لا تضطرك إلى نظاراتين! اسمع يا أطربش، إن أحاديث الدنيا كلها في بيتك، تسمع
روزفلت إن سعل، والميكادو إن تنحنح ... انظر يا أعمى! فالسينما تُرِيك غرائب الكون
متحركة ناطقة!

كان أبو تمام فَطِنًا فأخرج معاني جديدة، فلماذا لا تأتي أنت بمتلها؟ إنك عيي ما
دمت تسأله: ما ترك الأول للآخر؟ الجواب عندي: ترك له الراديو والراديوم والسينما
والطائرات والغازات التي تخنقك ...

نحاول التجديد فنتقمص ثياباً بطلت في بلادها، ثم نتبأله ونقول: انظروا إننا جُدد.
لقد أسانا من جهتين: التقليد، ولبس ثياب أخلاق.

قال العجاج: «كان الكميت والطرماح يسألانني عن الغريب فأخبرهما به، ثم أراه
في شعرهما، وقد وضعاه في غير مواضعه لأنهما قرويَان، يصفان ما لم يَرِيَا، وأنا بدويٌّ
أصف ما أرى فأضعه في مواضعه». فهلا نتعلم من هذا البدوي؟

كثيرون منا يفتشون عن أنفسهم في ألفاظ هاموا بها، وكثيراً ما يسوقون المعنى
لأجلها، ثم يطلبون منها أن نتدوّقها كما تذوقوها هُمْ، ونستحلّيها كما استحلوها، كأمٍّ
بلهاء تستغرب كيف يَغْبَي علىك جمالُ ابنها البَشع.

إن مخيّلة الشاعر المبدع راديو يلقط حديث عوالم الأثير، وقريرحاته راديو يشع
نوراً خالداً، فعيثاً يحاول قرع باب الفن إن لم يكن في عونه قلب متقدّ وعين ثاقبة، وإن
فعل فهو كالنادية تُبكي ولا تَبْكِي، أو كأبى الطيب عندما استزادوه، في اللاذقية، رثاء
ونفي شماتة ...

ما الشعر إلا حلم يقظة، فالذي ليس له عين ترى، وقلب يحس، وأنذن تسترق،
وعقل يحلم، والذي لا يصغي ليسمع صراخ نفسه، وعويل قلبه؛ فهيهات أن يرتفقى

قمة الفن، فكم من إماء طريف حُطمَ وسُحقَ بعدهما قال سيلي بريديوم قصيده «الإناء المشوّث»! وكُم بين النساء مثل شولية سليمان السمراء، ناطورة الكروم! وما أكثر أصحاب الزهريات والربيعيات! بيدَ أنهم لم يتحدو بأقانيم الطبيعة كالشاعر المتشائم ابن الرومي، حقاً إن في الكلام عقداً ورقى، وليس بضخامة تأليفه يُقوّم الشاعر، فقد تخلده أسطر ولا يُخلد بألف قصيدة كلها ثرثرة وهذيان محموم، فشهرة صمت خير من وأواة دهر، وقد قال شكسبير: «أشعر أني أقل وحدة حين أكون وحدي».

إن الفن قيد الأرواح والدهور، فلولا الذي تركه الجدود من فن خلفهم ما عرفنا أنهم مروا من هنا في طريقهم إلى الأبد، والشعر والتصوير توءمان مدادهما ألفاظ وأصياغ، ترك الشمس عند المغيب مشاهدَ وألواناً فتّانة، والفنان الجبار يلتقط تلك المشاهد ويقيدها، أما المشهد فيتلاشى ثم يتجدد، وأما القصيدة والصورة فتخذلهما العبرية الفنية.

دخل أحدهم معلم مصوّر فأعجبته صورة حمار، فساوم المصوّر عليها فأغلى ثمنها، فقال له الرجل: أشتري بهذا المبلغ عشرة حمير! فأجابه المصوّر: الحمير كثيرة ورخيصة.

أجل إن الفن الرفيع عزيز ندر، فلعل لهذا العصر من وده نصيباً، فنضم إلى متحفنا الفني طرفةً جديدة، أما أكثر ما نقرأ ونسمع من الشعر فالنثر الحي خير منه.

قالت الشاعرة الإفرنجية مدام دي نواي:

متى انحدرت الشهوة المُقدّة إلى أعماق القلب يَتَلَدَ المقطع الجميل، ويسري الدم في العروق، وتسرّ الكلمات مشتبكة متساندة هاتقة كأنها ذوات أفواه متفجرة كالينبوع المتدفق ...

فهلا نتعلم منها ولا نفجّر قوافيها كما فجرّها بشارة «العربي الفحاح» نبعة نبعة، رغم أنف بشار، ولا نقول قصيدة كالتي أنشدتها العقاد بعد انقلاب أرقص الناس:

بأدني الثغر أو أقصى الصعيد

يرحم الله شوقياً وحافظاً، فكانا إذا أنشدا أطرياً، إن لهما من مقلدات الشعر ما نذكرهما به في مثل ساعة الوفديين، وقد انفتحت عن مصر العزيزة ظلمات الإرهاب والإلهاق.

كم وددتُ أن أرى طه حسين ساعةً كان يلقي «أميره المفن» قصيده في الانقلاب الخطير لأقول له: «دائماً الفرح عندكم يا دكتور، ولكن حَدَّثًا كهذا يجعل علي مصر سافلها، ويُعييك إلى منصب لا تصلح إلا له. لا يلذ لنا، نحن العرب، حدث بلا شاعر، ففتّش في قابل عن غير صاحبك هذا». وبعدُ، فلله درُّ ظرفاء مصر الذين ردوا على إمارة الشعر الشعيرية، فأمّروا «البرنسا» على الشعراء في حفلة أحيوها لهذه الغاية.

١٩٣٥ / ٢

عَبَّاسُ مُحَمَّدُ الْعَقَادُ

أَحْسَنْتُمُ الصَّبْرَ وَالْعُقْبَى لِمَنْ صَبَرُوا نَادَى الْبَشِيرُ فَقُولُوا الْيَوْمَ وَائْتَمَرُوا

هكذا ينفجر العقاد بعد أن أسكنت دهرًا، وهكذا يخاطب أمّة محمومة شاعر أحصى عليه المستبدون أنفاسه، فلزم بيته خوفاً من عيونهم، ما زاد في صدر براعة استهلاكه على الكلمة الحائرة في أفواه الناس: مَنْ صَبَرَ ظفر. عفواً، بلى إنه قالها بلغة حلزونية عوّدناها شيوخ أدباء مصر في نثرهم الفني.

أما العجز فهو أدنى إلى اللغة العامية منه إلى الفصحي، فما رأيك يا أخي بـ«قولوا اليوم؟» أليست أخت احکوا اليوم؟ وما قولك في «ائتمروا» بعد «قولوا اليوم»؟ أما هما بيضتاً دجاجة واحدة؟ أنتقول إن العقاد عندما جعل «ائتمروا» قافية فكر في أمرين: في مؤتمر الوفديين، وفي الآية: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتِمِرُونَ بِكَ لِيُقْتَلُوكُ﴾، ولكنه هذه المرة اتكل على ذكائنا، ولم يحش كما فعل في «وحي أربعينه» ص ١٥٨، عندما قال:

وَأَرَى السَّنَورَ وَالْجَرْوَ إِلَى نَمِرٍ فِيهَا عَلَى غَيْرِ الْوَصِيدِ

ثم شرح قائلاً: الوصيد العتبة، وفي البيت إشارة إلى الآية: ﴿وَكَلِبُهُمْ بَاسِطُ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾.

ما كنا لنعني بقصيدة كهذه هي برمتها من الشعر المقيد الغث، لو لم تكن للعقد، والعقد مجاهد وطني، مكين المبدأ، صلب العقيدة حتى التحجر، لا يتزعزع يقينه ولا تني همته، قد ضحى براحته وصحته على مذبح وطنيته الصادقة؛ فله العقاد مجاهداً

صامداً للاضطهاد والمضطهدين! وإن لم يحسن التعبير عن عاطفته شعراً، فهو لا يعجز عن أدائها نثراً، ولكنه يحاول أن يقول الشعر، وما أراه يفلح ولو عمر كلبيـد.

و قبل نبش ما في قصيـته من خبـايا – إنـ كان هنالـك شيءـ من ذلـك – لا بدـ من الجـهـر بـرأـي اـعـتـقـد صـدقـه؛ وـهـوـ أـنـ العـقـاد أـسـفـ فيـ الشـعـر «الـقـومـي الـاجـتمـاعـي» منهـ فيـ غـيرـهـ منـ أـغـرـاضـ الشـعـرـ، وـآـيـةـ ذـلـكـ مـطـلـعـ قـصـيـدـةـ قالـهاـ فيـ ذـكـرىـ الـاسـتـقلـالـ السـوـريـ،

سـنةـ ١٩٣٠ـ (وـحـيـ الـأـربعـينـ صـ١٤٦ـ):

رابـعـ الشـاءـمـ أـعـاـمـرـ أـمـ خـالـ رـبـيـعـ عـيـدـكـ عـيـدـ الـاسـتـقلـالـ

وهـكـذاـ دـوـالـيكـ ...

ماـ لـنـاـ وـلـهـذاـ، أوـ دـعـ ذـاـ كـمـاـ يـقـولـ زـهـيرـ فـيـ اـسـطـرـاـدـهـ، وـعـدـ بـناـ إـلـىـ قـصـيـدةـ هـذـاـ

الـعـامـ، فـبـعـدـمـاـ يـذـكـرـ الشـاعـرـ كـيـفـ اـنـقـضـتـ السـنـونـ الـمـرـءـ بـبـيـتـيـنـ مـبـتـلـيـنـ لـفـظـاـ وـمـعـنـيـ كـلـ

الـقـصـيـدـةـ، ثـمـ كـيـفـ اـجـلـوـلـتـ أـخـيـرـاـ، يـطـلـعـ عـلـيـنـاـ بـهـذـاـ الـبـيـتـ الـحـمـاسـيـ:

سـيـهـدـمـ الطـوـدـ مـنـ يـبـغـيـهـ مـعـتـدـيـاـ وـلـيـسـ يـهـدـمـ مـنـ أـرـكـانـكـ حـجـرـ

لـسـتـ مـحـامـيـ الـأـعـشـيـ لـأـسـتـعـدـيـ التـارـيـخـ عـلـىـ عـقـادـ الذـيـ مـسـخـ هـذـاـ الـبـيـتـ، وـلـكـنـيـ

أـسـتـغـرـبـ هـذـهـ الـعـجلـةـ الـتـيـ حـمـلتـ النـاظـمـ عـلـىـ اـسـتـعـمـالـ حـرـفـ التـنـفـيـسـ ...ـ فـهـلـ هـنـاكـ مـنـ

يـحاـولـ هـدـمـ الـمـقـطـمـ فـيـ الـغـدـ كـمـاـ حـقـرـتـ تـرـعـةـ السـوـيـسـ؟ـ ثـمـ مـاـ رـأـيـ طـهـ «ـبـيـغـيـهـ»ـ وـكـيـفـ

يـرـىـ «ـمـعـتـدـيـاـ»ـ؟ـ أـعـجـبـتـاهـ يـاـ تـرـىـ؟ـ أـلـمـ يـعـرـضـ عـقـادـ قـصـيـدـةـ هـذـهـ عـلـىـ مـنـ دـعـاـ الشـعـرـاءـ

لـبـيـعـتـهـ يـوـمـ «ـالـنـشـيـدـ»ـ وـلـمـ يـفـلـحـ؟ـ أـمـ نـهـاـهـ طـهـ عـنـ إـنـشـادـهـ وـنـشـرـهـاـ فـمـاـ اـنـتـهـيـ؟ـ اللهـ أـعـلـمـ.

وـبـيـتـ وـسـطـ وـطـاـ عـقـادـ لـهـذـاـ الـبـيـتـ الـجـيدـ، وـهـوـ وـاحـدـ أـبـيـهـ، فـقـالـ:

الـدـهـرـ فـيـ غـيـرـهـاـ هـدـاـمـ أـبـنـيـةـ وـالـدـهـرـ فـيـ شـاطـئـيـهاـ حـارـسـ حـدـرـ

أـمـ قـوـلـ شـاعـرـنـاـ فـيـ الـبـيـتـ الـذـيـ يـلـيـهـ:ـ كـنـانـةـ اللهـ كـمـ أـوـفـتـ عـلـىـ خـطـرـ ...ـ إـلـخـ.ـ فـكـنـانـةـ اللهـ

تـعـبـيرـ شـائـخـ بـائـخـ،ـ وـأـشـهـدـ أـنـنـيـ فـتـشـتـ القـصـيـدـةـ كـلـهـاـ فـلـمـ أـقـعـ عـلـىـ تـعـبـيرـ جـديـدـ،ـ وـمـعـنـيـ

يـصـحـ السـكـوتـ عـلـيـهـ –ـ كـمـاـ قـالـ النـحـاةـ فـيـ تـحـدـيدـ الـكـلـامـ –ـ بـلـ وـقـعـتـ عـلـىـ الـأـفـاظـ عـجـراءـ

مـحـصـرـةـ،ـ وـتـوـطـئـاتـ لـلـقـوـافـيـ كـمـاـ كـانـ يـفـعـلـ أـبـوـ تـامـ فـيـ صـنـعـتـهـ،ـ وـلـكـنـ حـبـيـباـ يـضـعـ الـلـفـظـ

موضعه، ويسلّل طريقه، أما العقاد فيعُقدُها! ينماز الشاعر بخُلق التعبير والمعاني وهذا محرومٌ منه العقاد، سبحان المعطي! ثم يقول:

وَكُمْ تَوَالَتْ عَلَى أَبْوَابِهَا أُمُّ
وَمِصْرُ بِأَقِيَّةٍ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

في هذا البيت اهتزازة شعرية إلا أنها بليدة، فأين تذهب مصر وغير مصر؟ هل أخذ الفاتحون والغزاة جبال لبنان ونهر العاصي؟ قد يكونون أخذوا من مصر مسلطاتها وأثارها، رحم الله القائل:

أَمْ سَرَقَ الْخِلِفَةَ وَهُوَ حَيٌّ
يَعْفُ عَنِ الْمُلُوكِ مُكَفَّنِينَا

ثم لا يلبث صاحبنا أن يطلع علينا بأين وأين، مقلّداً بائمة أبي تمام، ولكن بلا روعة ولا قشعريرة، فذكّرني بالندّاب اللبناني العالمي القائل: «وين نيرك؟ وين صندك؟ وين جرابك للبدار؟ ...»

وأتانا في مطاوي هذه الأبيات بالزبانية الفتّاكية الشزر، ألفاظ يابسة كاللومياء لم تصوّر لنا شيئاً حتى استغربت كيف يكون شاعر بلا مخيلة. ومضى يسبُّ ويشتم، فتكرست ألفاظ دارت على لسان قلمه، ووسعها بحر البسيط، والبسيط بحر يتسع لتالي الألفاظ، فأجاد وأبدع في شتمه لا في نظمه، حتى أسمعنا:

قَالُوا انتَخَابُ فَقُولَنا أَيْ نَعْمَ صَدَقُوا
هُوَ انتَخَابٌ لِمَنْ خَانُوا وَمَنْ غَدَرُوا

حقاً إنّ زهيراً لم يُوفّق في حولياته إلى مثل هذه «الأي نعم»، بل لم يُوفّق إلى مثلها إلا أبو فراس بقوله:

الشُّعُرُ بِيَوْانُ الْأَدَبِ
أَيْضًا وَعِنْوَانُ الْأَدَبِ

فـ«أيضاً» أبي فراس، وـ«أي نعم» العقاد يتجازبان ملاعة الحسن ...

ثم أخذ يعُدُّ أشياء جمة هي بالأخبار المحلية أشبه منها بالشعر، إلى أن قال:

لَا تَدْخُلُوهَا إِذَا جِئْتُم بِسَاحِتِهَا إِلَّا إِذَا غَسَلْتُ الْفَأَوْ تَعْتَذِرُ

حقاً إنها لتورية لطيفة، وخصوصاً هذا العطف مبني ومعنى. نحن في غنى عن شرح هذه الفكرة السامية، هذه الصورة الشعرية الرائعة النظيفة، فالعقاد، والحمد لله من رواد شعرنا الحديث.

ويمضي الشاعر على سنه، كما جاء في وحي المتنبي، ويسير لا زيخ ولا غر حتى يُسمِّعنا:

يَا فِتْيَةَ النَّيلِ هَذَا النَّيلُ مُسْتَمِعٌ وَمِصْرُ نَاطِرَةُ وَالشَّرْقُ مُنْتَظِرٌ

أجل، ونحن يا مولانا رعاياك الشرقيين، انتظرنا أن نسمع شعراً ممن سلم عليه المجاهد مكرم عبيد بالإمارة، فإذا بك تُسمِّعنا منظومة كلها من عريان الكلام، كألفية ابن مالك وأرجوزة اليازجي، يقول خيراً منها مترن موهوب لا فنان مثلك يدين بالفن والجمال.

وأن آسف لا آسف على تصافح صحفيين جلديين — لا أذكرهما احتراماً — من أجل منظومة بهذه لا تستحق الإذاعة والنشر بل الطمر.

وبينا كنا نقرأ للعقاد وغيره من أدباء مصر نعيهم على الشعراء المحدثين والمعاصرين تعمدهم الجناس والطباق وما إليهمما من الصناعات اللغظية، إذا بهذا الفاضل يطلع علينا بقصيدة كلها من هذه البضاعة.

ما قولكم، دام فضلكم وفضله بما يأتي: ربتم أنتم العقبى وهم خسروا ...

فَمَا لَهُمْ مَا رَعُوا حَقًّا وَلَا اعْتَبَرُوا وَيُسْتَوِي بَعْدَ مَنْ وَدُوا وَمَنْ نَفَرُوا لَوْ اتَّقُوا نَظَرًا مِنْهَا لَمَا سَتَرُوا	وَفِي التَّجَارِبِ مِنْ حَقٌّ وَمِنْ عَبْرٌ عَلَى الصَّرَاحَةِ إِنْ وَدَتْ وَإِنْ نَفَرَتْ هَيْهَاتْ تَحْجُبُ عَيْنِيهَا بَرَاحِتَهَا
--	---

وثروة من ثراها ... إلخ.

وَظَلَ هَكُذَا يَقُولُ شِعْرًا حَتَّى أَتَانَا بِهَذَا الْبَيْتِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ شَيْطَانَهُ بِالْهَنْدِيَّةِ:

وَوَفَرُوا مِنْ قُوَّاهَا كُلُّ مَا وَفَرْتُ مِنَ الضَّمَائِرِ فِي الْجَلَّيِ وَمَا تَفَرَّ

يُظَهِّرُ أَنْ صَاحِبَنَا نَسِيَ عِنْدَ شَكْسَبِيرِ وَمَلِيُونَ وَشَلِيِّ وَغَوْتِ فَصَاحَةُ الْمَرْكَبِ، أَوْ أَنَّهُ
شَاقِهُ أَنْ يَقُولَ كَالْفَرِزِدِقُ:

هُمَا تَفَقَّلَا فِي فِيِّ مِنْ فَمَوِيهِمَا عَلَى النَّابِحِ الْعَاوِيِّ أَشَدُ رِجَامِ

وَأَخِيرًا جَرَّبَ الْعَقَادُ أَنْ يَقُولَ حُكْمَةً كَالْمَرْحُومِ شَوْقِيَّ، وَكَلَاهُمَا مُؤْمَرٌ عَلَيْنَا، كَمَا
قَالَتْ نَعَمُ عَمَرَ، فَأَسْمَعْنَا، لَا فُضُّلَّ فَوْهُ، وَلَا عَاشَ مَنْ يَشْنُوهُ:

وَعَلِمُوا عِلْمَهَا مَنْ يَنْفَعُونَ بِهِ سِيَّانٌ فِي الْعِلْمِ ذُو مَالٍ وَمُقْتَدِرٍ

كَيْفَ تَرَى أَيْهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ هَذِهِ الْحُكْمَةُ، أَقَالَ مَثَلُهَا شَاعِرُ عَرَبِيٍّ بَعْدُ؟!
وَبَعْدُ، فَالْعَقَادُ مِنْ عَشَّاقِ الْفَنِّ، وَلَكِنَّهُ يَحْسَنُ التَّحْدِيثَ عَنْهُ نَثَرًا لَا شِعْرًا، فَاسْمَعْ
رَعَاكَ اللَّهُ:

وَيَسِّرُوا مِنْ صِنَاعَاتِ الْأَكْفَ لَهَا وَمِنْ فُنُونِ بِهَا الْأَرْوَاحُ تَرْدَهُرُ

مَا هَذَا يَا أَسْتَاذًا! هَبْنَا رَضِينَا بِاَزْدَهَارِ الْأَرْوَاحِ، أَيْرِضِي مُؤْمَرُكَ طَهُ بِصِنَاعَاتِ الْأَكْفِ؟
أَضَافَتْ بِكَ الْأَلْفَاظَ إِلَى هَذَا الْحَدَّ؟ كَنْتَ اسْتَغْنَيْتَ عَنْ ذِكْرِ الْفَنِّ وَالصِّنَاعَةِ الَّذِي أَبْعَدَكَ
عَنْ فَنِ النُّظمِ هَذَا الْبُعْدِ. عَفْوًا نَسِيتَ حُكْمَةً ثَانِيَّةً، فَاسْمَعُوا:

أَمَانَةُ تِلْكَ فِي أَعْنَاقِكُمْ عَظِيمٌ وَبِالْأَمَانَةِ فَلَيُعْظِمُ مَنْ اقْتَدَرُوا

الْشِعْرُ يَا أَمِيرِنَا يَجِبُ أَنْ يُنْزَهَ – فِي مَثَلِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ – عَنْ مَثَلِ هَذِهِ التَّعَابِيرِ ...
أَنْتَ تَحْمِلُ سَلَامًا لِغَائِبٍ حَتَّى تَتَكَلَّمُ كَعَجَائِزِ لَبَنَانِ: أَمَانَةٌ فِي رَقْبَتِكَ سَلَمٌ عَلَى فَلَانِ؟!

على المَحَكُّ

وإليكم بيّنا أبدع فيه من حيث الفاظه المنتقا:

وَفِي اسْمِهِ «الْمُضْطَفَى» مَعْنَى زَعَامَتِهِ مَعْنَى مِنَ الْخَيْرِ وَالتَّحْبِيرِ مُخْتَصِرٌ

ألا ترون كيف أن العقاد كرر في عجز البيت حروفًا تناهفت ومر بها، ثم لم يحس شيئاً ... إنني أتوسل إليه أن يراجع هذا البيت علّه يهتدى إلى ما رمزت إليه فيصلح العطار ما أفسد الدهر، هذا إذا شاء أن يضم هذه القصيدة إلى ديوانه الجديد.
ويلي هذا البيت قوله:

كَفَى بِذَلِكَ عُنْوَانًا عَلَى وَطَنٍ يَدِينُ بِاللَّقَةِ الْكُبْرَى وَيَفْتَكُ

فهذه «الكبرى» تعبير ابتدعه أبو تمام فيما أبدع، فقال:

بَصُرْتَ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا تُتَالُ إِلَّا عَلَى جِسْرٍ مِنَ التَّعَبِ

فأخذه شوقي - رحمه الله - بالحرف الواحد، وقال بيت أبي تمام في شطر هو:
أعْدَتِ الرَّاحَةَ الْكُبْرَى لِمَنْ تَعْبَا. وللقارئ الحكم.

أما العقاد فقد لاعم بين الكبرى والثقة فوقَّ، وقد انطوت قافية «ويفتكر» على معنى كبير وإن نبت لفظاً.
وأراد العقاد أن يرد العجز على الصدر مختتماً، كما كان يفعل البديعيون، فما خلص له ذلك وكانت الصنعة في قوله:

واسْتَبَشَرُوا وَمَرُوا بِالْحَقِّ وَاتَّمَرُوا

وقصاري الكلام: أعجبني من القصيدة بيت واحد - فقط لا غير - عليه مسحة الشعر، وفيه رائحة الخيال الذي هو ملاك الشعر، وإذا أردت تلخيص رأيي في هذه القصيدة قلت:

«أراد العقاد أن يحكى شعراً فحكى، والأعمال بالنيات».

أَحْمَدُ الصَّافِيُ النَّجَفِيُ

١

في ثاني نيسان لا في أوله حمل إلى صاحب البريد كتاباً على غلافه اسم أحمد الصافي النجفي، فراعني أن يكون «التيار»؛ لأنني كنت قرأت في السياسة الأسبوعية أن الشاعر قال لواحد — نسيت اسمه — إن تياره سيرجف الشعراء أجمعين ...

وقفت عند هذا الكتاب وقفنة النابغة في دار مية بالعلياء فالستن، فعنوانه مكتوب بالقلم الكوفي المشجر فكان كقرص مشبك، ولو لا أن هناك عنواناً في قلب هذا، لما رأيته وبرد قلبي. شكرت ربى لأنه الأمواج، فالآمواج قد نماشيه أما التيار فمن يجاريه؟!

ثم حالت شئون هزل أشغالها جد دون مطالعة الديوان، حتى ذكرت أن للصافي مقاماً بين المعاصرين لا يبعد أن يظنه هو كمقام المتنبي بأرض نخلة. وظللت أروح وأجيء حتى خفت أن يموت العام ولا أقول كلمتي فيه، ولا سيما أن الكتب تتکاثر على الرف فأخذته، لم أطُ أول صفحة منه حتى عرض لي عارض وكانت التجربة. قلت لنفسي كأنني أحذث شخصاً غريباً عنِّي: بأي وجه تقابل عبارة الصافي الكيسة وثناءه العاطر عليك؟ قاتلَ الله النقد، إنه يسودُ الوجه، تذكّرتُ التقائي بالصافي قبلة السראי الصغير في بيروت وتعرّفي به، وما أغدق من عبارات إعجاب، فما كدت أمسك القلم حتى أفلته، لا أفكِر بما أقول في الديوان حتى يتراءى لي شبح الصافي اللذيد، فأتمثل نظراته التائهة البريئة، فوقفت كالغريب في مفرق الطرق حائراً.

وبقيت هكذا زمناً حتى قالت لي نفسي: ما تراه يكون لو ضحيت بإخلاصك للفن والشاعر؟ ثم ما قيمة هذه العاطفة السامية ... وهي سكت ونوم؟ أتباع بفلس لو نادوا عليها في أسواق الأدب؟ ولماذا أهدى إليك الشاعر ديوانه؟ أليس لتقول كلمة فيه؟

فتتبّهت إذ ذاك لعَهْد قطعته، يوم كتبتُ الكلمة الأولى، فقهرت عاطفتي وألقيت قاربي في «أمواجه»، فحسى ألا أغضب الصافي كما أغضبت سواه من رفاق وأصدقاء وخلطاء صباً وشباب.

حَقًا إن ديوان الصافي أمواج فيها من كل شيء، وما أشبهه بليل أمرئ القيس! الصافي بائس حَقًا، وشعره به المبالغة، ينم عن بؤسه، ولكن المؤس وحده لا يعمل الفنان، أما البائس فيعمل شعرًا إن كان ذا قريحة كالصافي، وبين الشعر والفن مسافة لا يجوزها إلا من يؤمنون ولا يشكون كالصافي، إن في الشعر فنًا يثقف بُنيات القرائح ويهدّبها.

ومشى القلم رويدًا رويدًا، فأخذت أنسى أنني عرفت الصافي، ثم بَعْدَت الشقة بيدي وبينه فنسّيت كل شيء، إلا أن للصافي ديواناً أهداه إليّ، وقد خرج هذا الأثر من يده وصار ملّا للأدب العربي، فعلينا أن نصدق صاحبه القول، كما نصدق النصيحة سواه، ليعالج شعره العتيد فيستقيم له الفن والشاعرية، ولا يحيا شاعر بلا فن.

وسألتُ نفسي: أتعرفين يا هذه، بماذا يجرف الصافي الشعراء أجمعين؟ فعيّت جوابًا، فرحتُ أتسائل: أبالمواضيع؟ إنها وحدها، لا تعمل شاعرًا، فقد يكتب ناثر أروع منها وأرقص، أبالنظم؟ فهو يعترف أنه لا يصنع شعره بل يرسله كما خلقتني يا رب، فهو في الفن على دين الشاعر القائل:

إِنَّ الْمَلِيْحَةَ مَنْ كَانَتْ مَحَاسِنُهَا مِنْ صَنْعَةِ اللهِ لَا مِنْ صَنْعَةِ الْبَشَرِ

هَبِ الصافي «لامرتين»، أَمَا عاب عليه نَقاد الفرنجة استسلامه لفطرته؟ وهل يظن الصافي أن الأغراض وحدها تجعل الرجل شاعرًا خطيرًا؟ قد تجعله فيلسوفًا، أَمَا شاعرًا فلا.

فشاورنا المعري نظامً في أكثر لزومياته، وإن أغرق في حبّها وتقييدها بالقيود والأغلال، أما شاعريته الفذة ففي نثر «رسالته»، ما أشبه منظوم فلسفة «لزومياته»، من بغض إنسان وحب حيوان إلا بألفية ابن مالك، ولو لا ما فيها من شعور يكاد يتقدّد لبرئت منها الشاعرية. والشك! هل يعمل الشك شاعرًا؟ فكم من أنسٍ شُكّوا حتى قتلوا، كابن القدس مثلًا، ولم يرفعوا إلى سر الشعرا الكبار لأنهم شُكّوا وقتلوا ليس غير!

يَبْدِيَ أَنْ هَنَالِكَ مَوْضِعًا آخَرَ لِشَاعِرِيَّةِ الْمُعْرِيِّ هُوَ فِي شَخْصِيَّتِهِ، وَالصَّافِيُّ مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ شَاعِرٌ أَيْضًا لَوْ أَنَّهُ تَأْنَى كَالشَّعْرَاءِ وَهَذِبَ شَعْرَهُ كَمَا هَذِبُوا شَعْرَهُمْ، فَحُبُّ الْحَيْوَانِ لَا يَعْمَلُ شَاعِرًا، إِذَا لَمْ يَتَكَلَّمُ الشَّاعِرُ وَالْحَيْوَانُ مَعًا بِلُغَةِ الشَّعْبِ، إِذَا لَمْ يَجْسُدْ الشَّاعِرُ مَعَانِيهِ الطَّرِيفَةِ بِالْفَاظِ تَأْلِفُ حَتَّى تَكَادُ تَرْنُ وَتَطْنُ، فَالشَّاعِرُ مُوسِيقِيُّ قَبْلِ كُلِّ شَيْءٍ آخَرَ، وَإِلَّا فَالنَّثَرُ خَيْرُ مِنْهُ وَأَبْقَى، وَلَوْ كَانَ مَلَكُ الشَّاعِرِيَّةِ الْكَبْرِيِّ عَطْفًا عَلَى الْحَيْوَانَاتِ لَكَانَتْ جَمْعِيَّةُ الرَّفْقِ أَعْظَمُ شَاعِرَةً عَالَمِيَّةَ. إِنَّ مَا كَانَ بَدْعَةً فِي زَمْنِ فِيلِسُوفِ الشَّعْرَاءِ وَشَاعِرِ الْفَلَاسِفَةِ صَارَ الْيَوْمَ مُبَتَّدِلًا، وَالشَّعْرُ لَا يَحْيَا إِلَّا بِالْطَّرَافَةِ.

وَبَعْدُ، فَلِيُسْ لِلنَّاقِدِ أَنْ يَعْرِضَ الشَّاعِرَ فِي أَغْرَاضِهِ، بَلْ أَنْ يَنْظُرَ فِيهَا، وَقَدْ فَعَلَنَا فَرَأَيْنَا أَنَّ الْعِنَاصِرَ الَّتِي تَتَأْلُفُ مِنْهَا شَخْصِيَّةُ الصَّافِيِّ فِي أَمْوَاجِهِ لَيْسَ جَدِيدًا، فَهُوَ لَمْ يَكْتَشِفْ إِقْلِيمًا جَدِيدًا وَلَكِنَّهُ تَوَسَّعَ وَتَبَسَّطَ فِي وَصْفِ أَقْلَالِمِ عَرْفَنَاها، فَأَتَانَا بِشَعْرٍ هَلِيلٍ النَّسْجِ وَلَكِنَّهُ صَادِقٌ. الصَّافِيُّ شَاعِرٌ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَحْذِقْ فِنَّ الشَّعْرِ بَعْدُ، فَمَا أَحْوَجَهُ إِلَى دِيَبَاجَةٍ مُتَيْنَةٍ مُشَرَّقَةٍ كَالَّتِي لِلرَّصَافِيِّ — لَوْ قَلَّ رِوَاسُهَا «الْكَلِيشِيهَاتِ» — أَمَّا إِذَا كَانَ يَطْمَحُ إِلَى شَاعِرِيَّةِ كَالَّتِي لِلزَّهَاهِيِّ فَلَيُسْتَرِحْ، لَقَدْ وَصَلَ، إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الشَّاعِرِيَّةِ الْعَتَاهِيَّةِ — نَسْبَةً إِلَى أَبِي الْعَتَاهِيَّةِ — لَا يَعْمَرُ مِنْهَا طَوِيلًا إِلَّا الْقَلِيلِ مِثْلُ قَوْلِهِ:

يَا لِلشَّبَابِ الْمَرْحُ التَّصَابِيِّ رَوَائِحُ الْجَنَّةِ فِي الشَّبَابِ

وَهَذَا قَلِيلٌ بَلْ نَدْرٌ فِي شَعْرِهِ الْكَثِيرِ، أَمَّا مَا كَتَبَهُ أَبُو الْعَتَاهِيَّةِ عَلَى كَسْرِ الْجَرَارِ لِلْفَتَيَانِ وَالْغَلْمَانِ فَقَدْ هَلَكَ، كَمَا تَهَلَّكُ الْأَعْشَابُ إِذَا اشْتَدَ الْقِيَظُ، فَلَا يَبْقَى إِلَّا الزَّرْعُ يَرْتَبِقُ الْحَاصِدِينَ لِيَفْضُضَ مِنْاجَلَهُمْ.

إِنَّ أَكْثَرَ الَّذِينَ حَدَّثُونَا عَنِ الصَّافِيِّ وَدَلَّوْنَا عَلَى شَاعِرِيَّتِهِ لَمْ يَنْظُرُوهُ إِلَى فَنِّهِ، بَلْ عَبَرُوا لَنَا عَنْ تَأْثِيرِهِمْ بِأَغْرَاضِهِ، فَخَلَعُوا عَلَى الشَّاعِرِ جَبِيًّا فَضْفَاضَةً لَا يَشْبَهُهَا شَيْءٌ غَيْرُ أَعْطِيَاتِ مُلُوكَنَا فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، أَجْرَيْتُ عَلَى الشَّعْرَاءِ الْأَوْفَا وَكَرَّاتِ، وَأَعْطَوْهُمْ مِنَ الْجَمْلِ أَذْنَهُ.

قَالَ رَنَهُ دُومِيكُ النَّاقِدُ الْفَرَنْسِيُّ بِمَعْرِضِ كَلَامِهِ عَنْ جِيلِ لَامِتِ النَّاقِدِ الْأَكْرَرِ: «كُلُّ حَكْمٍ فَنِيٍّ لِيُسْ لِهِ مَقَايِيسٌ مُسْتَقْلَةٌ عَنْ شَخْصِيَّتِنَا تَبْطِلُ قِيمَتَهُ مَتَى اسْلَخَ عَنَّا وَانْفَصَلَ، فَلَا يَكُونُ إِلَّا وَصْفًا لِلذَّةِ شَخْصِيَّةٍ قَدْ لَا يَشَارِكُنَا بِهَا أَحَدٌ، وَقَدْ نَرَى نَحْنُ رَأِيًّا آخَرَ إِذَا قَرَأْنَا ذَلِكَ الْأَثْرَ الْأَدْبِيَّ مَرَةً أُخْرَى؛ وَذَلِكَ لَأَنَّنَا نَحْنُ نَنْتَغِيرُ، فَمَقْيَاسُ الْفَنِّ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ غَيْرُ التَّأْثِيرِ وَالْعَاطِفَةِ، أَمَّا إِذَا كَانَ النَّقْدُ هُوَ مَا نَتَأْثِرُ بِهِ نَحْنُ لَا غَيْرُ، فَتَلْكَ هِيَ الْفَوْضَى فِي الْأَدْبِ».»

ينبئنا الصافي أنه لا يُعني بـشعره، فهل هذا يعفيه؟ فالشعر لغة غير لغة النثر لا بد من امتحان طريقتها لمن يقوله، وإن نسأل شعراءنا شيئاً فهو الخلق والإبداع، ليس في الأغراض وفي المعاني فقط، بل في التعبير التي تتغذى من حياتنا الحاضرة، فنحس بها كما فعل شعراء العرب في كل طورٍ. إن التعبير الشائخة الهرمة كالأغصان المكرفة، والقضب في أعمال البستاني كمخافة الله في حكمة الأقدمين؛ ولهذا نطلب من هوا التجديد في أدبنا المعاصر تعبير حية لصورٍ ومعانٍ حية.

ولم لا يكون للشعر لغة خاصة ما زال للسهرات أثواب، وللمراقص لبوس؟ فهل من يلومنا إذا أزعنا إلى أخيانا الصافي بأن لا يدخل ديوان العرب ببدلته هذه؟ فأي عذر لحسناء، ونحن لم نستجلها، حتى تدخل علينا منبوشة الشعر، دسماء الثياب، تفوح من أرданها رائحة المطبخ؟!

فالأدب لا يثبت إلا إذا استقام له أسلوب وتعبير رائعان بعيدان عن التقليد والابتذال، تستقر بهما العاطفة الإنسانية بجانب العقل الرشيد، إذا كانamas يُثْمَن ويُسَدِّس ويُحْرَط ليغوي ويغري، ثم يُنْحَت ويُصْقَل حتى يكوب؛ فكيف بالشعر؟ هب المعنى الملاس؟ فمن رأى رجلاً تحلى بـالملاسة فصرّها في طرف مديله؟ إنه يجعل لها ظرفاً من الذهب الإبريز، ويغالي في زركشته. ثم من رأى زهرة بلا كم؟ هب المعنى عبيراً فهو لا يطيب لنا محبوساً في قارورة كما نشاقه ابتسامة في فم الزهرة.

فلا يتوهّمَنَّ أحدُّ أَنَّا ندعُو إِلَى جمال التعبير على حد قول الناظم:

وَمَا مُثْلُه إِلَّا كَفَاقِعٌ حَمِّصٌ خَلِيٌّ مِنَ الْمَعْنَى وَلَكِنْ يَفْرَقُ

فما هذا غرضنا، إننا لا نبتغي إلا معنى طريفاً في قالب ظريف تتحدد فيه كل الفنون الجميلة، فالموسيقى والتصوير والمثالية والعمارة كلها من أعمال الشاعر، وإن ظنَّ أنه لا يتکافَّل شيئاً منها، يا له حملأ ثقيلاً يلقيه الفن على ظهره، فكم يجب أن يكون قوياً! أجل، يجب أن نحس الموسيقى والتصوير والمثالية والعمارة في قصائد الشعراء، وإلا فهي كلمات مرصوفة لم ينفع فيها الفن من روحه. الآخر الأدبي تصويرُ قوامه الشعورُ وتوافقُ الألحان وموسيقاها، والشاعر بناءً أستاذ يهتم بالتألف الفني بين بنياته حجرًا حجرًا ومدمجاً مدمجاً، ثم البناء بجملته، ومثال حاذق ترقض الحياة تحت ضربات إزميله، وتشرّب كلما رفع مطرقه.

إن مهمة الكتاب وخصوصاً الشعراء شاقة جدًا؛ ولهذا لم أتعجب حين قرأت في مجلة «الطليعة» كلمة كاتب إفريقي هذا ملخصها: نحن الكتاب أقل الفنانين عملاً، فالصور والمثال يصرفان نهارهما في معملهما، أما الكاتب فلا يجلس إلى مكتبه إلا هنيهة، بعد أن يحوم حوله ساعات ولا يقع.

تلك حقيقة لا تجده، فالكتاب كسالي والشعراء عجالي، نتوهم — كلما سوّدنا ورقة — أننا نسطر وحيًا بلا جبريل، ونخضع لمشيئتنا الإلهية والإنسانية، ألف سلطائيل ... ولا يجرؤنا على هذا إلا قلة النقد بالمعنىين.

وعندى أن أدبنا هذا لا يهتمي الصراط المستقيم ما لم نقم عليه وصاية نقد صارمة، فنحن إليها في الأدب أحوج. السياسة عرض أمّا الأدب فهو، والأديب الحق المخلص لبشريته يخلق أمّة، إن لم يكن الآن فعدًا، ومن يعترف بكفاءة وجدارة أمّة ليس لها أدب صحيح؟ ألم تَرَ الأمم تشهر الحروب اليوم باسم العلم والثقافة بدلاً من الدين؟

نحن في حاجة إلى أفلام لا تراعي في المنام خليلًا، وأول واجباتها تقدير المهووبين كالصافي مثلاً، ليبدعوا مبنيًّا ومعنىًّا، وهناك واجب آخر أقدس وهو الدفاع عن الأدب ضد الدجالين المغرورين، فأي سوق بلا مراقب؟ إن سوق الخضراء له شيخ!

و قبل أن تكون فنانين وكتابًا يجب أن تكون رجلاً — كما قال برونتير — أما الرجل والشاعر فوجدنادما في صاحب الأمواج، فعسى أن يقذف تياره إلى شط العرب درر الشعر الخالد، ونرى فيه الشاعر والفنان معًا. الشاعر الفنان من يقطع المسلك الوعر، ويشقق طريقه في الغابة العذراء، أما من يسلك السكك ويمشي القافلة فلا رأي لي فيه، فليس نفسه ما شاء.

«لا يكفي أن نقول شعرًا — والكلام لـ «فاغيه» عن لامرتين — يندر الحصول عليه من عمل السجية والقريحة، بل يجب أن نقول شعرًا من عمل الفنان»، لا من وحي الجن كما اعتقد المرحومون أجدادنا وغيرهم من شعراء الشعوب، وبكلمة أوضح يجب أن تقترن القربيحة بالفن لتلد الشاعر، ويمكن الصافي أن يكون شيئاً من هذا ولا يكفيه إلا أن يخرج على منسج دمشقي ويقف متأنلاً.

لا بأس على الشاعر أن يكون كجواد امرئ القيس حين يقيد أو يabd موضوعه، أما إذا بلغ العمل التهذيب فليستعِن بالصبر والأناة، بل فليكن أبلد ستة الشاعر جميًعاً.

أما جمال الشعر فجمال داخلي، جمال نفسي، يشع من الألفاظ كالخمرة في كأس بلوريَّة، فتتحدد الألفاظ بالمعاني اتحاداً كليًّا، فتصير كخمرة الصاحب بن عباد وإنائها،

ومن هذا الجمال الذي لا تحيط بوصفه الكم والكيف يأتيه السناء الفائق، كالذي يلوح في «المِحَايَا» الساحر «بارقاً»، لو رأه الأختل الصغير لما أرسل دمعه فقط ... ولَيَقُولُ الريحاْنِي ما شاء.

٢

قلنا في الفصل السابق إن الصافي توسيع في أغراض قديمة — ومن شاء فَلَيُسَمِّ هـذا تجديداً — فضعف تعبيره وتشوش عليه التركيب، وقد أدرك هذا قبلنا أحد النقاد الإفرنجيين — أظنه برونتير — فقال: «إن التجديد يُتعب الفنان ويعجزه». فكما أن المثال لا يستطيع أن يصيّر الصخرة من الروائع بضربة واحدة، كذلك لا يقدر الشاعر أن يبدع في أسلوب ما لم يتأنَّ كثيراً. إلى هذا أعزوه ضعف التركيب في شعر الصافي؛ فالأسلوب القصصي الذي يتعتمده تعوزه تعابير جديدة وأنماط حديثة، وقوالب طريفة، يصوغها من معدن الكلمة، فهو لا يحتاج فقط إلى كلمات يبحث عنها الشاعر ويضعها حيث استرخي شعره فيشتد، بل يحتاج أيضاً إلى ألفاظ سائرة لا يعني عنها غيرها، ولا يتمُّ المعنى إلا بها، واللفظ السهل لا يشتد ولا تأتفف الحانة إلا إذا كان قائله كالباحثي أو كالأشعشى حين قال بلسان السموءل:

فشك غير طويل ثم قال له اقتل أسيرك إني مانع جاري

فهلرأيت لفظةً غريبةً أو شديدة، فمن أين جاء الشعر هذا الأسر؟ هذا هو سر الأدب الرفيع، ومن هذا المنفذ تتسرّب الركاكة إلى شعر الصافي كما يلح المكروب جسمًا غير منيع، ويوضح هذا العيب فيه تقارب أغراضه وتماثلها، فيبدو لك من بعيد كالعنزة البلقاء، ففي تنوع الأغراض ستة الشعراء.

اقرأ قصيدة الصافي «الليل والنجمون» التي مهد لها الزهاوي فقال لنا: «إنه اكتشف نجماً جديداً». ففي هذه القصيدة ترى ديباجة رصينة، بل عبارات ألفتها وتعودتها، فمن أين هذا؟ إنه أتى من تقليد الصافي للمتقدمين في المعاني والصور، فتوفر على تعبيرهم، وأتاك «برواسمهم» التي يجترّها كل شاعر، فقال لك: بحر الغسق، ونبيل الحدق، ورث الحبل وخلق، ونهر المجرة انبثق، وفحة الليل، وقرن الشمس، وعمود الفجر، وقدح الزند، والفرقدان صاحبان، والأفق درع، وأحمر قان، وأبيض يقق ... وهلم جراً من هذه البضاعة التي كَبَّلت وتكلّل الفكر العربي.

ليس يضير الصافي قولنا إن أغراضه غير جديدة؛ فأمثاله كثيرون، وحسبه هذا التوسيع لولا الذي فيه من رخاوة، فالفكرة لا تنمو في الزاوية التي ولدت فيها، بل تتجاوز حدود القرية وتخوم البلدان وتهاجر كالناس، ولكن بلا جواز. فدولة الأدب لا قناصل فيها ولا سفراء للتأشير، وكل فكرة «مرغوب فيها» لا تبعد ولا تنفي، بل تتطور وتتكيف وتشري من هجرتها. وهكذا تتلاطم الأدمعة الخصبة وتتوالد، كما رأينا بين الفرد دافيني وسعید عقل في بنت يفتاح ... فلا يخشى الصافي أن يصير جدًا بلا أحفاد، كما قال، فالآفكار تتناضل وتحيا وتبقى، وأخذلها أصلاحها.

إذا قلنا: أن هذا تأثر بذلك، فلا نعني أن هذا الزواج المبارك يعقب — دائمًا — بذين صالحين من أبناء السلامنة؛ فالمعربي ودانتي وأغلوسطينوس — ومن لفَّ لهم — تأثروا برأياً يوحنا حين حدثونا عن نعيمهم وجحيمهم، أما أولئك النخاسون الذين يسرقون أولاد الناس بشحتمهم ولحمهم ويدمرون آذانهم — لا عفا الله عن آذانهم الطويلة — فما هم إلا قرصنان بحر وصعياليك ليل.

أما الصافي فلا يقفوا أثر أحد، وليس في شفقته على الحيوان تقليد للمعربي، كما أن تبرُّمه بنا نحن البشر ليس كتبرم ذاك، وإن تمادي فرأى الحيوان خيرًا منا، فقد قال شاعر قبله:

عَوَى الْذَّئْبُ فَاسْتَأْسَسْتُ بِالْذَّئْبِ مُذْعَوِيٌّ وَصَوْتُ إِنْسَانٍ فَكِدْتُ أَطِيرُ

تلك ساعات سوداء، أوحىت إلى الصافي ما قال، وما أكثر سويدة المريض، اقرأ له من تصييده «البرغوث العاشق»:

وَإِنْ أَصِلُّ رِبْوَتَهَا أَصِلُّ فِي مُحْرَابِهَا
الْثُمُّهَا مِنْ فَرْعَهَا لِمُنْتَهِي كَعَابِهَا

لنعرف أن عنده ما عند البشر، أولئك القرود الذين انحطوا فصاروا ناسًا، كما قال فيهم:

فَالْقَرْدُ يَعْمَلُ مَا تُؤْحِيهِ فَطَرْتُهُ وَالْمَرْءُ يَعْمَلُ ضَدَّ الْعُقْلِ وَالسُّنْنِ

وهل يعمل الإنسان يا أخي بغير فطرته؟ وهل السنن غير لجام لها، فمتى صار
الرسن شريعة؟ اقرأ قصيدة البرغوث تَرْحُبًا ساذجًا وغزلًا فطريًّا، لتعلم أن أخانا الصافي
غضبان علينا وحدنا نحن الجنس الخشن، الثقيل الدم، وتدرك أيضًا أن شاعرنا تاءس
الجد فيختتم «برغوثيته» بقوله:

وإِنْ تَصْدِنِي كُفُّهَا أَمْتُ فِدَا شَبَابِهَا

حلو هذا الوفاء. سلمت يا أخي، وعدت بخير من رحلتك المضنية، لقد صدق العرب:
«السفر قطعة من العذاب..»

والصافي ثائر على كل شيء، وراضٍ عن كل شيء، وأظنه يفتّش عما يثور عليه
تفتيشاً - وفق الله سعيه - ولهذا يصعب علينا الآن تحديد اتجاهه في أمواجه، أو نقول
من يشبهه، فهو لا يشبه إلا أحد الصافى النجفي، بل لا يشبه ذاته في قصيدة وأخرى، إنني
لعلّي يقين أن الصافي يحلّ لنا نفسه في مواضيع عديدة، ولكننا لم نظرف بعد ب بصورة
واضحة الدلالة باللونها وخطوطها، فلا أدرى إذا كانت نفسه معقدة بهذا المقدار فلم
يُوقّق إلى تحليلها! فبدلاً من أن يريينا الصافي نفسه أرانا مبانله، وما عنده من آلة، فجاءت
وجوه بعض صوره مقرفة. خبرنا عن عواطفه خبراً، ولم يتغّرّ بها كالشعراء، فكل المقرر
عندى أنه لم يجد نفسه بعد، فهو في لحظة عواد يصلح أوتار عوده المشوشة، أو كالسديم
الذي يدور على ذاته ليتم نوره، فعسى أن نرى كوكباً ساطعاً وشهاباً ثاقباً.

والصافي في أمواجه كطفل يبكي، فما نحن ندرى ولا هو يدرى ما يريده، فيبینا نراه
يحقن على فارة وينصب لها مصيدة، إذا به يطلقها، والعفو عند القدرة جميل. ثم يزعجه
ديك فيتمنى له الذبح ويشتتهي أن يكون له ابن آوى لولا السياج المحيط به، اسمعها
شعرًا:

فَلَوْ أَسْتَطِعْ كُنْتُ لَهُ ابْنَ آوَى وَلَكِنْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ سِيَاجٌ

العهد بالشعراء يحبون الموسيقى والجمال، والديك موسيقار جميل فاتنة ألوانه،
وشتان ما بين فارة وديك، ولكن الصافي مولع بالنقائض، أما ما يبدو لي - الآن -
من اتجاهه فهو ميله إلا الوصف، وخصوصاً ما يخالف منه العرف، فيستخرج حكمًا
وعبرًا كشعراء العرب الذين توهموا - أمس واليوم - إن الحكمة خالة الشاعر، ومن لم

يقل الحكم فهو عندهم كمن لم يزُرْ حلب عند أخينا بشارة في متنبيته. وهذا ما أقصى شعراء كثيرين عن الفن.

وبعد، فَلِيُّ الصافي على كل ما تواضع على احترامه البشر إلا ديبةجة الشعر وألفاظه والقواعد النحوية، فإن ازدراها ازدرى فنه. لم أر له ضرباً في هذا النحو إلا فرنسيس مراس الحلبي، كلها حاول التجديد، وكلها لم يؤدِّ أداءً حسناً، والفرق بينهما أن الصافي لا ينقصه إلا الجلد، أما مراس فعل ما أطاقه.

آية ضرورة قضت على الصافي أن يقول:

إذا هجنَ الديوكُ وصحنَ حيناً فـذا طولَ الظلامِ له هياجُ

ثم قوله:

وـكـمْ «ضـعنـ» مـنـيـ فـي خـيـالـي لـذـائـذـ فـلـمـ تـبـقـ لـيـ مـنـهاـ وـلـاـ لـذـةـ الذـكـرـ

ما لنا وللبحري، ولكن أنرضي بها غلطاً، كأنني به يريد أن يتتابع عمر بن أبي ربيعة حيث قال:

«رـأـيـنـ» الـغـوـانـيـ الشـيـبـ لـاحـ بـعـارـضـيـ وـكـنـ إـذـاـ أـبـصـرـنـيـ أـوـ رـأـيـنـيـ فـأـعـرـضـنـ عـنـيـ بالـخـدـوـيـ النـوـاضـرـ سـعـيـنـ فـرـقـعـنـ الكـوـيـ بـالـمـحـاجـرـ

فلو قلنا لعمر مغفورة لك خطاياك لأجل هذه الصورة الجميلة، أنقول ذلك للصافي وهو لم يخبرنا إلا أن الديك يلح في صياحه؟! فما أحسب الصافي قد ارتكب هذه الأخطاء إلا عمداً؛ لأنه يحب الأخطاء كما سترى، أو أن غرفته تذكره دائمًا بلغة «أكلوني البراغيث»! كفى لغتنا هذا التمييع والتلمط في قواعدها وألفاظها، ثم ما أجبره على القول: «فلو بأية حيوان تبدلني»؟ وعلى القول:

أـحـشـاهـمـاـ بـالـيـاتـ كـمـاـ بـلـتـ أـحـشـائـيـ

ما لنا ولهذه الأخطاء الآن؟! أَفَلا أظفر بتعبير جديد في ديوان قرأته من الدفة إلى الدفة؟ فبماذا تفوق امرؤ القيس وعمر حتى قالوا بهما: أول من قيد الأولد، وأول من حير الدمع وماء الشباب؟ ... إلخ.

إن في الصافي حسناً ولكنه في شعره، حسنٌ جميلة غير مهمنة، ضاعت معاني جمالها في ثانياً ثوبها المجد، قلما نلمس في ديوان الصافي أثراً للشباب بل للرجولية، وقد قلتُ ألوانه حتى الندوره، أما رجولته فتتجلى حتى في أشد حالات بؤسه، فما هو ذلك البايس الرخو، بل بايس صلد كالرخام تحت مطرقة النحات وإزميله. أما العزمة العربية في شعره فهي كالبرق الذي وصفه امرؤ القيس، لکمع اليدين في حبي مكلل. والخلاصة أن في الصافي نخوة الفرس العربي الأصيل مهما هزل ودق، أما حنينه إلى الطبيعة وغضبه على المدن فينبع من نشأته الأولى التي طلقها فصار يرى نفسه كمنفيٍ؛ ولهذا جاء شعره وثيق الاتصال ب حياته.

ترى في ديوان الصافي أشباء صور، فهي لا تستوقفك ولا تستهويك؛ لأن صاحبها لم يحذق إبراز خطوطها ذوات المعاني، ولم يُحدِّ تلوينها، وهو لو فعل لأرانا جمالاً. يحاول الصافي إجادة الختام كأبي نواس، وإن لم يحسن جمع نفسه في زوره كأسد المتنبي، ليقفز خاتمه قفزاً ويجمز جمزاً، اسمع ما يقول عن التاجر الشامي الذي خال الصافي أميراً بدويًّا، وهو مار بذكانه:

ثم ألقى شباك بشرٍ ولطفٍ
فوق وجهي يرجو بها أن يصيدا
هَبَّ لَمَّا مَرَرْتُ بالقربِ منه
قائلاً: ما تريدي؟ قلتُ: «نقوذاً»

وبوجه عام ينقص شعر الصافي كثير من الدم، فهو بحاجة إلى كمية وافرة من زيت السمك، أما هو فيرى الشاعرية كلها في مخالفة الناس؛ ولهذا يكتفي بوصف الأشياء دون تشخيصها، فتبقى كما هي، أي أشياء. وأذكر أنني قرأته له شعراً قال فيه أنه يريد أن يقول شعراً منطق الطير لفظه، فيا حبذا، وعسى أن يكون أذب الطيور ترتيلًا! ومن يُؤتَ هذا فقد أوتي شيئاً كثيرةً.

نحا الصافي في ذكر قبجه نحوً عنترة، ولكن الشاعر الجاهلي كان أربع جدًا فاستغل سواده حتى لم يبقَ غذاء في ذلك السواد إلا امتصه، فأخرج الصور الرائعة مبنيًّا ومعنى، وأبيات عنترة مشهورة. وأذكر شاعرًا آخر، أسود أيضًا، هو محمد إمام العبد المصري، قد أخرج صورة رائعة لسواده حين قال يعتذر عن عزوبته:

أنا لَيْلٌ وَكُلُّ حَسَنَاءَ شَمْسٌ
فَاجْتَمَاعِي بِهَا مِنَ الْمُسْتَحِيلِ

وقد حلَّ أَيْضًا عنترة نفسيَة جواده — ولم يتعلَّم علم فرويد كسلامة موسى الذي
طلع علينا مؤخًّرًا بسادية المتنبي — فأجاد بقوله:

فَارْوَرَ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا بِلَبَانِهِ وَشَكَا إِلَيَّ بَعْرَةً وَتَحْمُمٍ

كما حلَّ الصافي نفسيَة بعض القحط الكلاب والفار، ففي قوله: «فضحونا حتى
أمام الكلاب!» ختام رائع، وسخر لاذع، ذكراني بقصيدة لأسعد رستم الشاعر الظريف،
ختمنها بما معناه: إن هز أذناب الكلاب أصدق من هز أيدي البشر.

وأرى الصافي بيالغ جدًا في وصف «غرفة شاعر» وغيرها، يرشدني إلى هذا الحكم
تغيّر بقبحه، أنا لم أر فيه جمالًا ولكني ما رأيت قبحًا كالذى يصف، فلا قبح ولا دمامات
ولا عاهة — خلقة كاملة، نعمة زائدة — كما يقول المثل. هذا إذا لم أكن مبتلي بخداع
النظر يوم لقيته، أو جعلت وجهي مقاييسًا للجمال الرائع.
ذكرتني قصيده «غرفة شاعر» بقصيدة ابن الأعمى في ذم دار سكنها، والشاعران
بالغاً جدًا، لو كان في غرفة الصافي قيراط مما وصف لأكلته تلك الحشرات، فالموليماء لا
تسلم من تلك الفئران والجرذان. وإذا كان الشاعر ينام حقًا في «أوضة» كالتي وصف،
فقد ظلمناه في تلمسنا الفن عنده وتطلبه منه، إليك ما يقوله في مفرشه وغضائه:

صَارَا ثَمَيْنِينَ لِمَا	صَارَا مِنَ الْقُدَمَاءِ
كَمَا «بَلْت» أَحْشَائِيُّ	أَحْشَاهُمَا بَالِيَّاتُ
حَتَّى گَانِي شَلُوُّ	أَنَامُ فِي أَشْلَاءِ

وما زالا من جيل نوح فأعجب كيف اجتاز بهما الحدود! وأشك أن في دمشق بلدية.

١٩٣٥ / ١٢

إن شعر الصافي يشتند في القصائد القصيرة الوزن، وتقل فيه: قد، وكل، وكل، والغير،
وذا، والبعض، ووجود، وما إليها من الألفاظ التي يحشو بها شعره ليستقيم الوزن،

قابل إذا شئت، قصيدة «البرغوث» «وسراجي»، و«الوحدة»، و«البدر في الهالة»، و«إلى العميد»، بغيرها من قصائد الصافي الطويلة الوزن.

ويشتند شعر الصافي أكثر في الموضع العتيقة، قلباً وقالباً، كالليل، والنجوم، وقد أشرنا إليها، والهواجس الثائرة، وبين الفرس والعرب، ووصف الشاي، فيكاد يسلم من حoshi الكلام، وتلك الطفيليات. والصافي لا يتحاشى تسكين المتحرك – قاتل الله من جوزه للشعراء – فيسكن الحيوان، والخشن، والنهم، فيزحف شعره سلحفاة، والشعر يجعل أن يكون فراشة، فإذا صح أن للمحيط تأثيراً بالشاعر، وهذا لا شك فيه، فخطيئة الصافي في رقبة تلك الغرفة، فالذى يأوى إلى مثلاها لا يبالي بتكردss الفاظه وتدريكتها. وربّ قائل قال: قد فرغ الصافي مما تستجهد فيه، أما قال في مقدمة أمواجه:

وأسكن كوخاً ما به أي زخرف ولكنه كوخ أقامته لي يدي

قلنا: إذا كانت البلديات تهدم مثل هذه الأكواخ وتحرقها، وتسرهر على هندسة الشوارع وتحطيطها، فأحرر بنا، نحن، أن نفعل مثل هذا للمدينة الخالدة ... وكيف نرضى بالصافي بكوخ وهو يقدر على تشييد قصر لو تجلّ؟ فلو لم يكن الصافي شاعراً سليقياً لما أعننا ديوانه هذا الاهتمام، فالنفس نفس شاعر، أما التعبير فكذب البحترى ما فيه إلا العظم والروح والجلد، ومن يكفل لنا أن الصافي لم يقل هذا اتضاعاً كدي موسه؟ فالشعراء كالنساك في ألسنتهم تواضع عميق.

أما بؤس الصافي فتلمسه في قصيده «ما اسم هذا اليوم»، لا في «غرفة شاعر»، ولا في «الوحدة»، ولا في «الحنين إلى الطبيعة» حيث يقول:

طبيعة الكون في خلقي لقد غلطت فلو بأية «حيوان» تبدّلني
هل جئتُ دهري هذا في أواخره أم أنني في وجودي سابق زمني

أما أنا فأظلن الأمرين: الزمان آخر والصافي سابق، أما الحقيقة فعند صبي المعري الخبيث. ثم ما لي ولهذا الجهد، ف الحديث الشاعر من باب تجاهل العارف، وتلك شكوكى الشعراء من «أهيل» زمانهم، فلا حول ولا قوة ...

ويتيم الصافي يذكرني «بأم يتيم» الرصافي ذات الديباجة البحترية. أما كيف انشقت الأرض وبلعت شاعرية الرصافي فهذا ما يحيرنى!

أحمد الصافي النجفي

تملّص الرصافي من «قال وقالت وتقول ويقول»، وتعثّر الصافي بـ«يقول وتقول»،
وكأنه شعر بثقلهما فأراد أن يتخلص منها فجاءنا بـ«تدعوا ودعاه»، فكانت أثقل وأشنع
كما ترى:

فيفقول أين أبي «فتدعوا» غائب
ولربما وجد الحنان من امرئ
«فدعاه» أنت أبي وكتبت مضيء

أما صرخة الصافي في ختام «يتيمه» فموجعة حًقا؛ لأنها منبعثة من كبد مقرورة
ذاقت مرارة اليتم:

ليت الصغار جمיהם لم يعرفوا
كيلًا يصيب اليتم بعضاً منه
آباءهم وربُّوا معًا في موضع
فيعيش عيشة بائس متسلّع

وما أوقع الصافي في تلك الورطة إلا تبُّسطه في الغث والسمين، وتفصيله كل حركة
كانه يصف حفلة لجريدة: أقرأ «اليتيم» و«أنا والدجاج» و«الشاعر والفار» و«الشاعر
والقط»، فترى أن الكلام لم ينقد له في القصص إلا في «بين شاعر وصاحب فندق» التي
أجاد الريhani حلها في «قلب العراق»، فأخرجها فكهه رشيقه وكل ما يكتبه الريhani
في هذه الأغراض.

فبينا تراه يقول ويبدع:

إنْ رمْتَ في الدهر أن تحيَا فكُنْ خشناً
يعدو الزمان فمَنْ لم يعد مستبِقاً
فمنخل الدهر لا يُبقي سوى الخشنِ
أمامه سحقَته أرجلُ الزمنِ

إذا به يسف ويرك شعره حين يقول:

ما أرى المجلس إلا حاكِياً
ضمَّ آلات بسلك ربطت
صوته عن مجلس منعكُنْ
فإذا حرك يوماً ينبعُ

ألا ترى كيف أخبرك أن المجلس كالحاكي، ثم شرع يفصل لك كأنه يشرح للتلمذة درس فيزياء؟! فهو لا يوجز ولا يرمز، ولا يثق بفهم الناس، رآهم لم يقدروه قدره فساء طنه حتى بفهمهم شعره، فشرح لهم حتى أملأهم، والمددوغ يخاف جرة الحبل.
وفي «خيبة الشعب» يخاطبنا الصافي بلغة «المليجانا والعتابا» فيقول:

تالله ما أعظمها من خيبةٍ نحن زرعنا الزرعَ والغيرِ حصدَ

أما الزجال اللبناني فقد قال أبلغ من هذا الشعر:

يا شجرة البالدار ناطورك أسد
وتكسروا الأعصان من كثر الحسد
يا حسرتي عبوا القمح بعدالنا
نحن زرعنا الزرع وأجا الغير حصد

أسمعت الشعر الباكي المؤلم؟ هذا شاعر يبكي ويبكيانا معه لأنه صادق، فأين «تالله ما أعظمها من خيبة» التي عصر الصافي يافوحه حتى أخرجها، من قول الزاجل: «يا حسرتي عبوا القمح بعدالنا»؟ ... أرأيت يا أخي الفصيح، روعة الشعر العامي؟ فهذا الهاتف يا حسرتي، وهذه الصورة الباكية: «عبوا القمح بعدالنا»، أي حصدوا زرعه ونقلوا الحنطة في عده، فتأمل.

وما قوله — يا سيد الشاعر الكبير — بالصورة الأولى: «شجرة في الدار، وناطور أسد، وأعصان تتكسر من كثرة الحسد»؟ لا تننس أن الحسد يشغل بال القروي جداً حتى على عنزته وبقرته و...

ومتى عرفت أن هذا القوال لا يعني بالشجرة غير حبيبته التي انتزعت منه، فلا شك أنك ستتشابعني وتزعم زעמי أن هذين البيتين من الشعر الحي، فكل لفظة تبوح بمعناها وتخبر عن لوعة صاحبها، حتى تقاد تشخّصها لك.
وكأني بالصافي يدرك أن الألفاظ لا تطيعه في يقول لنا:

أهوى المعاني عن ثيابِ اللفظ تظهر عاريه
فالشعر تحجب نوره ألفاظه والقافية

إذن فليكتب نثراً فيريحنا من النقد! إن الوزن والقافية للفنان كبورة العدسة التي يتجمع فيها النور، أما الصافي فما اكتثر لألفاظه ولا بالي بقوافيه، فجاءت نافرة شاذة، طالعة نازلة، مداميك لا يردعها خيط ولا فادن. وإليك شاهداً من قصيده «الشاعر والقطط» التي بلغناها الآن:

قطيطاً قطُّ لم يذنب ويجني
وليس حيّاً منهم غير جبن
لذاك ضممته لي ضم خدن
فألف بينه طبع و«بيبني»
ونظرته عن الأشعار تغنى
وكلت مكابداً خجلًا لطريدي
حيّاً من القطيط حياء نبل
ففاق حيّاً منه على حيام
فهل هو شاعر القلط التقى بي
أيبغي أن ينافسني بشعرني

حقاً إنها منافسة غريبة قوية! أرأيت مرة أخرى مانا يفعل «التفصيل» بأخينا الصافي؟ وهل من بأس علينا إذا تساءلنا هنا عما تراه يورث الصافي شاعر القلط حتى يقول له:

وكنت أود لو تغدو لي ابنًا
أورثه إذا صَحَّ التبنّي

لقد صح هذا يا أخي في أميركا وأوروبا، فورثت القلط خيرات كثيرة ... وما يمنعك من هذا، فالوصية معمول بها عندنا فوّض لقطك ما شئت ... وأن تستشرني قلت لك:
ورثه غرفة شاعر، أليس هو شاعر القلط أيضًا؟
أما «الليل والهم» فأعجبتني مبني ومعنى، ففيها أثر الخيال الذي فتّشت عنه ولم أجده في شعر الصافي، اسمع وصف همه:

والهم مجنون تراه هادئاً
صباً وإن جاء الدجى تهيجاً

وبعد أن يصف جنون «همه» المطبق، وما كان بينهما من طعن وضرب، وكراً ونزل، حتى استحال الصلح، قال لنا الصافي:

لو كان همي عاقلاً أقنعته
لكنني قابلت هماً أهوجاً

ويلي عليك يا أخي! ما أجمل بيتك! وما أروع همك الأهوج! وآه من «قابلت»! ليتك تأنيث وجئتنا بأحسن منها، فلو لها لقلت لك: أنت أشعر العرب يا ابن أخي، وترحمنا كلانا على النابعة.

وظل الصافي يتصرّع وهمه حتى مطلع الفجر، وأخيراً قال لنا:

فرّ وألقاني صريعاً بعده وقال ألقاك إذا الليل سجا

قد ذكرني صراع الصافي وهمه بصراع يعقوب مع الرب كما خبرتنا التوراة، وحمدت الله على أن الصافي لم يفك جنبه كيعقوب إسرائيل الذي أورث البشرية «عرق النساء». وفي «غناء السواقي» ومضة صوفية، وفي أبيات غيرها يقترح الصافي تسمية الشوارع بالأخلاق بدلاً من الرجال، هبْ أننا يا أستاذ سميّنا شارعاً باسم العفة، وكان كشارع المتبني في بيروت، فماذا تعمل؟
وأخيراً يرينا الصافي التناقض الذي يتعشّقه في صفحتين متقابلتين ١٣١ و ١٣٢ فيقول:

أهوى الكلام من الشعور مجرداً إن الشعور قبوره الألفاظ

ثم يقول:

لُبُّ المعاني يقرُّ	اللُّفظ قشر وفيه
أن يعتني «فيه» فكرُّ	كلاهما مستحق
إن لم يحط فيه قشر	فاللب يفنى سريعاً

وأخيراً يصарحنا الصافي بما في نفسه فيقول لنا:

أنا فيه فرد بدون خلافِ	لي في الشعر عالم مستقل
واحد لا نظير لي في القوافي	لم أشارك غيري لأنني كربلي

صدق الله العظيم، الشعراء في كل وادٍ يهيمون، وكأنني أرى بشارة الخوري يغضب
غضبه المضري حين يسمع هذين البيتين، فينتصب وينشد:

ومعشرٍ حاولوا هدمي ولو ذكروا لكان أكثر ما يبنون من أدبي

أما نحن فترك الصافي وبشارة يتناحران علىَّ من هو شاعر السماء والأرض، ونمسي
في طريقنا عجالي لنرى ما عند الصافي بعدُ، ها قد وصلنا، فهو يحدثنا عن نفسه بصورة
أخرى فيقول:

كأنني من الأخطاء طيني مركب مما أصلاح الأخطاء إلا بأخطاء

وقد فعل هذا حَقًّا في قصيدة «الطفلة السائلة» بقوله ص ٥٨:

هل تستطيع العيش من عمل وسنونها لم تبلغ العشرا

فأصلحها في «التصحيح» وسننها، وظللت خطأ ... ولا اعتبار لما ذكره ابن عقيل
فذاك سماعي، وكان على الصافي أيضاً أن يحذف الياء من «كأنني».
وفي آخر ديوان الصافي ثنائيات ورباعيات وخماسيات يجمعها عنوان «أنغام
مشوشة»، وهي كذلك، نظم فيها الصافي كل شاردة وواردة شعراً، وهذه مصيبة! وقد
لاحظت هذه القطع فرأيت أن أبياتها الأولى تُسخر كلها للبيت الأخير، فتبعدوا ساحتها
كالحة كوجه الأجير عند الصباح.
وفي خاتمة الأمواج يشعرنا الصافي في نظمته:

وح والسر في البيان الفصيح وجمال الأشعار في أن تبين الر
وكجهم يسعى لتكسير مرآة
إنما الشعر مثل قذف البراكين
أتبعيدون قذف طاغي البراكين

إذن هو في وادٍ ونحن في وادٍ، هُدِينا وإياه. أما ما قرأت له أخيراً في غير الأمواج،
فيثبت لي أن الأيام وممارسة النظم ستعدّل الصافي من حيث لا يدرى.

على المحك

أمد الله بعمره وأراحه من غرفته وهمه الأهوج، وحسبه من التجديد أنه لم يمدح
ولم يرث.

ولليثق الصافي وغير الصافي، ممن انتقدتُ وأنتقد، بإخلاصي لهم، وإنني أتمنى أن
يكون العام الجديد أغزر وأجود محسولاً، فيفيض التقرير ويفقد الانتقاد.

١٩٣٥ / ١٢ / ٢٨

الزهاوي، بشاره الخوري، شبلی ملاط

أنا إن رثيتك لا أقل
لا البدر هاً من ذرا
لكن لحناً للمكا
يتأملون له إذا افـ
هي دمعة جمدت على
د أو أبالغ في النحيب
ه ولا الطبيعة في شحوب
رم نام في الوتر الطرورب
تقدوك في اليوم العصيـ
شفة المرتل والخطيب

نقولا فیاض

1

وا عجبًا لهذا القمر! فكم مرة ينشق ويهوي! وللشمس كيف يحترق قلبها حزنًا وتكتفن
وتدفن، ولا يتأنم لهذا الخطب الجسيم غير الذين يقولون الشعر عربي اللسان! فكل
فقيد عندهم قمر يجلو الدجى ولو كان عبداً كافور، وكل ميت نجم يأتم الهدأة به ولو
كان أبغى من بشار، وكل هدرة سيف تقطع رقاب الدواهى وشمس تضيء.

وكأني بالدكتور فياض الخطيب الشاعر أحّس بمحضية الأدب العربي، وأدرك أن هذا الضرب من الشعر صار أكره من طعام لا تقبله النفس، وأشأم من أحلت أملاكه يصبح فجر الإثنين، فقال للناس في رثائه للمرحوم الدكتور الصليبي:

أنا إن رثيتك لا أقلد
أو أبالغ في التحبيب
لا البدر هاٍ من ذراه ولا الطبيعة في شحوب

حلو هذا القول من شاعر وخطيب تعرفه المنابر، فانفع به — اللهم — أبطال معارك الرثاء والمديح فيتعظوا ويقلعوا عن تلك الصور السمحجة، والتعابير التي ينظمونها كما يصف الصبيان الكعب. إن لحن المكارم الذي نام في الوتر الطروب، والدموع التي جمدت على شفة المرتل والخطيب، تساوي ألف شمس تكسف، و مليون قمر يخسف، و مليار سيف يسقط بعد طول الضراب، وغيرها من معجزات النواحين التي تضحك الأمم فوق نعش وحيدها.

ظن بعضهم أننا نتشفّى بهذه الكلمات التي تذيعها «صوت الأحرار»، وحالوا أننا حاول الحط من قدر النوايحة والعقريين، حتى استجهلوا وعدوا ما نكتبه تحاملاً على أمراء الأدب، وتهجّماً على الشعراء العظام. الله! الله! كيف يفوت هؤلاء الأذكياء النباء أن الأدب لا يصلح إلا بنقد لا هوادة فيه؟ فعلـيـريـضـ أنـ يـقـبـلـ العـلـاجـ المـرـ،ـ وأنـ يـصـرـ عـلـىـ مـبـضـعـ يـشـرـطـ جـلـدـهـ لـيـسـأـصـلـ الدـمـلـةـ قـبـلـ أـنـ تـسـتـشـرـيـ،ـ وـتـسـيـ آـكـلـةـ تـسـرـحـ وـتـرـعـيـ.

إن رسائل السب التي يشرفوننا بها ويفكرونـناـ بتـلـاوـتهاـ كـثـيرـةـ جـداـ،ـ وـخـصـوصـاـ فيـ هـذـهـ الأـيـامـ،ـ فـالـحـدـيـدةـ حـامـيـةـ.ـ أـمـاـ ماـ اـنـطـوـتـ عـلـيـ تـلـكـ الرـسـائـلـ فـكـماـ بـصـرـتـنـيـ نـورـيـةـ عـبـرـيـةـ ...ـ نـاسـ يـحـبـونـيـ وـنـاسـ يـسـبـونـيـ ...ـ وـأـنـيـ —ـ عـلـمـ اللهـ —ـ لـأـفـرـأـ السـبـ كـأـنـهـ الثـنـاءـ،ـ فـلـاـ يـمـضـيـ وـلـاـ ذـاكـ يـثـنـيـ،ـ مـاـ دـمـتـ لـأـرـىـ إـلـاـ كـمـاـ قـالـ أـبـوـ الطـبـيـبـ:ـ وـذـكـرـ «ـشـعـرـ»ـ وـمـحـصـولـيـ عـلـىـ كـلـمـ.

ليطمئن أصحاب تلك الرسائل بما ضاع ثمن طابع البريد ... فسنعلن رسائلهم العاطرة بكل ما فيها من مسك ينم عن أخلاقهم الذكية، وسوف نتمتع جهاراً بتلك الألقاب السابغة: كصاحب الأذن الطويلة، والذنب الأعف ... وهلم جراً.

إن محصول شباط كان هواء وعواصف هوجاء، فلا بد من عودة إلى كانون. كان من مواد هذا الفصل قصيدة «سليل القرد» للزهاوي — رحمة الله — فطواه الموت مأسوفاً

عليه، وطوبينا نحن كلمتنا في قصيده هذه، رجاء أن نقول فيه يوماً كلامه أعمّ وأوف، فتفكير الزهاوي يستحق الدرس، وهو شاعر – على قلة حظه من النظم – سار إلى غاية، وشمر لغرض.

مات كبلغ شاعر الإمبراطورية الإنكليزية منذ أسبوع، فقالت الصحف الكبرى الأوروبية: إنكلترا بين حدادين. فاستوى عندها الشاعر والإمبراطور العظيم، أَفْلَا يعذرنا اللائمون إذا نشدنا شاعراً كبلغ؟ ولماذا لا يكون لنا هذا الشاعر لو قلع شعراً علينا طيلسان ابن حرب، وخلعوا مدارس أبي القاسم الطنبوري، ناظرين إلى ما قدامهم لا إلى ما خلفهم، وعافوا مستنقعاتهم فلا ينقوون بلا شيء كشيوخ محارب. ولكن من أين يأتيهم الإبداع وهم لا يعرفون، بل لا يقدّرون إلا أبي الطيب وأبي تمام والبحتري وأبا نواس، ويشنون الغارة حتى على شوقي؟ كيف يكون لنا شعراء كبار حقاً، في عصر ثائر على كل شيء، وشعراً علينا يحومون كالرخام في جو ضيق، بأجنحة قصيرة القوادم، ممعوطة الخوافي، كالدجاجة في كانون؟ بل كيف يُخلق منهم الشاعر المنشود ومثلهم الأعلى إرضاء العوام، لا الشعور والفن؟

إن هؤلاء الشعراء – شعراء الظل – كمن يأكل ثروته في حياته، ولا يُبقي لذريته شيئاً، فلن يكون حظهم من ملوك الأدب أكثر من غني المسيح الذي قال له الإنجيل: تذكر يا هذا أكلت خيراتك في حياتك ولعاًز في بلاياه ...

كيف يخلق عندنا هذا الشاعر ولا تطور في تفكيرنا وتعبيرنا وصورنا ومقاييسنا: نمسح بالخطوة والقصبة، ونكيل بالصاع والإرب، ونقيس بالشبر والباع والقامة، فقليل من الهم يكشف لنا خبايا هذا الشعر لأننا نقرؤه منذ أجيال. معانٍ مبتذلة وصور مضحكة مبكية، وفخر صفيق، فلو أهدى إلينا هؤلاء الشعراء كما قال رمي غورمون في بعض شعراء جيله: «سلّات حافلة بأزهار طريقة معقمة بطفيليات كبراء فارغة.» لهان علينا الأمر، ولكننا لا نظرف إلا بالشك من هذا العlico.

قلنا لا بد من رجعة إلى كانون، فما نظمه الشاعران شibli ملاط وبشارة الخوري أذيع فيه، ما خلا أبياتاً شباطية لبشرة ستقرؤها، أما الآن فسنعالج قصيده في الزعيم الكبير إبراهيم هنانو.

جعل الأستاذ بشارة الزعيم المندوب سيفاً يسقط بعد طول الضراب، وإبراهيم هنانو سيف، أي سيف، ولكن شاعرنا أغرب جداً فيما بعد، فأقام لهذا السيف الكريم مائماً في الخدود للأدمغ الحمراء، وجعلها بقبايا جيش كسيح من الشهب ترامي الشهاب إثر الشهاب ... من ما يستغرب تشبّه الدموع بالنيازك؟ فالدموع عندما تدحرج وتتدّهور في الخدود تمثّل أصدق صورة للنيازك الهاوية! وهل في وسعنا غير الإيمان بما يقول بشارة؟ فإن لم نؤمن كفرنا بلاهوته، وكانت خطيبتنا عظيمة لا يحلها إلا رئيس أساقفة بعد التوبة النصوح والندامة الكاملة، ووفاء القانون. وأبدع من هذا ما ي قوله الشاعر في هذا الجيش الكسيح، أي المكسوح لا المقدّع:

يتعرّن تاراً بالذى جفَّ وحيثاً يطّدون طفو الحباب

أيجوز لمثلي يا ترى أن يسأل: كيف تتعرّن الدموع بالذى جفَّ؟ لقد أدركت ذلك، فليسّمح لي الأستاذ أن أشرح لقرائه آيته هذه، فهي أعظم من آية يونان؛ إن الدموع كماء البحر في الملوحة، وماء البحر كما تعلمون — أيها القراء الألباء — يصير ملحاً متى تبخر، وهذا رأى الشاعر الدموع تتعرّن في حدود الناس بالدموع التي تجمّدت وتبلورت، وسدّت على أخواتها الطريق فيطّدون طفو الحباب ... ألمْ تر في زمانك إلى «سكر» مطحنة؟ إني أخشى أن تدري الحكومة بهذه الملاحات الجديدة فتحجزها. ثم ينتقل بشارة إلى الاستفهام الذي ذاب به غراماً، منذ رثاء زغلول إلى اليوم، حينما سأل الناس إذا كان زلزل الهرم، وإلى المبالغة التي عشقها، منذ سقوط عبد الحميد حتى الساعة، فأوصى قلل الشرق بقوله: «حاذري أن تميدي ...» أما اليوم فتساءل بشارة إذا كان مأتم الزعيم هنانو طغيان بحر، فقال:

أطغى البحر ذو العباب على العُرب فلفَّ القصور بالأطناب

لينعم بالـ شكسبير، فلن أرسى المراكب في حلب فأضحك الناس، فهذا طوفان جديد قال له الشاعر كن فكان، فخلق بحراً ذا عباب يغطي عورة شاعر الإنكлиз الأعظم، فلا يصيبه ما أصاب نوح، بعد طوفان التوراة.

وانطلق الشاعر إلى الاستفهام عن مشهد أغرب فقال:

أمْ هو الحَسْر يَوْمَ زَلَّتُ الْأَرْضَ عَلَى صَوْتِ بَرْقِهَا الصَّخَابِ

لا تتعجب أيها القارئ من قوله: يوم زلزلت الأرض، فهو يحدثك عن الدهر العتيد،
ولكنه جاء بالماضي على حد آية القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقْفُوا عَلَى النَّارِ﴾، وإن
تقل: ليس العهد بالبرق يصدق! قلنا: والكافية يا لبيب؟ ثم ما يدرك فقد يكون برقاً
جديداً، فكل القصيدة عجائب، وقد يكون برق الأرض غير برق السماء!
وخاف علينا الشاعر من الموت رعباً، فأخذ يهدئ روعنا ويؤكّد لنا بأعظم الأيمان
وأغلظها أن القيمة لم تقم، ولكنه مأتم لإبراهيم، فاسمع ما يقول:

لَا وَرَبِّي بِلْ ذَاكَ مَصْرُعَ إِبْرَاهِيمَ هَيْمَ هَرَّ السَّمَاءَ بِالْأَرْبَابِ

ثخينة يا أستاذ، فلا موت المسيح، ولا موت محمد أحدث شيئاً من هذا! أحشّها
وسوء كيلة؟ كنت استغنت عن هذا القسم العظيم، فنحن نصدقك بلا حلف، ومنْ مِنَ
الناس لا يصدق هذا؟ فالأرض تدور وتهتز، وقد تكون جنة الخلد كذلك؛ فمن يعلم؟
ولكن ألا تخاف على شوقي الذي جعلته فوق سدرة المنتهي أن يمسه سوء في هذه
الدربيكة؟!

وانقض الشاعر ثانية على الاستفهام انقضاض الصقر على فريسته، إني أترك لك
وصف استفهامه هذا قال:

سَأَلُوا مَنْ قَضَى فَقَلَّا حَسَامَ عَرَبِيُّ الْأَفْعَالِ وَالْأَنْسَابِ

أي سأّلوا: من مات اليوم؟ فقلنا: حسام، أي السيف الذي سقط بعد طول الضراب،
وسبحان الباقى! أما ما قاله بعد:

بَلْ لَوَاءَ مِنَ الْكَرَامَةِ فِي الدَّرِ وَإِرْثُ الْأَحْقَابِ لِلْأَحْقَابِ
وَكِتَابٌ مِنَ السَّمَاحَةِ وَالْأَخْرَى لَاقَ صَلْتُ عَلَيْهِ أُمَّ الْكِتَابِ

إن إبراهيم لحقيقة بهذا الوصف؛ فقد كان - يرحمه الله - لواء كرامة في أعلى
ذروة، وكتاب سماحة وأخلاق، ولكن «صلت عليه أم الكتاب» قلقة باردة، بل ليست من

الشعر، فما جر شاعرنا إليها إلا قوله في أول البيت «وكتاب»، فتذكّر أم الكتاب بمناسبة الدفن.

ويكر الشاعر على الاستفهام كرة ثالثة — نجانا الله من الرابعة — فيسأل سؤالاً لا أدرني ماذا أقول فيه، فيقول:

سأـل السـيل نـفسـه مـا سـيـول مـن آـنـاس سـدـت عـلـي شـعـابـي

كأنه بإكثاره من «السين» في هذا البيت، يريد أن يسمعنا موسيقى المطر؛ لأن دفن الفقييد كان في يوم ماطر، أما كم مرة يستفهم الناس بذلك ما يعرفه الشاعر الملهِّم وحده، ثم يغرب في التصور وهو يظنه أنه يبدع صوراً مشاهد لن يظفر بمثلها رافائيل، فيقول في البيت الذي يلي:

أطـرقـوا واجـمـينـ فـي الـحلـ السـوـ دـ كـأـطـيـافـ جـنـةـ فـي ثـيـابـ

إنه لمشهد غريب؛ رؤية أطياف من الجن بعد «صلت عليه أم الكتاب»، وكم أضحكني قوله: «في ثياب»، توقعت حدثاً غريباً قبل أن يقولها، وإذا الخطب هين — والحمد لله — أذكرني هذا ما لاحظه بديع الزمان الهمذاني في المقامات العراقية على قول أحدهم:

عـاتـبـها فـبـكـتـ وـقـالـتـ يـا فـتـى نـجـاكـ رـبـ الـعـرـشـ مـنـ عـتـبـيـ

ومثل هذا فعل بشارة أيضاً في قصيده «الحلبية» الأخرى، حين زوج عظيم الجن بماردة مساء، فما تكشف الصبح حتى وضعت «المحروس» ولم تطرق به كما عبر الرافعي، ثم كان مؤتمر جني لينتقوا اسمًا للطفل، فمنهم من قال «صاعقة»، ومنهم من قال «عاصف»، وأخيراً احتال مدة مارد لسن، لا أدرني إذا كان رقص الشرلسون أو الدبكة، ثم قال: سميته المتنبي.

أَفْلَا تراها أخت «أطياف جنة في ... ثياب»؟ وهؤلاء الجن صاروا بعدئذ في المأتم كنشاوي مدهدهين ... إلخ. ولا عجب في هذا أيضاً، فالجن — نجانا الله منهم — كانوا يظهرون ملار أنطونيوس — كما خبرنا السنكسار — بألف شكل وشكل، ولماذا لا يكونون في يد الشاعر كخاتم لبيك؟

أما مقطع «أي أبي طارق» ... إلخ. فشعر جيد لولا تكرار التشبيه بالسيف والبالغة، ولو لا تقدية الشاعر الميت بأبيه، فوالده — رحمة الله — مات منذ عشرين عاماً وأكثر، وأنا حضرت دفنه.

وأرى بشاره تعرّف حديثاً بالجن والممردة والأطياف، فأكثر منها هذا الإكثار المضحك، ولكل جديد روعة، إلا جديد بشاره لأنه عتيق جداً.

وشاء بشاره أن يخبر الناس — في هذا المضيق — عن تكريمه في حلب، فعاد إلى السيف والمارد، ومارد بشاره تارةً يسقط من السماء كالملائكة، وطوراً يتزوج في الصحراء كما علمت. ثم انتقل الشاعر إلى قلعة حلب، فأبرزها لنا في مأتم إبراهيم كجنان أبي نواس، ولكنها تلطم بالعناب لا الورد، اسمع:

لطمت صدرها له القلعة الثكلى فرقٌ لها عيون السحاب

وواسها بشاره — جبر الله خاطره — ونابت لديه عن حلب، من باب تسمية الكل باسم البعض، فخبرنا عن تكريمه، وكيف كان الفخر ملء إهابه، رحم الله لافونتين. وشمر الشاعر شاداً الرحال إلى دمشق — وبلا حيَا الله، وسلم الله — سأل أخت مروان مستفهمًا منها أيضًا عن محفله في الأمس، كما سأل شوقي عنه من قبل: أفي المصلى أم المحراب مروان؟ قضت القافية على شوقي فسأل عن مروان، فاما ما قضى على بشاره فلا أدري، أظن أن بشاره يريد موكب مروان لا محفله، وآية ذلك تسخيره الشمس لتعطي يمينها للركاب «كذا»، وبعد وصف أبهة مروان وعظمته البائدة عزى دمشق قائلًا:

هما يومان يا دمشق فيومُ لزوال آخر لإياب

فكسر البيت كما عدى «أعطي» باللام، وهذا لا نغترفه لشاعر يطمح إلى الإمارة، فالناس على دين ملوكهم.

وحام بشاره مرات حول كلمة شوقي الرائعة في الثورة الإفرنجية، فعاد بالخلفين المعهودين. قال شوقي في دمشقيته:

دم الثوار تعرفه فرنسا وتعلم أنه عدل وحق

والحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

أَمَا بِشَارَةٍ فَاسْمُهُ كَيْفٌ قَالَ:

وسلام من الحقوق المدama
شهرت مثله فرنسا على الظلـ

فهذه «المدمة»، و«رديته من دم بخضاب» ما مثلت لي إلا أنفًا راعفًا، ومنديلاً توسيخ فقط لا غير. ومن الحيف، بل من الكفر بالفن أن نقابل هذا بذلك، ففي قول شوقي جمال ورواء، وفي قول بشارة دمامنة وقبح، هذا نظم منحطٌ وذاك شعر سامي. قال أنساتول فرانس في سيلي بريديوم: «كان بريديوم شاعر الإناء المشعوث، فصار شاعر العدالة». وبشارة أفندي كان شاعر قلبه فصار شاعر السياسة، وما دخلت السياسة شيئاً إلا أفسدته، وقد اتخذ بشارة هذه الكلمة المأثورة شعاراً «لبرقه» عندما كسرت سوق السياسة عنده، فطلقتها واعفها، ولكن بشارة لا يتعظ!

۲

لماذا ارتَحَتِ الأمم، وهنَّ الشعوب بالباطل؟ كما قال أبُو سليمان في مزموره الثاني:

ذلك لأننا دخلنا قدس الأقداس، وخرجنا منه قائلين للناس: فارغ ...

ذلك لأننا لمسنا «تابوت» العهد اللبناني وهو لم يتعد إلا المبادر تتدلل حوله وحالياً، فيتناشق رائحة بخورها ولا يؤذنها دخانها.

كتب علينا صديق عزيز نحترم أدبه ونجله، وأسف على جهد نبذله لنخلق أعداءً لنا في كل بلد ينطق بالضاد، وسيتعلم «الحرف الجاف» الذي خلقه جديداً المجمع العلمي المصري.

هذا الصديق محب للسلامة كثيراً، يريد أن ينجو بشارة حتى من الهمس، أما السلامة فنحن في حبها على دين الأستاذ الطغرائي، وهل النقد شجار ونقار؟ إننا نأنف أن يظل هذا الأدب لعنة يتلهى بها من يفرقعون أصابعهم، ويتوهمون أنهم قدروا قنابل تنسف الأرض، فتخرج أثقالها، ثم بعيون كف لا تقول الناس، «ما لها؟

خبرنا هنري دي رينيه كيف استقبل أدباء القرن التاسع عشر النقّاد فردينان برينتير، وخلعوا عليه الألقاب الشريفة ... ونظموا له في حياته، ما زعموا أنه سيكتب على قبره، وإليك العبارة فأقرأها وأعذر أصحابنا:

Avec son oeuvre tout entière

Ci-git Ferdinand Brunetiére

وبعد، وبشارة يسمّي نفسه اليوم شاعر الأمة، كما سماها أمس الأخطل الصغير، ففي قصيده لفخامة رئيس الجمهورية — إده — يقول:

عجبًا لشاعر أمة حسناته في جيدها ويُكَافِأ المتملّق
أنا لا أمن رضيت أنني طيره — الشادي وأنني جفتها المغوروقة

وهذا أيضًا من تركة المرحوم شوقي، أما شوقي فبسط جناحيه على الشرق كله حين قال:

كان شعري الغناء في فرح الشر ق وكان العزاء في أحزانه

أما بشارة فرجل قعنان، اكتفى بقطعة كالتى تمنّاها المتّبى على كافور، والتي ولها دعبل الخزاعي. بسط سلطانه علينا، وقال: إنه لا يمن ونحن لا ندرى بماذ؟ أبالرثاء والمديح؟ أهذا هو الشعر؟ ثم هبه رضي هو — كما قال — فمن يكفل له رضا البنت، وإنقاض أمها وأبيها بهذا العريس. أما من هذا المتملّق الذي يكافأ، فأظن القارئ يعلم أن الشاعرين شبلي وبشارة عودانا مثل هذا التعريض في كل مناسبة، وبشارة يقول لفخامة الرئيس: «ويكافأ المتملّق»، وشبلي يقوله: «غمط الجميل، والخيانة، وطول المهر»، كما ستقرأ، أما الآن فاسمع حديث بشارة:

هي في الفضاء مع النسور تحلّق
أو حرمة ترعى وعيش مورق
نفس الكريم على الخاصة والأذى
سيان من اليأس موت عاجل

أما الخصاصة فكل خبرها عند صديقنا الريhani الذي قال له في حفلة جامعة
الوطنية: إنك صاحب بيت وبستان، وصيت رنان. لقد كان أولى بأخينا بشارة أن
يكتمها — والرزق على الله — متمنلاً بقول الشاعر: وإذا تصبك خصاصة فتجمل. وأما
الأذى فكلنا نفدي الشاعر يايانا، لا عاش من يرشقه بوردة.

وشاء بشاره في هذه القصيدة أن يجدد في التعبير، فجاءنا بلفظة «شروا» التي لا تُشرى بفلس، ويلفظها الشعر كما تقىء المعدة ما يشوشها، ولا بدع في محاولته هذه، أما أراد أن يطول نفسه في القصيدين السابقتين فتضعضع ولم يتماسك، كالبحري حين ززععه الدهر، وبرزت الكثيرات من قوافيه ساهمة كأشرة كالفرس في آخر الشوط؟! وبشاره يحوم حديثاً حول المسيح، ولماذا لا؟ أمّا فعل هذا شوقي من قبل حتى شرد يسوع وراء دجلة؟ ففي «الحلبية» شبّه بشاره باليسع، فأخطأ لغة بقوله «تغالوا»، ولحن في «لا شدواً ولا زغبًا»، ثم عاد فرأى المسيح في شخص فخامة الرئيس — إده — حيث قال خاتماً هذه المنظومة:

فَإِذَا سُلِّمَ إِلَيْكُمْ يَعْمَلُونَ

أما الإصلاح فمرجو من الرئيس وأمين السر اللذين مدحهما بشاره، فكلاهما كفؤ لأكبر من منصبه، وأثارهما تشهد لهما، وما ننقد نحن إلا هذا النظم.
وبعد أيام ظهر المسيح ثالث مرة، فتراءى لبشرة أفندي طبعاً متحداً بلاهوته وناسوته، في شخص الصديق الدكتور فغالي. ليس في هذا غرابة، فاليسير ظهر للرسل الأطهار مرات، والتعليم المسيحي يعلمنا أنه موجود في كل مكان. اسمع هذه القصيدة العصياء ولا تعجب إن سمعتُها قصيدة، فكل سمعة أسباب قصيدة، وهذه ثمانية:

يَدِكَ أَمْ يَدَا الْمَلَكِ
يَا مُخْرِجَ الرُّوْحِ مِنِ الرُّوْحِ

وهل وقت التوليد ساعة تأمل، وصلاحة عقلية يا أخي؟! لقد كانت تلك الأعرابية خطيبة امرئ القيس أبلغ وأشعر منك حين قالت لسؤالها عن أمها: «ذهبت تشق النفس نفسن». (راجع شعراء النصرانية).

لم يظهر المسيح بعد، بل بَشَّرَ به «الملائكة» في مطلع القصيدة، فتهيئاً للأمر أيها
القارئ لتشهد الآية:

كأنما الله إلى الناس مسيحاً أرسلك
يا عجباً من ساحر فجر نوراً من حلك

كان ملائكاً، ثم تجسَّد وتأنس مسيحاً، ثم مُسخ ساحراً عجيباً – أَفَلا تراها أخت
أطيف جنة في ثياب ... بعدها صلت على المرحوم إبراهيم أم الكتاب – فخذار يا بشارة
أن تجرب الربَّ إلهك فيما بعد.

أنا ملي العَشْر وإن قلت تفدي أنملك

لقد فَدَى هذه المرة بما يملك، سلمت يداه للبحث والتنقيب والكتابة، فالآمة في حاجة
إلى شاعرها وطيرها الشادي الباكى، المولع بالتفدية كالعجبائز:

يا واحد التوليد ما خاب جنين أَمْلِك

وماذا تراه يؤمل الجنين؟ إن باب المجاز واسع فَليعبر هذا البيت بسلام لثلا نتهم
بالتعنت، ولندع أبا نواس يستعدى الأدباء المنصفين على بشارة، فكأنَّ بشارة قرأ حديثاً
تلبيات أبي نواس، فنسج على منوالها وإليك الخبر:

حج أبو نواس حين حجت جنان، وقال شعراً في التقائهما عند الحجر الأسود، ولما
أحرم النواسي لَبَّى شعراً، وهذه أبياته نقلَّا عن الأغاني، فقايلها بشعر بشارة، ثم قُلْ في
ذلك ما تشاء. قد حَكَمْتُكَ ولا أَخْشَى أَنْ تكون كأبي موسى:

إلهنا ما أعدلك	ملك كلَّ من ملك
لبيك قد لبَيتُ لك	لبيك إنَّ الحمدَ لك
ما خاب عبد أَمْلِك	أنت له حيث سلك
لولاك يا رب هلك	كلَّنبي وملك
وكلَّ من أهل لك	سبَّحْ أو لَبَّيَ فلك

بَيْدَ أَنْ أَبَا نَوَّاسَ قَالَ: مَا خَابَ عَبْدُ أَمْلَكَ، كَمَا قَرَأْتَ، وَأَخْيَرًا أَسْفَ الشَّاعِرَ بِشَارَةَ
حَتَّىٰ هَذِي فَقَالَ:

لولاك ما كان نجا ولا زقا ولا دلك

وَنَسِيٍّ — عَلَىٰ قَرْبِ الْمَسَافَةِ — أَنَّهُ قَالَ لَنَا فَوقَ: وَلَوْلَاكَ هَلْكَ، ثُمَّ يَخْتَمُ هَذِهِ التَّهْلِيلَةَ
الرَّائِعَةَ بِقُولِهِ:

إِنْ نَقْتَسِمُهُ بَيْنَنَا فَالْجَسْمُ لِي وَالرُّوحُ لَكَ

لَا اعْتَرَاضٌ عَلَىٰ هَذِهِ الْقَسْمَةِ، فَقَدْ يَكُونُ رَضِيًّا بِهَا الدَّكْتُورُ فَغَالِي، إِنَّمَا لِي مَلِحَظَةٌ
أُخْرَىٰ عَلَىٰ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ «الْأَبْيَاتِ» هَدَانِي إِلَيْهَا عِلْمٌ فِرْوَىِدٌ، وَلِمَاذَا لَا نَدْعُ عِلْمَ النَّفْسِ
وَالْعَقْلَ الْبَاطِنَ؟ فَكُلُّ النَّاسِ يَدْعُونَهُ، إِنَّ الْعَقْلَ الْبَاطِنَ عَمِلَ عَمَلَهُ الْخَطِيرُ هُنَّا، فَنَظَمَ
بِشَارَةَ أَبْيَاتِهِ هَذِهِ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ، عَلَىٰ لَحْنِ: «الْمَجْدُ لَكَ يَا إِلَهَنَا الْمَجْدُ لَكَ»، الَّتِي تَقَالُ عِنْدَ
النَّصَارَىٰ حِينَ يَكُلُّ الْعَرَسَانَ.

وَالآنُ، وَقَدْ مَاتَ الزَّهَاوِيُّ فَجَاءَهُ، فَلَا بدَّ أَنْ يَكُونَ بِشَارَةَ وَغَيْرِهِ شَرِيعَاً فِي النَّظَمِ. لَيْتَ
الرَّجُلُ مَرِضَ وَتَرَكَ مَجَالًا لِحَلِيمٍ دَمْوِسَ لِيَقُولُهَا يَوْمَ نَعِيَهُ. الْبَكَاءُ عَلَىٰ رَأْسِ الْمَيْتِ حَلُوٌّ،
وَلَكِنْ مَوْتَهُ بَغْتَةً أَرَاهُهُ وَأَرَاهُنَا مِنْ عَذَابِنَ، أَمَّا نَحْنُ فَإِلَىٰ حِينَ، فَمَنْ الرَّبُّ نَطَّلْهُ أَنْ يَلْهُمَ
«شُعَرَاءَ الظُّلُمِ» شَيئًا، فَنَسْمَعُ شَعْرًا لَا نَرِى قَلْعًا أَضْرَاسِنَا كَلَهَا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ أَهُونُ مِنْ
سَمَاعِهِ، كَمَا كَتَبَ إِلَيَّ طَالِبُ الْحَقْوَقِ الْبِيَرُونِيُّ الَّذِي لَمْ أَفْكُرْ أَسْمَهُ.

وَمِنْ مَحْصُولِ هَذِهِ الْشَّهْرِ أَيْضًا قَصِيدَةُ الشَّاعِرِ شَبَّلِيِّ مَلاَطَ، وَهُوَ الَّذِي عَلِمَ بِشَارَةَ قَوْلِ
الشِّعْرِ فَخَرَّاً بِنَفْسِهِ، وَإِنْ أَقْلَ شَبَّلِيَّ مِنْهُ الْيَوْمَ فَلَا يَبْذَلُهُ، أَمَّا بِشَارَةَ فَتَقْرَرَ بِهِ حَتَّىٰ صَارَ
شَاعِرَ نَفْسِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ.

وَقَصِيدَةُ الْمَلاَطِ، وَهِيَ فِي فَخَامَةِ الرَّئِيسِ — إِدَهُ — أَيْضًا بِدَأْهَا بِقُولِهِ:

بَيْنِي وَبَيْنِكَ ذَمَّةٌ لَا تَخْفِرُ تَتَغَيَّرُ الدُّنْيَا وَلَا تَتَغَيَّرُ

فجاء عجز مطلعها على قياس: تتنزعز الدنيا ولا تتنزعز، ويمضي الأستاذ في
قصيدته مبيّناً تعليقه بفخامة الرئيس حتى يقول:

لولاه ليس له مقام يذكر
دوني ولی بالأرز عهد أشهر
لا عاش من غط الجميل وخان من
لا يختفي مثلی ولو رفعوا الذي

إلى أن يصرخ — بعد وصف ما لاقى من أهوال — كما صرخ سمعان الشيخ:

أطلق سراحى إن أردت وخلنى
ففقد سئمت وطال ذاك المطهر

المعضلة أعوص من المسألة الألمانية الإفرنجية، ساعده الله الرئيس المدّرّه الحازم على حلها، فيجد منصباً يليق ببشرارة فيملاً عينيه، وينذهب خصاصته، فلا يقول لنا عجبًا شاعر أمّة، كما قال في حليسته:

ويمطر الضيم في أرضي وأشربه و كنت لا أرتضي أن أشرب السجبا

أما خير حل للقضية فهو إخراج شibli من مطهره ليدخله بشارة التائق إليه. ثم يقول شibli شعراً في المعركة الانتخابية، فيعدد أنصار الرئيس واحداً واحداً من نواب وصحف وزعماء، فتأتي الأسماء بلقاء، وبعضها نابية، تناهيك بما يعتمد من جناس وتورية، فلولا الوزن والقافية خلت أنك تقرأ نثراً حتى يقول:

وإذا نسيت فلست أنسى «روكسا» إنَّ ابن ضنين الأشم غضنفر

يذكرني هذا النسيان بالنسوان اللواتي يزغرن في أيام الفرح ويغنين لهذا وذاك حتى إذا نسين واحداً - وإن غائباً - اعتذرن إليه بقولهن: «أووها، لا تقول يا فلان إني نسيتك، أنت الياسمين وأنا خبيتك ... إلخ». إن «خبيتك» تحتاج إلى شرح، أي خبائك ... وهكذا فعل بشارة أيضاً في حفلة نقيب الصحافة الجليل خليل كسيب لفخامة الرئيس، راجع (صوت الأحرار ٣٠ ك ٢) ترَ أنه نسي، ثم أوحى إليك بذلك شعر صلاح اللبابيدي فاعتذر.

وبعد ذكر الأنصار أجمعين يفْقَط لنا أستاذنا الملاط حساب المسلمين الذين انتخبوه الرئيس، فحصل «أليكون» سبعة، وكأنه شاء ألا تفوته عبارة «عدا السهو والغلط» التي لا بد منها لكشف التاجر، فقال: «وربة ثامن يتستر»، خير لك ولني أن تسمع البيتين بنسهما وفصهما:

زعموا بأن المسلمين تتکبوا
عَمَّنْ تؤيده البلاد وتؤثر
فيما إذا الألى قد بايعوه سبعة
منهم وربة ثامن يتستر

ويمضي شاعر الأرض متذفقاً كنبع قاديشا، فيصف لنا هدوء الانتخاب قائلاً:

وجرى انتخاب هادئ متصرن
حر عليه من المهابة مظهر
في دورتيه كان «إدة» ظافراً
والله يسعد من يشاء وينصر

حلو هذا التسلیم الرباني. ثم يصف الشاعر أصوات المدافع وحرس الرئاسة خلف الرئيس وأمامه وحاليه، ويدقق حتى لا ينسى التصفيق المائي الفضاء، واستبشر الحلق، وخصوصاً معلمنا شibli الذي غالب السرور عليه حتى أبكاه، فقال:

وترقرقت عيني وقلت لصاحب
يا ليت نعوم المكرزل ينظر

وقد عجبت لهذا الصاحب من أين نبت بفتحة؟ وأين كان مخبأ؟ ولكن الوزن في
شعرنا يخلق لشعراينا ما لا يعلمون ...
أما «يا ليت نعوم المكرزل ينظر» فأخذت الحكي البليد، وإذا قلت: الرجل خير منها،
ظلمت الرجل وحقّ ربي. أما أستاذني فرأها آية حتى جعلها عنوان قصيده ... وشاء
الشاعر أن يبين جدارة الأستاذ إده بهذا المنصب السامي، فقال:

أَمْيل قد عدل الزمان فأنت من
كل الجوانب بالرئاسة أجد
أحد عليك بأي شيء يفخر
علمًا ومقدرة ومنزلة فما

إن جدارة الرئيس — رجل الساعة — لا قول فيها، وقد أقرَّ له بها أمهات الصحف الأوروبيّة، وأما «من كل الجوانب» و«فما أحد عليك بأي شيء يفخر»، فهذه بنت عم «على الإطلاق» في قول بشاره في المتنبي:

رب القوافي «على الإطلاق» شاعرهم الخلد والمجد في آفاقه اصطحبنا

وأخذت «شرواك» في قوله لفخامة الرئيس عن الدكتور أيوب:

ـ «ـ شرواكـ أوـ هوـ منـكـ ماـ اقتـرحـ الـهدـىـ صـدرـ بـكـلـ يـتـيمـةـ يـتدـفـقـ

إن هذه الهنات كثيرة في قصيدة الشاعر شibli ملاط، فيُخيّل إلى أنه نظمها ساعة ندوة، فوثق بكل كلمة قالها حتى «الأبتر»، ومعناها المقطوع الذنب، وليس صفةً للسيف، «وليلك مقمر» وهي كناية مشهورة عن الشيب ...

أكاد أجزم أن الملاط لم ينْفَحْ بيّاً من قصيده هذه، ولا شطب فوق شعر استقام وزنه، فهو في نظمه وخصوصاً في هذه الأونه، يستسلم لسجيته السخية حتى تقاد ترى بطانتها وظهاراتها، وهذا من عيوب أستاننا، فلو تأنّ لأجاد وقال شعراً يحيا، ولكنه يرحب بأول قادم، ومن يقرؤه في هذه الأيام يشاعرني على ما أخذته به.

أما بشاره فيخالفه في هذا، فإنه كثير التنّوّق حتى التعامل، يعني كثيراً فتتفك منظوماته، ويجهد في عمله ليُخرج لك صورةً فلا يوفق كثيراً لضعف خياله، ولكنه إن أخطأ الإبداع فلا يفوته أن يزخرف ويموّه ويزبرج.

وبشاره يحاول أن يخلق لك أسطورةً فتأتي بلدية لا تستفزك روتها، بل تُضحك عدتها حين يفكها بشاره وتنجي عن لا شيء، كما فعل في أسطورة ميلاد المتنبي التي أراد استلهما من حلم والبة بن الحباب في غلامه الشاعر أبي نواس. وإن تسنج لك فرصة أرغب إليك أن تقرأ رثاء بشاره لحيي الدين الخياط (جواهر الأدب ج ٥) فهناك ترى أيضًا شبه أسطورة، ولكن درجة حرارتها ٥٠ تحت الصفر.

إن بشاره يجيد الغزل فقط، وعلى النمط العتيق، وبخاصة إذا حُرم، فعندما تغزَّل في صدر «الحلبية» أجاد التحرق، وإن حمل القرب على فمه لا على الجحش مثل الزير أبي ليل المهلل. اسمع البيت:

ما للشفاه الكسالى لا تزودنا فقد حملنا على أفواهنا القربا

فهو يريد أن يكون أقوى من الجمال التي حملتها فوق ظهورها.

أما شibli فيجيد الشعر القصصي حتى الإبداع، وإن لم يوفق اليوم في قصيدة الرئيس، فلأنه ألم نفسه ما ليس يلزمها، تعمَّد سرد ما كان في غنى عنه، فأسماء العلم يابسة لا تلين مهما نقعتها في بحور الشعر، ولكن قصidته ستبقى وثيقة تاريخية كيما دارت بها الحال، وقد تغنيه عن تدوين وقائع جلسة الانتخاب إذا حورها قليلاً.

وقصاري الكلام أن الشاعرين لم يقولا شعرًا في هذه الأعوام الأخيرة، بل هما يكرران ما قالاه، فخير للقارئ أن يسمع شعرهما، في الرثاء والمديح والسياسة، ولا يحلله وينقد، ومن نقدَ قصيدة واحدة من شعرهما فكأنه نقد شعرهما كلها. ولعلنا ننظر قريباً في غير هذه الناحية من شعرهما، وهي خير وأبقى من هذه، أما الآن فما يتكردش أمامنا من الآثار الأدبية يدعونا إلى الاحتفاء به والقيام بواجبه، فنودعهما آسفين، فإلى حين.

شعراء الفرح والترح

١

المعروف الرصافي، بشارة الخوري

إن شعر الفرح والترح كالرثاء والمديح والتهنئة؛ ميراث أجيال بعيدة وتركة دهور مات عنهما جدودنا الشعراء الدّوارون، كالقراديناليوم، وكنا بارّين بهذه الثروة المباركة فأئمناها، إنْ مدحناً رجلاً أنشدناه شعراً، وإن قلنا لرجل: خلف الله عليك. نظمناها شعراً، وإن جلسنا إلى مائدة دار الشعر في أشداقنا مع اللقمة، وإن شربنا هزجنا وتغنينا نظماً، فكأنما الشاعر عنانا بقوله:

ولا تشرب بلا نغم فإني رأيت الخيل تشرب بالصفير

لقد كان لكل أمة شعراء دّوارون، ولكن الأدب عندهم نبذ منذ أجيال هذه الأغراض، أما عندنا فكثير من الشعراء ينتظرون تلك الساعة التي لا يعرفها أحد، كما انتظر أحد الكهنة موت واحد ليقبض «العلوم» ويدفع للسّكّاف ثمن المدارس ... أما «شعراء الظل» فينتظرون الموت لا لشيء، فهم يعطوننا الشعر مجاناً كما أخذوه من الآلهة، وسيان عندهم ساعة الفرح وساعة الحزن، فهم يلبسون لكل ساعة لبوسها؛ إما نعيمها وإما بؤسها. إذا سألتهم دمعة برشموا وجوهم، وذرفوا كأنهم فُجعوا حقاً بأخ أو بابن عم، وإن تطلب ابتسامةً تأخذها منهم عريضةً مليء الفم فائضة عليه، فشعارهم افرحوا مع الفرحين وابكوا مع الباكيين، كما علم مار بولص إخوته المؤمنين بالمسيح مصلوبًا.

هذه أسباب انحطاط الشعر عندنا، فالذين قالوه في كل عصر أكثر من النمل، ولكنهم بادروا مثله، وذهب ذكرهم مع الدوي لتفاهة أغراضهم وابتداها، قالوه كما يقوله أكثرنا اليوم، غب الطلب، فكأنما الشاعر هو الحاكي، شُد جزيره، وضع الإبرة والأسطوانة، وركب البوّق، تسمع الصوت الذي تشتهي ...

قال زهير قصائد شتى في المديح ما حفظ منها الناس — على صدقها — إلا ما مس حياتهم فقط، وقال الأخطل والفرزدق وجرير وأبو تمام والبحري والمتنبي وغيرهم شعراً في المديح والرثاء نسيه الناس، لم يعلق بأذهانهم منه غير شذرات فنية صبغها الشاعر بدم قلبه، فكانت قطعة أرجوانية لم يأخذ الدهر شيئاً من لونها، أما نحن فما زلنا نقلّد أولئك الشعراء متمسكين بأذنابهم، سائرين خلفهم كالعميان، أنمّت في نفوسنا هذه العاطفة ظروف وأحوال أماتت عزة النفس، ثم كان للمدرسة اليد الطولى في إحيائها حقباً من الزمن، فقد كنّا في المدرسة نعد الأيام والجمع منتظرین عيد معلمـنا لنـهـيـه بالـشـعـر، ونـظـهـر بـرـاعـتـنا لـمـعـلـمـين وـلـتـلـمـيـدـ، فـيـجـلـسـ عـلـىـ كـرـسيـ مـتـقـنـفـاـ، وـيـتـبـارـىـ الصـفـ فيـ مدـحـهـ وـتـقـرـيـظـهـ، وـقدـ يـكـوـنـ الأـسـتـاذـ فـرـنجـيـاـ وـتـسـمـعـهـ شـعـرـاـ عـرـبـيـاـ، فـيـتـسـمـ مـتـهـلـلاـ كـالـأـطـرـشـ فيـ الزـفـةـ عـنـ ذـكـرـ اـسـمـهـ الـكـرـيمـ، وـقدـ يـسـمـعـونـهـ شـعـرـاـ سـرـيـانـيـاـ أـيـضاـ كـمـاـ فعلـ أحدـ أـصـحـابـناـ بـأـحـدـ «ـالـإخـوةـ»ـ فـيـ مـدـرـسـةـ، قـالـ لـهـ قـصـيـدةـ سـرـيـانـيـةـ أـيـ عـرـبـيـةـ الـأـلـفـاظـ سـرـيـانـيـةـ الـلـهـجـةـ، فـاسـتـغـلـبـ الضـحـكـ عـلـىـ النـاسـ عـنـ سـمـاعـهـ، وـلـكـ حـبـ الـكـذـبـ قـصـيرـ فـمـاـ جـازـتـ الأـضـحـوـكـةـ أـيـامـاـ حـتـىـ حـسـ بـهـ «ـفـرـيرـ مـيـشـالـ»ـ، وـكـانـ قـصـاصـ التـلـمـيـدـ الـخـفـيفـ الـرـوـحـ رـكـوـعـاـ فـيـ الـمـائـةـ وـأـكـلـ الـخـبـزـ الـمـقـرـمـ أـسـابـيعـ.

وقـسـ عـلـيـنـاـ طـلـابـ الـمـعـاـدـ الـشـرـقـيـةـ كـلـهاـ وـشـعـرـاءـ كـلـ مـحيـطـ، فـلـاـ بدـ مـنـ تـهـنـئـةـ الـأـمـيرـ بالـعـيـدـ، وـبـالـرـجـوعـ مـنـ السـفـرـ، وـلـوـ كـانـ يـوـمـ صـيـدـ، ليـقـالـ لـهـ: عـلـىـ الطـائـرـ الـمـيـمـونـ، وـالـعـوـدـ أـحـمـدـ، وـغـيـرـ هـاتـيـنـ الـكـلـمـتـيـنـ مـنـ الـرـوـاـسـ الـمـعـلـوـمـةـ، ثـمـ بـسـلـامـةـ قـلـبـهـ إـذـاـ زـكـمـ، فـنـقـولـ لـهـ كـالـمـتـنـبـيـ الـذـيـ قـالـ: «ـإـذـاـ اـعـتـلـ سـيـفـ الـدـوـلـةـ اـعـتـلـتـ الـأـرـضـ»ـ.

ثـمـ لـاـ بـدـ إـنـ زـارـ الـضـيـعـةـ مدـيـرـ النـاحـيـةـ أوـ قـائـمـ الـمـقـامـ مـنـ تـكـلـيفـ طـالـبـ نـظـمـ قـصـيدةـ يـقـالـ لـهـ فـيـهـاـ: حـجـارـةـ الـضـيـعـةـ رـقـصـتـ فـرـحـاـ، وـالـشـحـرـورـ غـنـىـ، وـالـأـعـصـانـ صـفـقـتـ، وـالـعـدـلـيـبـ صـاحـ فيـ الـأـفـنـانـ، وـعـظـامـ الـجـدـودـ تـهـلـكـ فيـ الـمـقـبـرـةـ بـزـيـارـةـ اـبـنـ الـبـيـتـ الـكـبـيرـ، وـقـدـ يـكـونـ الـكـلـبـ لـاـ يـعـرـفـ بـاـبـهـ ... وـإـنـ كـانـ الزـائـرـ مـطـرـانـاـ فـالـأـمـرـ هـيـنـ، يـقـالـ لـهـ مـثـلـاـ: «ـمـبـارـكـ الـآـتـيـ بـاسـمـ الـرـبـ»ـ، وـإـنـ وـافـقـ ذـلـكـ اـسـمـهـ فـهـنـاكـ الـبـلـاغـةـ وـالـتـصـفـيقـ الـحـادـ. وـإـنـ مـاتـ رـجـلـ عـنـهـ مـنـ الـوـجـاهـةـ عـشـرـ الـخـبـرـ، فـلـاـ بـدـ مـنـ رـثـائـهـ وـإـقـامـةـ وـصـيـ علىـ الـبـائـسـينـ وـالـمـساـكـينـ

بعده. وإذا سيم شاب كاهناً فلا بد أن يهُنَّا، وأن يقال له إن الروح القدس حلَّ عليه، ولو كان لصًا مثل مار شينا، وإذا بُشِّرَ الشعراء بسيامة خورفوسقفوس أو أرشمندريت، فمجال المدح والتهنئة واسع، فيقولون له: أنت الصفا وعليك أبني بيعتي، وما تربطه الأرض يكن مربوطًا في السماء، وبالاختصار يسلمونه مفاتيح السماء ويستريحون.

إذا صار شيخُ أو إمامٌ قاضيًّا أو مفتياً، فلا بد من القصائد أيضًا، فتعطى القوس باريها، ويهنئون المؤمنين باستقرار الحق في نصابه. وإذا صار رجل عضو بلدية أو مختارًا في ضيعة فيها أحزاب، فيفيض الشعر أحمر كنهر إبراهيم في الربع. يهني بعضهم بعضاً بالفوز، ويعرضون بالأخصام بالشعر الحامي ... وأخيرًا هل يؤاخذني القارئ إذا خبرته أن أحدهم هناً بالشعر صالحًا لنا شفي من داء البواسير؟

أما عدة هذا الشعر وبردعته فأولها أن تكون القافية موافقة؛ إذا كان اسمه لوقا كانت القافية حريقاً وضيقاً وحندقوقاً ... وإذا كان اسمه فنيانوس — مثلًا — حاولوا إدخال اسمه في الشعر وجعلوا القافية ملائمة اسم ضياعته، أو مهنته، أو عائلته، أو مركوبه، وما شاكل ذلك ولا ينصاعون! فإذا كان اسمه غير طبيعٍ نجروه ليدق ويدخل حيث يريدون، وإذا كانت رتبته التي يهنا بها لا تتوافق الوزن الشعري، حذفوا منها شيئاً غير خائفين بأَسَأَ، ولماذا الخوف؟ لا يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره؟ كما فعل أحدهم حين قال منذ أشهر: ومن غدا كردينانلا ... إلخ. فكسر الشعر والتبس علينا الكردينانال السامي الاحتراز بالدواء المعدُّ في الصيدليات للمصابين بالنقطة.

إن البند الأول من دستور شعر المناسبات كثرة الأعلام لتعلو الآمات والحسرات في المناhat، والتصفيق الحادُّ في موقف الفرح.

إننا لا نلوم الشعراء وحدهم، بل نلوم أيضًا من يُقبلون على هذا الشعر الكذاب ويرغبون فيه، فالشعر عاطفة وفن، وإذا خلا من هذين كان تمثالًا غير ناطق الملامح، فلو حضر شاعر حفلة صلاة «كبيرة»، فهناك من يقول له بعد الصعود إلى القلالية: أسمِعنا شيئاً في أبيينا الخوري وقداسه الحلو، فيصفه من طربوشة إلى «سکریبینتھ»، وقد يقول له — كما قال أحدهم لخوري صار كاهناً بالغلط، ثم لا أدرى كيف صار وكيلًا للمطران:

وستليس «إيسكيم» بعد هنيبة وتحمُّر الأزار والزنارا

فمصيبة الشاعر أنهم يطلبون منه الشعر في كل محضر وكل محفل، والشعر لا يستجيب كلما دُعِي، الشاعر كالطائير يغنى متى تحرك للغناء، وعبثًا تكُلُّه الأمر إذا لم يندفع. كان عندي كناري كنت أصَّفُ له ليغنى فيكركر قليلاً ثم يقف، وعبثًا كنت أهيجه، أما متى طاب له الغناء فيغنى ما شاء، وقد يسكت أيامًا حتى أظنه نسي التغريد، أو أحسبه ذكرياء بعد خروجه من الهيكل، ثم يعود فينطق ويفرفر في قفصه، وهكذا الشعرا.

أما الشاعر الذي يغنى للبشر متى أرادوا، فأقل عقلاً من الطير.

أمامنا الآن شاعران: واحد عراقي والآخر لبناني، فاضت قريحتهما حين مَرَ الوفد العراقي بسوريا وفلسطين ولبنان قاصداً مصر، أما الشاعر العراقي معروف الرصافي فترك في كل وليمة أثراً، وفي كل حفلة ذكرى — راضياً أو مكرهاً لا أدرى. أما في بيروت فكانت الكلمة لزعيم شعراء الفرح والترح الأستاذ بشارة الخوري، قال قصيدة سينية من وزن:

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهاليل من بنى العباس

وراعي القافية كما يقتضي شعر المناسبات، إنْ لم يكن في أسماء الأشخاص، فعلى الأقل باسم الضيعة، ولا سيما أن هذه القافية تستدعي ما قاله بشارة:

وفد هارون هذه راية «الفضل» وهذا فخر القرىض النواسي

رأيت كيف يقال شعر المناسبات؟ الوفد وفد هارون، بعد ألف سنة وأكثر — رحمة الله على ترابه — وليغضب دعبد الخزاعي ما شاء؛ فقد أمناً شر لسانه الفالت، والcripple القرىض النواسي شاعر بلاطه، والفضل جعلت بين هلالين تنبيهاً إلى التورية وغيرها، والحانق يفهم، ثم جاء:

نفح الطيب طيب دجلة من فوديك في موكب من الأعراس

هذا لغز، إن هبوب الطيب من نهر دجلة اختراع جديد، قد يكون تحول ذلك النهر إلى «كولونيا» فصار في العراق نهر عطر وينابيع نفط. أما ذكر موكب الأعراس فلا

شعراء الفرح والفرح

بد منه تتمةً لنفح الطيب وتصديقاً لقول المثل العربي: لا عطر بعد عروس. ناهيك أن القافية سينية، وأية كلمة أحلى من الأعراس يسد بها الشاعر الفراغ؟ كنتأتوقع ظهور جنان لأبي نواسنا في هذا العرس، كما ظهرت لذاك في المأتم تلطم الورد بعناب. ثم قال الشاعر:

غزوة للقلوب قام بها الحب فكان الآسي نفس المواسي

فجاء ذنب هذا البيت، لتكرار السين، كرأس نوع من السمك اسمه أبو منشار — انظر رسمه في المنجد — ثم قال الناظم:

صَفْقَ الأَرْزَ لِلْمُبْشِرِ بِالْوَفْدِ وأهدت تيجانهن الرواسي

أليس من البلية أن يكون الشاعر لبنيانياً ويقول: صَفْقَ الأَرْزَ لِلْمُبْشِرِ بِالْوَفْدِ ...؟ فكان بشارته ما رأى الأرز في حياته؛ إن الأرز لا يصفق يا أخي! الأرز شيخ وقرر مترصن ويدله لا تطاوعله، ولكنه إذ يربح، يمد يده احتفاءً، فإذا شئت أن تسحره في قابل فهذا ما يقدر عليه. على الشاعر أن يكون ذا عينين على الأقل! أما «أهدت تيجانهن الرواسي» فقد تكون صخور لبنان صالحة للتيجان ونحن لا ندرى، أما إذا كان يعني الزهر فهذا أوانه. ثم جاءنا ببرناس لأن القافية سينية، ولو كانت رائبة لحلت محلها عبقر دون شك، وانتهى إلى قوله:

عَز بالصَّيْدِ مِنْ ذُوئْبَ فَهَرِ وزهته الوفود من عباس

إن هذا شرط أساسى في قصائد المناسبات، وكل سر «الصناعة» هنا؛ فالقصيدة من أولها إلى آخرها مسخّرة بل مؤسّسة على هذه الكلمة « Abbas »، وفيها يرى شاعر المناسبات كل الروعة والفن، وإن جاءت عابسة بل كاشرة بلدية قلقة تصيح المدد. ثم قال بشارته عن جبلنا العزيز، وفي هذا دعوة وتشويق إلى الاصطيفاف، يستحق عليهم ما بشارته مكافأة أخرى:

هُوَ جَيْنِيفٌ يَعْرِبُ كُلَّ مَا فِيهِ مَؤَاتٍ وَكُلَّ مَا فِيهِ آسٍ

أرأيت ما أحلّ جينيف هنا؟ إنها أحلٌ من «شمس الشمُوسة»! أرأيت كيف يقول
الشعرَ شعراءُ المناسبات، وكيف يلوّي زعيمهم الأعلام لِيًّا ويتطوّيها طيًّا على هواه؟ لم
تخضع له سويسرا فاحتل بلحظة عاصمتها واستولى عليها! ولا غرابة في الالتجاء إلى
جينيف، فهي اليوم مرجع جميع الشعوب الضعيفة، وللعراق كرسٍ فيها، ولنا عن قريب
إن شاء الله، فنريح الأمم المظلومة من بلايابها وأوجاعها، وبخاصة «معدبتنا» القديمة
الحبيبة.

أما تكثير الأعلام فقد وفاه شاعرنا بشارة حقه، فذكر لنا في تسعه أبيات أحد عشر علمًا، وهي: هارون، الفضل، النواسى، دجلة، الأرز، لبنان، برباس، فهر، عباس، جنيف، يعرب. أما كلمة الوفد فرددها مرات ليفهم الناس أنه يحكي للوقد.

إن هذه لا تستحق التفات ناقد، ولكننا نريد أن ننزع بشارة — وهو الشاعر إذا لم يطمع — عن هذا النظم البارد، فلعل في النقد بعض الفائدة له فيقلع عن خطته هذه، فلا يقول الشعر للرائح والجائي، ولا يدكك الأوزان بهذه الألفاظ ويحسبها شعراً. أما نصيحتي له فهي أن لا يلبي الدعوة إذا لم يُوفق إلى قول شعر، فالمعد التي كانت تقبل جرعات كبيرة من هذا الشعر، أصبحت تقيء «المسهل» إذا لم يكن من نوع «الملبس» و«الليموناضة».

۳

وهذا معروف الرصافي شاعر العراق، وأحد أعضاء وفد، كان ينشر الشعر حيث يمر الوفد كأنما هو يبذر ترمساً وكرسنة، قال أبياتاً كالشعر لا أشك في أنه نظمها مُكرهاً وأنشدتها مرغماً، والإلا عَدْ عِيَّاً أو غير مكترث، فلفق ما لفق حتى استقام الوزن، واصطفت القوافي، وتزاحمت الرواسم، وقال الرصافي شعراً صفق له الحاضرون حين انتهى من إنشاده، وقرظته الصحف لأن قائله معروض، بيد أنني أحلف لك ألف يمين أن شاعر «أم اليتيم» و«الطبيعة شعر» و«تربيبة البنات» و«قصة أبي دلامة» الطيبة، كان غير راضٍ عن هذا الشعر الخفيف الذي عرضه في أسواقنا، فكل ما قاله معروف من البضاعة الرائجة، وإن نقدناه فلكي يعدل هؤلاء الشعراء عن قول مثله.

اسمع ما قاله الرصافي بحيفا في سفح جبل الكرمل، حيث لا يزال النبي إلياس
«حيّا» يسمع، كما تؤكّد لنا التوراة:

قفاصاً حبيبيًّا بهذا البلد نحيٌ رجال الهدى والرشد

خاطب الرصافي الناس بلغة الجمال، كأنه في صحراء امرئ القيس لا في موطن
مار ياس – بلهجة الجدعان – الذي طار منذ آلاف من السنين على مركبة نارية قبل
أن يعرف الناس البنزين والمازوت، قال معروض: «قفاصاً حبيبيًّا» وأغلب الظن أن الوفد
العربي عشرات، فلو قال: «قفوا» لهان الخطب، أما شطره الثاني فليس فيه زيادة على
قولهم: السلام على المؤمنين، لا شيء ليبيت معروف هذا إلا قول خليل مطران في ذكرى
صديقه حافظ إبراهيم: «عظم الله فيك أجر الضاد»، أي عظم الله أجركم!
أما البيتان الثاني والثالث فهما حشو، بل تفسير للبيت الأول، ما زاد فيهما معروف
شيئاً على ما اعتاد الناس أن يقولوا، أي إن رجال حيفا أوAdam جيداً – وهم كذلك –
ولولا القافية والوزن والطعم بزيادة بيت لما قال:

نحيٌ كرام بيوت لها بأرض العروبة أعلى عمد

وحيث لا بد من ذكر حيفا، وفقاً لراسيم شعر المناسبات، ليعرف الناس أن الأبيات
في أجaoيدها اضطر الشاعر أن يهدى كالحمام مرجعاً:

كرام بحيفا أقيمت لهم بروج تطاول برج الأسد

كأنني بمعرفة نظر إلى البيوت القائمة على ظهر الجبل، كفندق مرسلينا وغيره،
وما بناه الإنكليز على جبل الكرمل، فخطر على باله برج الأسد. وقد يكون قصد الشاعر
أن يورّي بقوله برج الأسد عن الأسد البريطاني والله أعلم. رحم الله من قال: المعنى بقلب
الشاعر، فكم نقض بها من مشاكل شعرية! وشاءت القافية في بيت تالٍ أن يقول فقال:

فنخلد في الدهر شكرًا لهم ونثنى عليهم ثناء الأبد

إن معنى الصدر والعجز واحد، أي إلى أبد الآبدية ودهر الدهاريين، وأي حرج على
الشاعر فالشكر لا يشعّ منه!

ثم شاء الشاعر أن يقول حكمة كمالوف شعراء العرب، ويزود الناس نصيحة
فالحالها على نسق قول الكهنة عندنا: «يا إخوتي المباركين، الحاضر منكم يخبر الغائب،
نهار الثلاثاء عيد مار يوسف بطاله من جميع الأشغال العالمية». وإليك كلمته:

فِيَا سَادَةَ قَدْ حَلَّنَا بِهِمْ
وَفُودُ الْعَرَاقِ فَيَمَنْ وَفَدْ
أَلَّا أَبْلَغُوا الشَّعْبَ أَنَّ الْعَلَى
لَهُ فِي الْحَيَاةِ إِذَا مَا اتَّحَدْ

إنها نصيحة تسوى جملًا ومن النوق العصافير ... أما قوله: «وفود العراق فيمَن
وفد» فأشك في روایته هذه ولا أعلم صحيحتها، فمثل هذا لا يقع من معروف، فهو لا
يكسر البيت ولو كان يمر على الصراط.

أما في مصر فروت لنا جريدة البلاغ ما يأتي: «وبعد تناول الطعام — في حفلة عزام
— أنشد شاعر العراق الكبير الأستاذ معروف الرصافي هذه الأبيات:

عَلَى بَيْوَتِ بَنَاهَا آلْ عَزَامْ	الْمَجَدُ وَالْفَضْلُ مُنْشَوْرَانِ فِي عِلْمِ
نَلَنَا بِهَا كَلْ إِعْزَازٍ وَإِكْرَامٍ	لَمَا حَلَّنَا ضَيْوَفًا فِي مَرَابِعِهِمْ
لِمَجْدِهِمْ سِفْرٌ إِجْلَالٌ وَإِعْظَامٌ	فَسُوفَ نَشَكِرُهُمْ شَكْرًا نَخْطُّ بِهِ

وَقَدْ صَفَقَ الْحَاضِرُونَ إِعْجَابًا لِهَذِهِ الْبَدِيهَةِ الْمَوَاتِيَّةِ.

ولَمْ نَلْيِ صَفَقَ الْحَاضِرُونَ يَا تُرَى؟ فَأَفَ لِهَذَا التَّقْرِيرِ، بَلْ لِهَذَا التَّصْفِيقِ الَّذِي
يغش الشاعر ويصفق الشعر. أقال معروف غير شعر هزيل مبتذر، وإن كان موزونًا
مقفى؟ لقد صَحَّ بِنَا قَوْلُ الْمُثَلِّ الْعَامِيِّ: «كَلَهُ عِنْدُ الْعَرَبِ صَابُونَ». أما قوله: «فسوف
نشكرهم» ... إلخ. فدللني على علمه كل العلم بأنه لم يقل شيئاً، لقد كان الأعشى أحکم
من معروف حين قال لرسول الملحق: «قُلْ لَهُ سِيَّاتِكِ ثَنَاؤِنَا». أما كان أخلق بمعرفة
أن يطبق «سفر الإجلال والإعظام» ولا يفتتحه بهذه الأبيات المزّة.

وفي حفلة الدكتور عفيفي باشا كانت جمهرة من الباشوات، وكلهم عظيم، وأساتذة
وشعراء منهم خليل، إلا أنه لم يقل شيئاً بهذه المناسبة، والعهد بالخليل غير بخيل. أما
المعروف فقال أبياتاً لا أشك في أنك حزرت أيها القارئ أن قافيةها ظاء، كما يقتضي شعر
الفرح والترح، فاسم صاحب المأدبة حافظ، فالكافية إذن ظاء، كما كانت زايّاً في رثاء

المرحوم الملك فيصل لأنه أبو غازي. أما أبياته هذه فأسردها لك واحكم أنت بنفسك على
شعر المناسبات:

لدى العفيفي حافظ المكرمات محافظ

الله يخزي الشيطان، ما استطعت السكوت كما وعدتك، إنه بيت موقّع جدًا، فيه
الاسمان عفيف وحافظ، وفيه الجناس المطرف، المتوج، المذنب ... سمه ما شئت. اسمع
الآن ما بقي من هذه اليتيمة:

للدر في القول لافظ	لسانه وهو طلق
مدى الحياة ملاحظ	وطرفه للمعالى
بها تزول الحفائظ	له شمائل غر
بها تطيب المواعظ	بها تنال المعالى

كأني بلافظ بن لاحظ صاحب امرئ القيس لم يكن حاضرًا! فهذا النظم كجنين
لم يك يبصر النور حتى صرخ صرخة طارت معها روحه، لا شك أن آثار هذا الشعر
البعض سُتمَحى من العقول بعد غسل الأيدي وتتنظيفها من وسخ المائدة. نَجَّنا يا رب من
هذا الأدب وهذا الشعر.

ثم مرَّ الوفد ببيروت، فقال بشارة منظومته الهاoronية النواسية العباسية البرناسية
— كما مرَّ بك — وقال معروف أيضًا أبياتاً نفخ طوقة على إثر إنشادها، كما قرأت
في الصحف، ولكنه تَمَّ الواجب — كَبَرَ الله واجبه. أما درة بشارة فنشرتها صحف
إخوانها السابقات، وكما سُتُّنَشَّرَ وتُقْرَظُ اللاحقات، وكما سننقدها نحن في محصول
الشهر، وهكذا حتى يفنى شعر الفرح والترح أو يستقيم لأشياخه القول فيه.

وبreach الوفد بيروت مارًّا بدمشق في طريقه إلى العراق، فقال معروف قصيدة خيالية
في تحية دمشق، فقام يحدُّث الناس برؤيا، ولكنها نيَّةٌ فجَّةٌ، كان الرصافي فيها حالًا
ومعِّبرًا، وهذا مطلعها:

عندی حدیث عن دمشق فأنصتوا فلقد رأیت الیوم طیف خیالها

طبعاً أنسنت الناس للشاعر الكبير ليقصّ عليهم ما رأى، والأحلام لذينه، ولو تأنّى
الشاعر لما جمع بين الطيف والخيال، وفي جعبته ألفاظ كثيرة والنظم يؤاتيه، وهو من
شعراء القصص البارعين كالملاط عندنا. أما ماذا قصّ معروف اليوم وماذا رأى، فإليك
ما يقول:

شاهدتها والغل ناهز قرطها والقيد منعطف على خلالها

ثم رأى معاوية قبالها، وأبا عبيدة عن يمينها، وحالاً عن شمالها — إن حالاً غير
محظوظ في دمشق حتى في القصص الخيالية!

وسيوفهم بأكفهم مسلولة والنار تلمع من شفار نصالها

رحم الله عنترة القائل: «هل غادر الشعراء من متدم؟»، فما تراه يقول اليوم لو
سمع معروفاً يسرق شطره، ويعملق في ذنبه هذا الضمير؟!
ثم رأى الحزن لوح خدها — دمشق — وإن لا بد للعربية من حال يتم به حسنها،
صاغه لها معروف من سواد لاح له كما تقرأ:

شاهدتها والحزن لوح خدها وحكي سواداً فوقه من خالها

ولم ير فقط، بل سمع أيضاً أبا يزيد هاتقاً بمقالة دهش المدى بمالها:

صبا لظاكم في طريّ جمالها أني افتديت جمالها بجلالها

إنَّ صبَّ اللظى في طريّ الجمال بدعة جديدة، كنفح الطيب من دجلة، أمّا كيف
يبقى الجلال متى أكل اللظى الجمال فهذا ما يعرفه الشاعر الملام ولا ندركه نحن. ثم
رأى أبا يزيد ينتهي أرضًا بلقعاً بالفتاة التي ناهز الغل قرطها، وانعطف القيد على
خلالها، وهناك أخذ يخط بالسيف خيوط مثالها، كما فعل أرخميدوس من قبل:

وعلا به ضرباً على أغلالها وعلى قيود الرجل من تمثالها
حتى لقد نهضت وفك إسارها وانبثَ منقطعاً وثيق عقالها

أرأيت «قيود الرجل» و«حتى لقد نهضت» ما أبشعهما! ثم ألا تنبيك «وثيق عقالها»
أنَّ همَ الشاعرِ سُدُّ الفراغ ليستقيم الوزن؟ فبعدما صوَّرها مغلولة مقيدة، وقاسى أبو
يزيد مع صاحبيه خالد وأبي عبيدة ما قاسوه من ضرب وطعن، كانت النتيجة أن قال
لنا الشاعر:

وأبنتَ منقطُعاً وثيق عقالها

فالبيت يا أستاذ معروف — وأنت سيد العارفين — لا يكون في الحديد، وهل «منقطعاً» غير حشو؟ ثم كيف يجوز في فنك أن تتحول تلك القيود والأغلال إلى عقال يتجمع على حلء ثلاثة رجال من أشهر أبطال التاريخ العربي: أبو يزيد، وأبو عبيدة، وابن الوليد، وسيوفهم بأكفهم مسلولة؟! أكُلُّ هذا ليحلوا عقاً؟ لقد ظلمتهم يا سيد: إن العجلة من الشيطان، والخلاصة أن قيودها انفكـت:

فمشوا ثلاثتهم بها وسيوفهم شiken كالأكليل فوق قذالها

وأخيراً عبر معرفة رؤياه هذه بدمشق تفوز باستقلالها، وكفى الله المؤمنين القتال
والوفد الجدال، والكتلة النضال ...
ويلي ذلك بضعة أبيات وطنية عادية وعظات زهيرية أوسية، وإن لا بد من ذكر
الزعيم العامل فخرى البارودي صاحب الدعوة، ختم معروف منظومته هذه بقوله:

إني لأشكر لابن باروديها
ززعيم كتلتها هنيئاً للعلى
همماً بناء المجد من أفعالها
في الدهر أنك من بغاة وصالها

وقد سد الشاعر بالدهر ثلمات كثيرة، فكانه ملك يديه وطوع بناه، وهو لو فكر قليلاً لسلّم شعره من هذا الحشو الذي لا يبيض وجهه بعد جلال الشيب وتحطي العمر. أراح الله الأدب العربي من شعر المناسبات، كوليرا الشعر، وطاعون الأدب، أو فلئيمَ علينا يستور جديد!

محصول الشهر

الشعراء الكبار نادرون، بل هم أندر جدًا من العلماء الكبار.

بلدوين

١

وإن شئت فقل محصول شهرين ثلاثة، منذ وفاة جلالة فؤاد الأول ملك مصر، حتى إفلات المتنبي من بلوى أنسنته وحشته عند كافور، وكان أشد سهامها إيلاماً له قصيدة حليم دموس، فصحَّ فيه — بعد ألف عام — قوله:

وصرت إذا أصابتني سهام

قال أحد الكتاب الفرنسيين بمناسبة ذكرى الشعراء الرمزيين: «أوحد أمجاد الفن أن يحبنا أبناءَ مَن احتقرُونَا وازدروْنَا». فَمَنْ مَبْلُغُ هَذِهِ الْكَلْمَةِ إِخْوَانُنَا الشَّعْرَاءِ كِيلاً يَسْتَندُوا إِلَى الْأَكْفِ فيَ الْمَحَاضِرِ، وَيَسْتَعْطُوا الْاسْتِحْسَانَ فيَ زُواياِ الْمَقَاهِيِّ، وَيَحْكُمُوا الْجَمَاهِيرَ فيَ رِقْبَتِهِمْ؟ فَقَدْ أَحْسَنُ الرَّصَافِيَّ هَذِهِ الْمَرَّةَ إِذْ عَدَّى عَنِ الشِّعْرِ وَقَالَ نَثَرًا فيَ حَفْلَةِ الشَّامِ، فَغَلَبَ الْمَسْكُ عَلَى رِيحِ «الْبَصْلِ». أَنَا لَمْ أَقْرَأْ كَلْمَتَهُ، وَلَكِنَّهَا بِلَا شَكَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِيَّةٍ لَا إِبْدَاعٍ فِيهَا وَلَا تَجْدِيدٍ، فَلَيْسَ الشِّعْرُ أَنْ نَعُودُ الْقَهْقَرِيَّ، بَلْ أَنْ نَثْبُتَ إِلَى الْأَمَامِ لِنَضْرِبَ الْأَرْقَامَ

القياسية للأجيال الآتية، ليس الشعر أن نحملق في الأرض مفتشين على السنابل الساقطة لنتقطها بأصابع رخوة وجبين مغبر، بل أن ننظر إلى السهل المنبسط أمامنا فنذر فيه حبوبًا سليمة بكاف كأن كل أصبع منها سهم يبلغ أبعد مدى، ثم نشق الأرض بمحراث تدفعه نراع قوية كذراع الرب ... تحلم بالشتاء والربيع وتترجى حلول الصيف للوقوف على البيدر بجبهة عالية، كما يرجو المؤمن ساعة الدينونة ليلقى وجه ربه.

فقبل الخوض في موضوعنا الصاحب لا بد من ترصيد الحساب بيننا وبين بعض قرائنا، وصلني مكتوب بواسطة «صوت الأحرار» عليه طابع بريد بروكلن، توقيعه «عايدة سبيل»، وتاريخه ٤ حزيران. إن تاء التأنيث المربوطة لم تُحْفَ على ذكرية الكاتب، ولكنني سأخاطبه، تيمّناً وتبّرگاً، كالآتي، وإن خُدعت فلي مثلث في التوراة، ذلك الأب القديم ابن جدنا إبراهيم الذي افتداه رب بكبش، ألم يقل: الصوت صوت يعقوب، واللمس لمس عيسو، حين بارك يعقوب مشتري بكوره أخيه بطيخة عدس؟ فلتحي «المجددة» التي أبقت لفلسطين نسل يعقوب المبارك!

قالت لي هذه السيدة أو الآنسة بل العفريتة في كتابها: «بما أن الوقت وقت مطالبات كما تصرحون، لا أعلم لماذا لم تنشر صوت الأحرار خطبة عكاظ الحكمة؛ لأن من يقرأ مداعبتك للشيخ يكن للأطرش بالزفة وأكثر». ومع ذلك زفردت لنا من بعيد، سلم فمك «فهل صوت الأحرار إخبارية يا ترى؟»

أنا يا مولاتي لم أنشر خطابي، الذنب ذنبي فلا تلومي غيري، وأنا لا ألوم غيرك فقد جعلتني في حديثي معك كمن يلحس الفرن! والبقية عندك لأنك لبنيانية تفهمين كلامنا وأمثالنا، والدليل قوله لي: «وأخيراً، لا بد من يعطيكم العافية، والتحية القرورية لدافعكم الحر عن حشو أدبنا العربي بالتبني بدل الزيّب الدربلي، كما قلت مرّة، فالشعر ابن الإلهام لا عبد المقام، هذا وإذا وثقنا برأي قادة الشعر في العالم ... إلى الآن لم ينظم جون مايسفيلد شاعر الدولة في إنكلترا قصيدة رثاء للملك السابق، ولا قصيدة مدح أو تهنئة للملك الجديد، لأنه ما لم تُوح له الآلهة ذلك لا يفعل.»

اسمعي يا عزيزتي جوابي على هذا: قد تكون آلة مايسفيلد شاعر دولة إنكلترا آلة إنكليزية باردة لا طائرة مطوفة حنون كالآلة المتتبّي التي تخليها شاعرنا. وبعد تناولي رسالتك، عفوًا، بعد أن شرّفني كتابك العزيز، جاءتنى بواسطة «صوت الأحرار» مجلة عربية — «البرازيل المchorة» — أرسلها «أحد المعجبين»، فوجدت فيها مطلوبك، أي شاعرًا عربيًا سدّ غيبة مايسفيلد شاعر الدولة الإنكليزية — في ذمتك هذا اللقب —

فرثى بعْبُرَة حَرَّى صاحبَ الجَلَّالَةِ الْمَلَكِ الإِمْپَراطُورِ جُورَجَ، وَمَدْحُ خَلِيفَتِهِ إِدُوَارَ وَهَنَّأَ،
وَهَذَا مَطْلُعُهَا السَّاحِرُ:

فَابْكُوا عَلَيْهِ وَكَحْلُ الْعَيْنِ مِنْ صَابٍ
مَاتَ الْمَلِكُ الْعَظِيمُ الْقَدْرُ وَالْدَّابُ

إِلَى أَنْ يَقُولُ:

فَقَدْ رَأَيْنَا هَرَّا كَامِلًا وَرِعًا
مَعَ أَنْ مَخْذِمَهُ مَا كَانَ بِالنَّابِي

نَعَمْ، أَنَّ الْمَلِكَ جُورَجَ أَخَ لَنَا وَهُوَ حَامِيُّ الْإِيمَانِ وَالْمَاسُونِيَّةِ فِي الْعَالَمِ.

فَلَيْرِحَمْ اللَّهُ مَلِكًا جَاءَ سَاحِتَهُ
كَمَا يَجِيءُ الْأَسِيرُ الْخَاسِرُ الْأَبِي
وَلَيُجَلِّسَنَهُ يَمِينًا مَعَ مَلَائِكَةِ
وَيَلِهمُ الصَّبْرَ أَهْلَ الْكَوْكَبِ الْخَابِي

لَا تَعْجَبِي مِنْ «يَجْلِسَنَهُ يَمِينًا»، فَهَذَا مِنْ طَرَازٍ «يَمِينًا سِرْ، وَشَمَالًا دُرْ» لِغَةِ الْكَشَافِ
الَّذِي ابْتَدَعَتْهُ إِنْكَلَتِرَا، ثُمَّ شَاءَ شَاعِرُنَا الْفَحْلُ الْهَدَارُ أَنْ يَحَاكِي الشَّاعِرَ الْعَرَبِيَّ الَّذِي قَالَ:
هَذَا مَحَا ... إِلَخ. وَلَكِنْ فِي ذَنْبِ قَصِيدَتِهِ لَا فِي رَأْسِهَا، فَانْتَقَلَ إِلَى مَدْحُ إِدُوَارَ، فَاسْمَعِي
كَيْفَ يَقُولُ «مَا يَسْفِي لَدُنَّا»، وَهَذَا إِبْدَاعٌ لَا يَأْتِي بِمُثْلِهِ إِلَّا دَمْوَسُ فِي الشَّرْقِ:

وَفَضْلَهُ شَاعٍ فِي الدُّنْيَا بِأَجْمِعِهَا
وَقَدْ أَشْعَرَ كَمِثْلَ الشَّمْسِ فِي آبٍ
وَقَدْ تَبَوَّأَ عَرْشًا لَا مَثِيلَ لَهُ
إِذْ قَامَ جَبَرِيلُ وَالْأَمْلَاكُ بِالْبَابِ

مَسْكِينُ هَذَا الْمَلَكُ الْعَجِيُّ، فَكَلَّمَا عَنَّ لِشَاعِرٍ غَرْضُ اتْخَذَهُ مَرْسَالًا أَوْ بَوَابًا، كَمَا
جَعَلَهُ بِشَارَةً بَدَلًا مِنْ بَاسِيلِ الْقَمَرِ بَوَابَ بَكْرِيِّي يَوْمَ مَاتَ الْبَطْرُوكَ إِلِيَّاسَ. وَلَمْ يُحْرَمْ
الشَّاعِرُ الْمَلِكُ إِدُوَارُ مِنْ طَيْرِ أَبَابِيلِ فَقَالَ:

فِي الْجَوِ طَيْرُ أَبَابِيلِ لِتَحْرِسَهُ
فَتَعْتَلِي وَتَصِيدَ الزَّرْدَقَ الْهَابِي

ولم ينسَ هذا الشاعر الكبير مصيّبنا القومية، وهذا ما يؤهله للقب شاعر العربية، فذُكر بها صاحب الجلالة رأساً، غير مكتِّب بمعاتبة جون بول، كإشارة الذي يأتيك خبره، فاسمعي الآن قول شاعر «البرازيل المchorة»:

فإن لفظاً تؤديه يفرجه
هذا رجاء فأيد ما يهم به
ويمنع الخلف من حيفا إلى الكاب
لطفاً من الملك المحفوظ بالآب

والابن والروح القدس، وربما يقصد الآب الضابط الكل، ما يرى وما لا يرى ...
كيف رأيت؟ أَعْجِبُكَ هذَا الشِّعْرُ يَا أَخْتِي؟ قولي معي يخزي العين، فالملجة بجملتها
مدفع رشاش، ولكنني سأكتفي منها بكلمة أخرى وجّهها الشاعر تهنئةً لفخامة الرئيس
الأستاذ إده، فاسمعي الغرائب العجائب:

بمثلك قد لاقت رئاسة لبنان
لأنك في الكهلين في عزم شبان
إلى القبة الخضراء في الفلك الثاني
ولا عجب في أن تعز وترتقي

ألا ترين معی أن الله رفع شاعرنا هذا إلى أسفل، فحلق في جو أعلى من جو شعرائنا
الذين مدحوا فخامة الرئيس؟ ويكفينا منه هذا الختام لنعدّ مع الفحول:

ودُمْ يا أميل الخير للمجد والعلى فطلعتك الغراء خير للبنان

وإذا قلبت الصفحة الأولى قرأت على الصفحة الثانية قوله أيضاً لرئيس ولاية سان
باولو:

فُدُمْ يا رئيس الخير للعز والعلى لتحيا الرعايا في حماك وترتعوا

فافت Hick ياخديك يا أخيتي وتنشققي عبر هذا الأدب، وأسألني مار شليطا، إن كنت
تؤمنين بشفاعة القديسين واحتقارهم مثلـي، أن يشفع بنا لدى الله، فلا تقع هذه المجلة
في أيدي المتمشرين فتُتَحَذَّن نموذجاً للشعر العربي في القرن العشرين، عصر الأعاجيب،
فيقطول عمر الانتداب سبع سنين ... وتعود وفود العرب من باريس ولندن تلعن الشعر
والشعراء.

وإن لم تعجبك بضاعة البرازيل التي أهداها إلى هذا الشيطان «أحد المعَبَّين»، حتى
وضعت بين «العجب» و«العاشرة»، فدونك ما قاله شاعر مصرى يوم مات المرحوم الملك
فؤاد، الشاعر هو عبد الله العفيفي، وقصائده تحلُّ اليوم في جريدة الأهرام الخطيرة محل
قصائد شوقي:

هل تعرفون على من نكس العلم هذا عmad الحمى والملك ينهدم

لا يا سي عبد الله، ما عرفنا من نكس العلم، وليتك ما خبرتنا! لقد ذُكرتني بكاهن
أخذ جمجمة من المقبرة قبل أن وقف ليعظ، وعرضها على المؤمنين وأخذ يسألهم عنها
على نمطك حتى أزعجهم، فقال له واحد ساذج: هذه جمجمة طنوس يافت يا محترم،
ماذا تريد منا بعد ...

ثم ضاق الوزن فلم يَسْعِ «إلى»، فقال عبد الله:

فؤاد أين ومصر غير آمنة الريح عاتية والموج متقطم

لا أعلم، وشاء الشاعر أن يورّي فجاءنا بهذا البيت المفكك الأوصال الممزق كالأشلاء:

أحالها الحزن أشلاء ممزقة جسم بغير فؤاد كيف ينتظم

ثم خبرنا أن يراعه كان يستمد الوحي من الفقيد العظيم بقوله:

قد كنت وحي يراعي حين أشرعه فالآن بعده لا شعر ولا قلم

صدق الشاعر فقد نظم بمناسبة الأربعين قصيدة طويلة لا وحي فيها، ومع ذلك
افتتحت بها الأهرام نشرتها، وضبطتها بالشكل الكامل خوفاً من أن تضيع بعض الفائدة،
أو أن يغرب شيء عننا من أسرارها البيانية. القصيدة منتقاة الألفاظ، جيدة الوصف،
حافلة بالعاطفة، ولكنها عاطفة من لا يؤتى به الإبداع فيخرجها بصورة رائعة.

نظم قصيده هذه على وزن قصيدة ابن سينا العينية التي قال مثلاً الحوراني في رثاء إبراهيم اليازجي. وقد رأيت في قصيدة عبد الله بيّنا ينظر — كما يعبر صاحب اليتيمة — إلى بيت الحوراني، ولكن شتان بينهما، قال الحوراني:

كيف التفت أراه مبتسمًا على عهدي به فكأنه يحيا معي

وقال العفيفي:

أني التفت فملء عيني شخصه وحديثه المأثورة يملأ مسمعي

وأغرب عبد الله كما يغرب عندها أبو عبد الله، فخبرنا أن النيل والله — كنافة النساء — متعر، يفيض بعَبرة منهلة وهم متزع — لا بعد فال أيام أيام الفيضان — حتى لبس السواد وسعى زهره بقادمي غراب أبعق، هذه عادة شعراً ثنا في الرثاء لا يقلعون عنها ولو انقلعت عيون النقاد كلهم، إنهم يسخرون الطبيعة لما يريدون ويشهدون عليها زوراً. إن مصيّتنا بشعراتنا كبيرة، يقولون بل ينظمون الشعر لا أدري لماذا، أتريدون أيضاً من هذه البضاعة؟ خذى، لدى منها أكثر من ذنوب أبي نواس، نظم العلامة الأستاذ عيسى إسكندر معلوم عضو المجمع الملكي المصري تارياً لوفاة الملك فؤاد، قال:

رمت أرض الكنانة بالفواجع
سهام مزقت منا الأضالع
بلاد العرب قد فقدت فؤاداً
عزيز الملك محمود الصنائع

إلى أن يقول:

تعزي الدولة العظمى بخطب
يخفف وقعه «سعد الطوال»
فاروق فؤاد العرش راجع
فؤاد غاب لكن أرخوه

١٣٥٥

وفي القصيدة تنظيم وكشف بخت، وهذا يقتضي الحساب، أما الحساب فمضبوط، ولكن الشاعرية خائرة، يذكرني نفس الشاعر بالمرحومة عائشة الباعونية. ليت الأستاذ المعلوم يعمل بمثلاً اللبناني: «طلعت ذقن ابنك أحلق ذنقك». لقد جرّب الأستاذ آلهة

1936/1

٢٣٠ مصر

أما الأديب الأستاذ محمد أسعد الكيلاني الذي أحال علىَّ غريمه (المدار ٢٣ تموز) ببراعم الشاعر الأستاذ عمر يحيى، فهو عندي باليمين وحالته مقبولة، ولو لا انصرافه إلى درس محصلو الشهر لأديتها «غب الاطلاع»، فلأستاذ عندي مبلغ من الفضل، بلأمانة في صندوقي تخوله حق التحويل على مصرفي ساعة يشاء، ولصاحب «البراعم» أيضًا كرامة يستحقها ديوانه الذي أهداه إلىَّ منذ أشهر.

ولابدأيضاً من ردكلمة جاءتنا من خلفسبعة بحور - كما يقولون فيلبنان -
بعث بها إلى «الهدي» حضرةالأستاذ حنا الخوري الفغالي. تجاهل الأستاذ حنا وقال: «إنه
لا يعلم ولا بشارة الخوري يدرى أسباب غضبتنا». قلت: «والداعي، أيضًا، لا يعلم أنه
غضبان». وأخيراً افترض أخونا هنا الأسباب ليقول: «إن كانت ليعرب وثاراته فقد أخفق
مارون عبود، وإن كانت سياسة فهل دخلت السياسة شيئاً إلا أفسدته؟» أما ثارات يعرب
فندع الكلمة الفصل فيها للمنصفين الذين رفعت عن أعینهم الغشاوة، وأما السياسة فما

أبعذنا عنها! إننا نؤمن بإيمان بطرس بإفسادها، ونصدق هذه الكلمة المأثورة تصديق أبي بكر، وعندنا على ذلك براهين قاطعة، أولها إفسادها شعر أخيانا بشارة، فلو ظل أبو عبد الله زهيرياً كما نشأ، يبكي وينوح وينظر الحبيب في الزاوية، حتى إذا أخلف الميعاد صرخ من قلب مفروم بلسان البهاء زهير:

ووعدتني يوم الخميس فلا الخميس ولا الأحد

لكان له الشعر الغنائي المحبوب على علاته، ولكنه عدا طوره ومزاجه، شاء أن يقول شعراً قومياً سياسياً، وغضاته رخوة، فأخرج هذا الشعر المشرشر، الذي رأيت وترى نقده.

إن بشارة شاعر مقاطع، وإن أردت كلمة أوضح فقل «طقططيق» مثل: الهوى والشباب، وجفنه علم الغزل، وغيرها من شعره الرائق، فهو لا يسكن في هذا الميدان. وهناك رسائل شتى لا ينفع المجال لذكرها، منها واحدة توقيع صاحبها «أحوكم أبو أحمد» طواها على «حاملات الطيب» — طرابلسية معلمها شibli الملاط، فطوبينا الثنتين معاً بدا لنا من مرسلها عيب نفسه، فهو يتمثل بشمشون حين قال: «علي وعلى أعدائي يا رب». أما الآن فلنُنَدِّعُ إلى موسم الشعر في مصر.

إن الحصاد كثير والفعلة قليلون، فنسائل رب الحصاد أن يرسل فعلة لحصاده. يظهر أن عالم الأدب العربي جاري الطبيعة هذا العام، فكانت هذه الآونة أيام حصاد. الحصاد كثير كما قلنا ولكنه خفي، البيادر كبيرة ولكنها قش سنابله هيقاء، فحظ الأهراء منها قليل، أما حظ المتبين فكثير، هذا ملخص رأينا العام في بيادر هذا الشهر، فلنذر أولاً بيادر مصر.

إن حلم فرعون الذي عبره له يوسف بن يعقوب يصح في مصر الأدبية أيضاً، ابتلعت البقرات السبع العجاف، القباح الهيئات جداً، البقرات السبع السمان الأبدان، الحسان الصور، وقد ذهبت السنابل الجافة الدقادق — كما تقول التوراة بالحرف — فموسم الشعر الذي أقيم هذه السنة — بعد استعداد سنوات — قحل قبل أن أكتنز، فلم يبيّض الوجه، ولكنه أبشع جداً من البقرات السبع العجاف، وكأنهم شعروا بفشل موسم الرزق، فشاءوا أن يعتاضوا منه بموسم الفول ... فقد بلغنا أنهم سيقيمون موسم آخر سموه أولاً «موسم الشباب»، ثم «مهرجان الشعر الحديث»، فأغضبوا الدكتور زكي، فقامت

قيامته عليهم في «الجهاد». إن تسميته بالهرجان أب卿 وأليق، فمن الموسم ترجى الغلة ... أما المهرجان فاسمها يدل عليه، ولماذا نستعجل الأمر قبل أوانه؟ قد يكون بين فتيان هذا المهرجان من يحقق قول شاعر الشباب الخالد: ويأتيك بالأخبار ...
وكأنني بالدكتور مبارك قد شعر بمحل «الموسم»، فكتب في «الجهاد» يخاطب العربي باشا وزير معارف مصر: «لو كان الشعراء ينتظرون منك هذا الصدر الرحباً لما طوى الهاواي قصيده في معاتبة رئيس الوزراء، ولما أخفى الأسمراً قصيده في «الامتيازات الأجنبية»، ولا أغفل صاحبنا فلان — أي هو الدكتور زكي — قصيدة «غريب في مصر» لينشد قصيدة «غريب في باريس»..
قلت: وأيُّ فرق بينهما؟ فليس في هذه من ملامح باريس إلَّا:

أديم أجوائها سواد فلا شروق ولا غروب

فلولا هذا البيت لاستطعت أن تعنونها «غريب في تل أبيب»، ومع ذلك فأنت لا تخطئ إذا عنوتها «غريب في وطن بلفور». إن «غريب باريس» قصيدة الدكتور زكي، من البضاعة الرائجة في البندر لفظاً ومعنى، فهي معرض للألفاظ المسوسة، والصور البائكة؛ كرقابة النجم، وشهود الوهر، والصبا والشمول، وعيون المها، ومجنون ليلى. ليت دكتورنا استبدل المجنون بابن أبي ربيعة، فمحيط باريس ربيع قلبه، إنه يلائمه جدًّا، ولا يرى فيه مثل أبي الأسود ... إنه يغنيه عن «عتيق» فيكون عتيق نفسه في بلد يريه كل ساعة جديداً، كما نتوقع الجديد من دكتورنا الذي وهو يأتينا بشيء من مثله إنما في غير الشعر.

هذا ما أزعم للدكتور، فعسى أن أقرره عليه، فنصيحتي له — إن جاز لمثلي أن يعالج دكتوراً — أن يطلق النظم ثلاثة، وليس لما ينتجه هيئته من يعيش. قلت هذا لأن طعم قصيده «يا أهل أسيوط» ما زال تحت أضراسي، ولا أزال أذكر مطلعها الرائع بإعجاب:

يا أهل أسيوط لا زلت بعافية وإن تمرد في وجيبي لكم دائني

عوفيت يا صاحب، وشفاك الله من وجده بالشعر، الزم المنثور يا شيخي، فلا خبر لك في معجن عقر، ليس الفن الشعري أن نردد ما قيل، بل أن نقول ما لم يُقل، ومن يعمل غير ذلك ضل وانتحر على أقدام الآلهة.

إني أخاف عليك الضجر والممل، أيها القارئ، إن فصلتُ لك وصف هذا الموسم الماحد؛ ولذلك أجمل قائلًا لك: إن أغراضه مما قرأَ وتقرأ كل يوم، فهناك وصف خمر، وحكم، وقوميات، حتى الوقوف على الأطلال ... ما في وقوفك ساعة من بأس. إن أكثر شعره مقول، بل هو محصول أعوام سالفه تشم العطن إذا استروحته، وترى العفن إن تأمّلته، أما المستبعض مثلٍ فلا مفر له من احتمال الروز والتقليل، فاسمع كلمتي في ثلاثة أربع قصائد:

افتتح الموسم الأستاذ الجميل بكلمة من منثوره كانت خيرًا من شعر الموسم، ودللْت بوضوح على ثقافة أنطون العميقة وروحه الشعرية التي عرفناها يوم كان بيننا يحرر «البشير»، أما «عاصفة روح» — قصيدة ناجي التي استغربها بعضهم — فهي من الشعر الحديث الذي يتعمّل شبابنا اليوم لقول مثله، ويسمونه الشعر الرمزي، إن موسيقى قصيدة ناجي وافية، والتزاوج بين ألفاظها ملائم، فلا خوف من الطلق الباكرا، أما أن نطلب المعاني المستقلة من مثل هذا الشعر فليس هذا غرض نظامه ...

في القصيدة ألفاظ تحالها تعريبيًا لتعابير شعراء المدرسة الرمزية الإفرنجية، ولكن المخالفة تبرّر انتحالها، فالدكتور حسن الذوق للقصصيل، وهو بارع في القصص على الهنداز. أكتفي بأن أدلّك على عبارة واحدة لتقيس عليها وهي زورق سكران ivre لستيفان مالرمه، استعملها الدكتور بقوله:

لا يهم الرياح زورق غضبان

وعندي أنه لو أبقاها كما قالها ذاك لطابت المرام أكثر، فالسُّكُرُ أخرى من الغضب
بزورق يتكلب بين أكف الأمواج.

أما الشاعر الحاج محمد الهراوي، داعية الموسم الذي لم يتحقق إلا بعد ثلاث سنوات — ليته ما كان! — فقال قصيدة عنوانها «التجديد والتقليد»، افتتحها بهذين البيتين:

هذا مجالٌ تنازعُ الأفهام من غير تفرقة وغير خدام

الحمد لله!

يا قادة الرأي الجديد تحية لو صح زعمكمو وألف سلام

لا أدرى إذا كانوا رُدوْا عليه السلام، أم اضطرر الدكتور زكي أن ينهج نهج الحجاج في العراق، ليجبرهم على ذلك. ثم أخذ مولانا يفند زعم المجددين ويزدرى قصصهم، ويقول أن سوقها بارت في الغرب — من خَبَرَكَ هذَا يَا حَاجَ؟ — ويخبرنا أن الشرق سبق إليها، حتى قال:

أتعيد ثرثرة الحديث مجَدًا وترده لخرافة الأصنام

إذا كان الهراوي يعد القصص إعادة حديث، فما تراه كان يقول في شعره لو قرأه وهو يعلم أنه له؟ وشاء الشاعر أن يحدّد لنا الشعر تحديداً قاطعاً مانحاً فقال — ولم يجد:

والشعر ما هو غير موسيقية في حسن قافية ونظم كلام

ألم تهزك هذه «الموسيقية»؟ ألم تتدبّب كرقاص الساعة حين سمعت «ما هو غير»؟ والله ما قتلنا إلا مثل هذا النظم الذي يعده صاحبه أنموذجًا، ولكنه أيضًا بلا قيمة. وتحطى الشعر إلى بحث النثر فعيّر الناشر قائلًا له:

فتقول في «اثنين يوم» مثئم لا في مدى يومين في الأيام

شاء أن يتهمكم فجاء بالسمج البليد! ما سمعنا أحدًا عَبَرَ هكذا حتى ولا طه حسين الذي يفترخ بأنه يفتكر في الفرنسيّة، فاثنين يوم أبغش من ربابة بشار، و«مدى يومين في الأيام» معفنة، ثم هل يكون اليومان من الحيوانات؟! عفواً لم أنتبه إلى الضرورة التي تحلُّ من الناموس، فداود أكل خبز التقدمة لما جاء، فالقصيدة ميمية وأنت في حاجة إلى كلمة — في الأيام — لتسد بها فم الفراهيدي ... ليتك لم تنظم هذه التوافة شعرًا، فالشعر براء من كلام ليس فيه حسن قافية كما قلت، ولا هو نظم كلام كما أمرت.

وتقول مثل الثلج غرة وجهه لا مثل وجه البدر حين تمام

قاتل الله الجمود والتحجر! أنتا ضل الجديد بهذا السلاح الصدى؟ والأستاذ يريد في
بيت آخر أن لا نصف الثغر إلا بالدُر المنظوم، فلا فُضّ فوه ليظل حريًا بهذا التشبيه
... وقطَر إلى ذكر الألفاظ الدخيلة مثل «أوكازيون» و«ركلام» فأصاب، إننا في غنى عن
تعريب لفظة تؤديها لغتنا، ثم ختم هذه المنظومة الفريدة بقوله:

ما لي وللنقاد أسمع رأيهم ما قادني عقلي إلى الأوهام

ولكن النقاد لا يعفونك، وسيان عندهم سمعت أم لم تسمع، فهم ينتقدون ولا
يبالون بالنقود، بل يجعلونه عبرة للأجيال الآتية التي يرجى صلاحها.
وأخيرًا توارى عنَّ الهااوي وهو يردّ هذا البيت الفذ:

وطني هو المُمْلِي علىَ قصائدي جدًا وشعري لوحة الرسام

ولكنه رسام مخرِب، وجديك أعتقد من توتَنَخَامون، والحق نقول لك، بعد هذا
الموسم: تخض الهااوي فولد ثمامنة.

حاشية: فتشت كثيرًا على قصيدة محمد الأسمر، لأنني تعودت أن أقرأ له شعرًا
فما وجدتها، فلعل له عذرًا دلنا عليه الدكتور زكي الذي نقدر أدبه، ما خلا الشعر منه
— وهو عاذرنا.

وبعد هذه المرة العجل بالموسم سنذهب بك إلى ساحة أمير الشعراء الأستاذ العقاد،
فتسمع قصيده التي قالها في رجل مصر المرحوم سعد، فتطرُب وتهتف: إن من البيان
لسحرًا!

قصيدتا الجارم في الملك فؤاد وسعد

لم تمسح مصر دمعتها الحرّى على ملوكها المحبوب حتى قام فيها «موسم الشعر»، وما أنفخت دفَّ الموسم وتفرق العشاق حتى جاء يوم سعد.

قرأت بعد كتابة الفصلين السابقين من محصول الشهر قصيدةً لشاعر مصري هو علي الجارم، قالها في جلالة الملك فؤاد. على القصيدة رزانة المشايخ، ووقار الخوارنة والأئمة، خلعت عليها قافيتها شدة وأسرًا، فقرأنا عاطفة صماء في معرض الرثاء الذي يقتضي رقة وليناً. ما عرضت لهذه إلا لأتحدث إلى أخت لها، وأقابل بينها وبين «عذراء» العقاد في سعد.

في علي الجارم نخوة عنترة وتأنًّ، أنساني بها إنشاده في الراديو، فهو ينتخي حتى في الرثاء، أما نظمه فعربي التفكير، كأنه لم يقرأ في حياته غير العربية، لا تلتمنس عنه صورةً ولا تعبيراً جديدين، فهو من نوع الشاعر الذي يريد الهراوي. يقول لك كالأقدمين:

جلل هزَّ كل ركن وهذا
ومصاب رمى القلوب فأردى

فتخالك تقرأ دالية البحترى، أو كأنك أمام شاعر في الخيام يه jes بهزتها، وناظم كالشنفرى يتصور الرمي فالإرداء ... إن الألفاظ أمنية الجارم لا المعانى، فهو يقول لك لا لشيء:

مرسل خلفه أنيّا ووجدًا	كل صدر به أنيين ووجد
وخلال من الخشوع تبَّى	وخشوع من الجلال تراءى
ورأت حزم جاهد لن يبارى	فرأت حزم جاهد لن يحدا

ذكّرني هذا بقصيدة رفيق لنا قالها يوم عيد أستاذنا الخوري أنطون رومانوس، كانت كلها على هذا الحدو:

متغزاً في مدح أنطون التقى متغزاً
في مدح أنطون التقى

والشاعر يصور هول المصاب فـيُوفِّق إلى هذا البيت الجميل، على ما فيه من مبالغة:

ونشيج أقض من مضجع الليل وماجت له الكواكب سهداً

ورأى شيخنا الحشد العظيم فـشَّبهه – على عادة شعرائنا الكبار – بالبحر والجبال،
ولم ينسَ أن يقول أيضًا:

فوق سطح البيوت كالنحل فانظر ثم إياك أن تحاول عدًا

لماذا يا شيخ؟ وماذا يصير لو عد؟ ... آه! تذكريت الآن، كانوا ينهونا عن عد النجوم
خوفًا على أصحابنا من الثاليل ... وبعد، فعند أبي شادي الخبر اليقين؛ لأنه أدرى بالنحل
... وتحتاز القصيدة من الباب إلى المحراب، فترى الشاعر لا يتخيّل إلا سيفًا وزهورًا،
وكواكب ودوحة تمد الظلال في مصر مدارًا، إلا أنه لم يقل كالأخطل: ما إن يقاس بأعلى
نبتها الشجر. ثم رأى رأيًّا يفضح الصبح، وجبارًا تسير في يوم حشر، وصخرًا وشوگًا
وورداً، ودرعاً وسدًا، حتى إذا أراد أن يُظهر مقام الملك الراحل قال هذه الحكمة البرزة،
 وإن لم تكن أعيت رياضتها كسرى وصدت عن أبي كرب كقول حبيب، بل افترعتها أقلام
كثيرة:

ولإذا الله رام إصلاح شعب سلك القائد الطريق الأسدًا
إنما الناس بالملوك وأعلى الملك شاؤًا ما كان حبًّا وودًا

لا نجرّم الجارم إن استعار «إنما الناس بالملوك»، فقد تكون المعارضة بغيته، ولا
يريد بيان المالك على الأسل، كما قال أبو الطيب. وبعد، فالشعراء جiran على بعد
الزمان والمكان، والعارية مألوفة بينهم، واليوم نحن كلنا إخوان بنعمة المستعمرين، ثم
شاء الشاعر أن يحدّثنا عن الموت فـما عدا كلام المعزين البلاء في كل مأتم:

حُكْم الموت في الأنام فسوئي لم يدع سيدًا ولم يُبقي عبدًا

وبينما هو يسحق التمثال إذا به يقتضي الأسود، وكل مهد يصير لحدًا، لا ينقشه
إلا: ضاحك من تزاحم الأضداد، وغيرها من مجرت الكلام والأفكار. ثم لا أدرى ما الحكمة

التي حملت الجارم على تفضيل «سوح» على ساح؟ قد يكون عدتها تجديداً، فتجديداً إخواننا المصريين كثير في مثل هذه الصيغ، فهم يقولون بلا ضرورة: أخلاد بدلاً من خل، وحسيس أصوات، وقرب ذلك، وعكوف عليه، و«عوض» بدلاً من «أبدًا»، وندوات بدلاً من نواٍ، ونحن عسيون ... إلخ.

وقال الجارم قصيدة أخرى في سعد وهي غرضنا، نظمها على طراز قصيدة شوقي في استقبال أم المحسنين، وكاد يبدأها مثله، قال:

اكشفوا الترب عن الكنز الدفين وارفعوا الستر عن الصبح المبين

ومضى يبعث الصور والمعاني القديمة، ولا جرم، فنحن في موقف بعث، وإخراج رفات من ضريح، فقال في الأبيات التالية للمطلع دون أن ينقطع نفسه: ابعثوه عسجداً، ثم اجتلوه درة، وانتضوه سيف وغنى، وقناة هي كالحق صفة لا تلين، هزت جيش الأبطال ثم النساء والنسني، والحراب، وعرiren الضيغum، وقصب المجد، وعلماً في فدف، وروضة ثم دوحة وشمسمًا، كأنما شاعرنا هو المرشال فوش يوم كان يعرض الجنود القدماء أمام قوس النصر. والأستاذ الجارم - كما أريتك - مولع باللاعب الذي كانوا يسمونه بديعاً، فيقول لك: إن للحق يميناً لا تمين.

ومع أن الشيخ - كما ظهر لي - كثير العناية بالديبياجة لم يتورّع عن أن يقول: ذاك بعث «حييت» مصر به. ثم: هل ترى للشمس في الأفق تنين - جمع تنٌ أي مثل - نجنا يا رب من محشر القافية ... وهذه «التنين» مثل «صيبر» أحمد رامي في «أوبة الطيار»، و«غسيل» بشارة الخوري في قصيدة فلسطين. ويمضي النظام حتى آخر منظومته يعرض علينا صوره العجائـر، النظم رصين، والقافية طنانة كالنحل الذي رأه على السطح ونهانا عن عده، أما الأفكار فمن جيل الخبز، إلا أنها مهما جار عليها الزمان تظل أقرب إلى النفس الشعري من قصيدة العقاد. الجارم يخشى الهلاك إذا تعدى ناموس الأقدمين، ولللغة كل الكائنات تحتاج إلى التطور، أما العقاد فيتأبى التقليد، وهو عاجز عن التجديد، فسبحان واهب اللحم لـن ليس له أضراس!

قصدة العقاد

كلما وضعت هذا الرجل على مائدة التشريح، أنكمش وأهتز رأسي وأحس قلبي يتعرّج شفقةً ورحمةً، ولكن ما حيلة الجراح وقد رأى «نملة فارسية» تتهدّد الدم بالتسخيم والجسم بالهدّ؟ إن هذه الأدوار الخبيثة تكاد تقضي على أدبنا، فعلينا أن نكافحها بالمبضع والمصل الواقي، وأخيراً باللكي آخر الداء والدواء.

عندما شاخ الزهاوي ولم ينقد له الشعر على طول تمرسه بأفاقه، أخذ ينظمه أسماطاً كما فعل العقاد اليلوم، ولا غرو فهذا الشاعران أصدق دليل على زعم تين وبروتير في تصنيف الأدباء كالبنات. نظم العقاد قصيدة سعد عناقيد عناقيد، ولكنها حصرم يفت في عين العروض، وما أظن رأس واضح هذا العلم انشقَّ إلا انتقاماً للشعر منه؛ إذ عَدَ طريقه للناس، فسلكها الكسيح والمقدع.

أجل، إن العقاد انتحل مذهب شلي في الحق والجمال، ولكنه لم يستطع أن يدخلهما في شعره، قد يكون أذعن له «الحق» أما «الجمال» فغليظ الرقبة. لست أحاب هذه المرة درس قصيده هذه بيتاً بيتاً كما فعلت فيما مضى، فهي نثر إذا استثنينا الوزن، فاسمع مطلعها، وفي طلعة الدر ما يغريك عن زحل:

عرف النفي حياة ومماتاً
وكلما أقصوه عن دار له
وأصاب النصر روحًا ورفاتاً
ردد الشعب إليها واستماتا

في البيت وصف واقعي، ولكن الواقع وحده لا يعمل الشعر والشاعر، كما أن الحلم وأخاه التذكار لا يكونان «عالم» الشاعر الحقيقي، فالوويل للشاعر الذي لا يضم ارتعاشاته الخاصة إلى ما ورثه عن الأجيال السالفة. فلو كان الشعر سرداً أخباراً بأسلوب جاف – كقصيدة العقاد هذه – لقلنا لك: هذا هو الشعر، والعقاد أمير الشعراء، ولا يموت كالفَرَاءُ وفي قلبه شيءٌ ... ولكنه – ويا للأسف – غير هذا، الشاعر لا يقول: كلما أقصوه عن دار له، إن الشعر لا يقبل كل الألفاظ، فبلغ عومه أصيق من بلعوم النثر، ومعدته لا تقلل «فتة» العقاد القائل:

كيف يجزيه افتياً وهو من كان لا يرضي على الشعب افتياً

وفي العنقود الثاني يجعل العقاد قبر سعد كعبة في جوار البيت أو سفح الإمام،
فبنو مصر حجيج وزحام، ولو لا زحمة القافية ما كانت زحام ولا أختها تمام، ولو لا
ذكره الكعبة ما جاء ذكر الحج والنسك والاسلام، عقبى كل هذا الخلد المقيم كما يقول
الشاعر لسعد في هذا البيت الرائع:

فالق في قبرك خلداً كما مرّ عام تبعته ألف عام

لو كان العقاد من المجدودين، وكان قبل ١٤٠٠ سنة، وأنشد بيته النابغة في عكا
جعله ابن أخيه وأشعر العرب.

وتأتي العنقود الثالث فتجده كأخيه لا تبرق فيه حبة، خاطب الناظم فيه سعداً
وأمره بعبور القاهرة، ووصف ساعة العبور بأنها من ساعات الفردوس لا تشبه الساعات
بدءاً وختاماً، وهنيئاً لك يا فاعل الخير! وختم هذا المقطع بقول الواعظ على قبر الإسكندر:

قل لهم أبلغ ما قلت لهم أيها الواعظ صمتاً وكلاماً

وينتهي العقاد في الفوج الرابع، ولكنها نخوة مُقعد، ويحمى حمي حالم مصاب
بالكافوس «مروبص» فيصبح:

جرّدوا الأسياف من أغمامها ذاك يوم النصر لا يوم الحداد
ارفعوا الرايات في آفاقها أين يوم الموت من يوم المعاد

إن الشاعر المفنّ يستغني عن «من أغمامها» ويشعر بضعف «في آفاقها»، فيأتي في
مثل هذا الموقف بالفاظ يجعل اليد على القائم، والقلب خفافاً كالرایة، إن الشاعر من
أوتي قريحة كناقة طرفة، ترقل ولا ترقل ولا تخاف مثلها الملوى ... ومع ذلك أشهد أنه
مرأة أمامي في هذا الفوج جندي يشبه الجنود ولو شحوب بارد عليه:

لا يلاقي الخلد بالحزن ولا يكتسي الفتح بجلباب السواد

فلو نظم هذا المعنى غير العقاد لحرّك ساميّه وقارئيّه، فكأنما شاءت آلهة العقاد
البليدة أن تريه أرض الميعاد كموسى ثم لا يدخلها، فقال:

ذاك يوم ما تمنّاه العدى بل تمنّاه ولاء وداد

آه من «الولاء والوداد»! ما أبغضهما إلى في هذا الوطن يا أستاذ! ثم قال:

فانقضوا الحزن بعيداً واهتفوا فاز سعد وهو في القبر رماد

فهذه «البعيد» بعيدة عن الشعر بعْد العقاد عن الفن، ليته نفضها مع الحزن،
ولكنها ستحلو حين نرى أبشع منها وأشنع كقوله:

المعيقون تنحوا جانبًا آخر الأمر وسعد في البناء

أتعرفها أم أدلّك عليها؟ إنها آخر الأمر وأختها المعيقون، وسأريك أبشعين وأشعنين،
فبعد ما حدثنا العقاد عن «نقطة الشمس» مع أننا فتنا آذار، ورأى أنها ترمز إلى نقطة
سعد، قال:

هو أيضًا قد طوى ليل الردى وطوى ليل الغواشي والكذاب

أظنك عرفت أنني أعني «هو أيضًا»، أما «الكذاب» فلا ترعرع، فهي من تجديد بعض
المصريين. والخلاصة أن العقاد قد مُنح من الشعر بعلتين قاتلتين: الركاكة وضعف
الخيال، فلو صار مثل «آرجو» له مائة عين مبصرة، وركب نسر حيقار، ومركبة إيليا،
وعلا صهوة البراق، فلن يبلغ سماء الوحي ولا يقارب آفاقها.

وخبرنا العقاد في آخر القصيدة عن كتابه في سعد، فاماًنا وصدّقنا أنه يكون كتاباً
قيماً، فالعقاد كاتب مفكّر، ولعله يفطن ولا ينشر فيه ما قاله نظماً في فقيد مصر، فينجو
الكتاب من النحس. فاتني أن أخبرك أن العقاد استحلّ اللام فحشرها حيث شاء:

وأثبتت في مستنقع «النظم» رحله وقال لها من تحت أحصنك الحشر

وإليك بيته لتحسين الحكم عليه:

الفراعين الألى أجيتهم لتموا لو أجازوك الطريق

ثم قال أبياتاً بعدها جاءت على نسق زجلية رواها لنا الدويهي في تاريخه، وهذا مطلعها:

يحرز دينك يا نحلوس حميض الضيعة بالدبوس

وإذا سألتني ماذا في قصيدة العقاد من حسنات، قلت لك: إنها وثيقة صادقة تفضح الدسائس السياسية حول سعد بعد موته، وحول قبره هذا، فالعقد ينبع — وما ينبع إلا خبيث — ماذا فعل فريق من المصريين، وكيف عارضوا نقل رفات البطل. كان هذا أبلغ لو قاله العقاد نثراً، فالنشر أطوع له، ولكن العقاد عند يظن النظم خصماً سياسياً لا بد له من قهره، فعيباً نتقدنه وننصحه فهو كأسدٍ يُشرِّي يظن مقالتي زوراً وهجراً ...
إذا كان التقد كما يريد سنت بيف أن نشعر ونخبر عن شعورنا، فإنني لم أشعر بشيء من الشعر في هذه القصيدة، أرى مصر في سني القحط السبع، فعسى أن يطول عمري إلى انتهائها. قد ذهب الزمان بدنيا شوقي الواسعة، نعم إن تخطيطها قديم، بيد أنه فيها من الفن العربي الخصيص بصاحبها، أما العقاد فأشبه بتلبيسة — قرية على طريق حلب — كل بنيانها من الحواري على طراز كوم الخلد. إنه يعرف مقاييس الفن كطالب يعرف أسرار الاختراعات من الكتب، أما العاطفة الحية التي تدب في النشيدة فما رُزق منها شيئاً، وهو ينظم بعقله وليس لقلبه عمل.

قال الله في كتابه العزيز: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾، ونحن عسيون — التعبير من تجديد العقاد — أن نلقي هؤلاء النائمين في ظل سنديانة الكنيسة، ولم يدخلوها ليشعروا بقشعييرة المتهجدين، فعونك اللهم على هؤلاء الذين يطلبون «الحسنة» بالدبوس.
أما الآن فقد حان أن نعود إلى بر الشام، فغربتنا طالت في مصر، والغريب يشتاق إلى أهله، فلندع العقاد يغازل ربة الشعر مستعيناً على تلين قلبها بقول أبي فراس:
معللتي بالوصل ...

بشارة شيخ السفرة

لا ديك الفجر ولا ببل الصباح يغنيان الأشودة التي يشتريانها.

روستان

خطب المستر ستانلي بلدوين — وزير إنكلترا الأول ومستشار جامعة كمبردج — في مائتي مندوب ممثّل جامعات الإمبراطورية البريطانية، فجاء في خطابه: «إن الشعراء الكبار نادرون، بل هم أندر جدًا من العلماء الكبار الذين يخلق علمهم الشيطاني المواد التي تبيد الإنسانية، فلذلك أسألكم — أيها السادة — أن تكثروا بين نتاج جماعاتكم عدد الشعراء الذين ينفحون في أوروبا، بل في العالم أجمع، روح الاتحاد والحرية».

فاستغرب هذا الطلب كاتب إفرنسي فقال: «إن الشعراء لا يعملون توصية، فمهما كانت قوة الوزير البريطاني الأول، ومهما اشتد ميل الجامعيين الأنكلوستكسون، فلن يستطيعوا أن يفبركوا الشعراء جامعيًا، ولا أن يصدّرُوهم بالجملة كالمحامين والأطباء والمهندسين ... إلخ».

أجل، إن حاجة العالم إلى شعراء حقيقين كحاجة الغابة الخرساء إلى طيور فصيحة تخفّف من الذعر الذي تلقّيه وحوشها في النفوس، فكلما ابتعد العالم عن الشعر اقترب من الهمجية، ولكن خلق الشعراء مستحيل، أما تجويدهم فممكّن. ليس الشعر علماً ولا التغريد صناعة، ولو كانا كذلك لأتقنهما المتشاعر والغراب، ومن يحاول أن ينتج من نفسه ما ليس فيها، فإنما يدرك فشلاً مخزيًا. كثيرون من الشعراء — كالعقاد والزهاوي مثلاً — يتبعدون ويجاورون طول العمر، فلا تتعرف إليهم الآلهة ولا يرون لها صورة وجه، فكم من كاهن يأكل ربه كل يوم، وربه لا يدخل تحت سقف بيته، بل يصرخ به: أغرب عنِّي، لا أعرفك. وكم من مؤذن يذكر الله ورسوله، كل يوم خمساً، فيرقض صوته على السطوح ويتغلغل في النوافذ. إن مناجاة رجل عامر القلب بالإيمان، لا يسمع جاره هسهسته، تسقه إلى أذنَّ من وسع كرسيه السماء والأرض.

بعض الناس يصلح شماسًا للكنيسة فيزيد أن يكون واعظًا، وبعضهم يحسن التكهن فيطمع إلى عرش راعي الرعاة، وهذى مصيّبتنا الكبيرة بأخينا بشارة الخوري: الأخطل الصغير، شاعر لبنان، شاعر العرب — ميراث حلال زلال عن الكاظمي في حياته

— واليوم شاعر الأقطار العربية ... مسكين خليل مطران عاقل جدًا، تأكل الدجاجة عشاء ولا يكشها، إنه لا يهُش ولا ينُش ولا يسائل عن شيء.
 لا بد لمحصول الشهر من بشاره، فالزيتون شيخ السفرة، وما شَيْخوه إلا لأنه مجهر
 كشعر أبي عبد الله الذي لا يدخل، كلما ستحت الفرصة، بقصيدة تناسب المقام، حتى
 صار كالخوري الذي ينتظر من يرقدون بالرب ليرفع عقيرته مرتأً: حوين لحاطويه ...
 إن بشاره ينظم ونحن نقدرها، ونعني خصيصاً بشعره، كلما قُدِّرَ لنا ذلك، أما رجاله
 الذين يطلاعون علينا من هنا وهناك ظانين أنهم يدافعون عنه، فيشبهون متى الأطرش.
 مرّ رجل على متى هذا وهو يحرث حقله فحيّاه قائلاً: عوافي يا متى، فأجابه متى: ازرع
 بطاطاً ... فتبسم له الرجل وقال: تأكل عزرايل يسحب روحك. فقال متى: أنا وابن
 عمي سليمان.

إننا نرثي جدًا لرجل حادَ عن الطريق فقلنا له: من هنا يا أخ. فننتأ وأجبنا: ماذا
 يعنيك متى؟ لا أناقش بشاره في قصيده لغبطة البطريرك، فهي من نوع «نظم المنشور»
 وأكثرها مما يقوله رافعو الكئوس في المآدب، والمؤهلون بالضيف، ولكن لي كلمة أقولها
 قبل كُبُّ السلة. إن بشاره لم ينس عيسى بن مريم في يوم الشعانين، فشبّه به البطريرك
 أنطون، وكاد يكون هذا طبق ذاك لولا أن المسيح الملك — كما لقبه البابا أخيراً — ركب
 جحشاً، وصاحب الغبطة أكلته سيارة جلس فيها عن يساره مثل قيصر، مشى حوله
 وحاليه من يعتصرون الزيت ولا يحملون أبداً غصن الزيتون. وأغرب من هذا جمزة
 الشاعر المبدع بل قفزته العالية من على ظهر الأتان إلى جناحي النسر، فتدھوره من على،
 كحسان امرئ القيس، ثم اندفعاه إلى الغابة ليشبّه بليثها قائلاً:

يا نسر لبنان، بل يا ليث غابتة

صرت أكره جدًا هذا التشبيه بالنسر وزميله الليث، فقد خم لكترة ما ناشته الأيدي،
 ولا تنَسَ أن العامة سبقونا إليه فقالوا فيه أحسن منا، وإليك ما سمعته مرَّةً من مغنٌ
 يزعق في عرس:

يا نسر يا شايب الراس	مالك على الجوع قوة
إن كنت تأكل لحم ضاني	دونك والعرييس أبو المرؤة

فما يقول بشاره في هذه البلاغة؟ وهل يجوز له ولغيره من الشعراء أن يطأولوا النسور؟

وإن نسي بشاره جعل «مار أنطون» قافية بيت يزيد على قامة قصيده أصعباً، ويربحه تصفيقة حادة، فإنه لم يَسْهُ عن ذكر العهد — الانتداب — والوعود، فحمد القوم قبل وبعد ... وأقر لهم بالفضل أيضاً، وهو ممَّن عرفوه أكثر منا، ثم لم يحرمهم من العتاب الذي هو صابون القلوب، فاسمع بيتيه الجامعين:

الحمد قبل لهم والحمد بعد لهم
لما استفدناه من علم وتمدين
لا نجد الفضل لكن قد يجوز لنا
عتب الأحبة من حين إلى حين

كل القصيدة من هذا الشعر الرذل كأكثر شعر بشاره السياسي، وشر البلايا المضحكه. إن «أخطلنا» ينظم محليات الجرائد ويزعم أنه شاعر العرب بلا منازع! فإياك، مثني وثلاث ورابع، أن تمنعه من هذه الجبة الفضفاضة فإنه يغضب ويرحد، فاللقب حلي بعينه، وهو يتمسك به بكلتا يديه تمُّسُك الطفل بلعبته، ولا يفلتها إلا باكيًا.

قصيدة بشاره في فلسطين

فلسطين أختنا، بنت عمنا، حبيبتنا، جارتنا، ومصيبتها، والله مصيبتنا فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. نحن ننقد شعر بشاره الخوري فقط. إن قصيده في فلسطين عليه منهوكه بليتها تقطع النبض، فالشاعر ينط فيها كراقص الشارلسون، أو هو عصفور دوري يسقط على الحب ينقر ويتفتت، فيينا يسائل عنا العلياء والزمانا إذا به يرتمي في «زبلين» جديد، ليطير بنا إلى «لندرة» لمعاتبة جون بول:

قُلْ لجون بول إذا عاتبته سوف تدعونا ولكن لا ترانا

أتقول إنه مشتاق كثيراً إلينا؟ بل من قال لنا أنه يقابلنا إذا لم نمشِ إليه مشية بشار. إن هؤلاء الإنكليز لا يعاتبون ولا يعاتبون، فهم ﴿صُمُّ بُكُمْ عُمُّي﴾ إلى آخر الآية. القافلة ماشية فقل ما شئت، ثم قال لجون بول أيضاً:

قد شفينا غلة من صدره وعطشنا فانتظروا ماذا سقانا

فذكرني بقول القائل:

تأمَّلْ من خلال السجف وانظُرْ بعيشك ما شربت ومن سقاني

لم يقل شاعر العرب الأكبر شعراً يبيّض وجهنا السمراء في الأبيات الخمسة الأولى،
أما البيت السادس:

ضَجَّتِ الصحراء تشكو عريها فكسوناها زئيرًا ودخاناً

فحسن، وهو من الشعر الفذ مبنيًّا ومعنى، وإن كان بشارة على دين بشار، يرضي
من القصيدة ببيت جيد فقد بلغ مشتهاه، فليُكثِّر من النظم ليكون له مثله اثنا عشر ألف
قصيدة؛ إن هذا ممکن فالموت متلاحق، والفرح لا ينقطع، وباب بشارة مقصد، ولكن ما
يأتي بعد هذا البيت الجيد ينسينا حلوته، فاسمع ما قال:

ضحك المجد لنا لما رأينا بدم الأعداء مصبوغاً لوانا

أليس هذا تصوّراً صبيانيًّا يضحك أكثر مما «ضحك المجد لنا» في وهي بشارة
وخياله؟ فلا تنس أية القارئ ما تطالع الآن، فلا بد من رد العجز على الصدر عند
الأستاند، أما الآن فاسمع:

عرض الأحرار أن تسقي العدى أكؤساً حمراً وأنغاماً حزانياً

هذا عرض لم ترقص به الشاعرية، وبشارة حط النقوط – أي النقود – ثم راح
يخبرنا نظماً عن «العهد الذي نحرته دون ذنب حلفانا»، والعهد والوعد أصبحا من لوازم
شعر بشارة، ولو ضيع العهود الشعرية – كعبلة – وقال لنا: «نزرع النصر ويجنيه
سواناً»، فما تراه زاد على معنى الميجانا القائل: نحن زرعنا الزرع وأجا الغير حصد...؟
إن الزاجل قال أبلغ لأن الجني للثمر والحداد للزرع، الزاجل رمز، وبشارة صرح. ثم لم

يكفي بذلك بل حاول أن يزيدنا إيجاداً، زاده الله صلاح شعر، فتعلّل لخيتنا السياسية
بقوله:

ذنبنا والدهر في صرعته إن وفينا لأخي الود وخانا

كأنما هؤلاء الإنكليز أبناء عمنا لحًا! الفرنسيون أحبة — في قصيدة غبطته —
والإنكليز أخوة ودٌ ... وما عساه أن يقول بعد غد إذا حاكى الطليان. ناهيك بما في صرعة
الدهر من بلادة، فتباً لدهر صير أخطل هذه الأيام لماً يجمع ما تجتره الأقلام كل يوم،
فيشبك بعضه إلى بعض عاملًا منه مسبحة الدرويش.

وانتقل إلى وصف جهاد فلسطين الذي «صفق المجد له» كما «ضحك لنا» من قبل،
و«لبس الغار عليه الأرجوان» كما تلبس المرأة فسلطانها العنابي فوق تنورتها «درعها»
الخضراء. ثم تصور هذه الداهية العظمى فشبها على جسامتها بجرح في جبهتها «لثمتة
خشوع شفتانا»، كما تلثم المرأة ولدها إذا سقط إلى الأرض وصرخ، قد تكون الجبهة
أدت المعنى الذي في قلب الشاعر، أما فأرى جرحها غير ذي شأن؛ لأن عظمها سميك،
كشعر هذه الأيام، يتحمل الشجَّ، بيدَ أني لا أنكر أن الجبهة عذب مقبلها لذة المطعم،
وأكبر الظن أن هذا هو الذي استحلاه شاعر ... ضَعْ في هذا الفراغ اللقب الجديد الذي
يمليه عليك بشاره.

ورأى أيضًا في هذه الثورة الصاحبة التي أيقظت الإنكليز — على ثقل نومهم —
«أينَا باحت النجوى به»، ثم كان هذا الأنين «عربياً رشفته مقلتانا» والأحرى بهما أن
تسقياً. وبعد هذه البدائع والطراائف أنسأنا قائلاً:

فإذا العهد غسيل بالدماء ويسوع يذرف الدموع حناناً

مع آلامك يا يسوع! لست أقول شيئاً في «غسيل» بشاره، فيحكم القارئ على النظافة
والإنقان، ولكنني أتعجب لماذا يبكيون، كلما شاءوا، هذا الإله الشاب؟ أيظل إلى الأبد بكاءً
سخى الدمعة؟ وكيف يكون ذرف الدموع حناناً؟ لا أدرى، دمعة واحدة محتملة أما
دموع وذرف فكثير على الحنان! إن يسوع أشجع الناس وإن لم يقاتل، وكيف يقاتل من
لم يجد مع تلاميذه «الأبطال» غير سيفين، والشعب الذي هاش أمامه يوم الأحد انقطع
صوته صباح الإثنين. وبعد، فليس بكاء يسوع عجيباً، قد يقوم شاعر إسباني يبكيه في

الغرب لأن البلاشفة نيسنوه، أي رموه بالرصاص، فهل لبشرة أن ينظم درة يخفّف بها من آلام يسوع، ويسد بها أفواه هذا الجيل الشرير الذي يطلب آيةً، ولا يعطي له إلا قصائد بشرة؟

لا شك أنه نسي هذا، فهو كثير النسيان في هذه الرحلة، قد غفل عن «عرس قانا» في هذه القصيدة، كما سها عن «مار أنطون» في تلك، مع أنها تواتي القافية والوزن، وفيها ما فيها من التورية، فلو كلف أبو عبد الله صاحبه عيسى بن كرييم عمل عجيبة في «عرس الأحرار»، فإني أؤكد لك أنه لا يقول له: ما لي ولك يا ... لم تأتِ ساعتي بعد.

ثم انفجرت نجوى «أخي الود» على أختنا الحبيبة فلسطين، فأعرب عن حبنا وارتباطنا بعهد «قد رضعناه من المهد كلانا»، مع أن الخلاف كان على المهد، وأكثر ما تكون المحاجحة حول «المذود». ثم قال: «إن يثرب والقدس منذ احتلما كعبتنا»، وهو صحيح إن صحَّ أن يكون الاحتلال في الشیخوحة، أي في هذه الأيام، حين لم يبقَ في الكرم إلا الحطب. ومضي بشاره يفتش عن الأعلام — قوام شعر المناسبات — فمرَّ بضرير عدنان وغسان، فنشرهما باسم صديقه يسوع، ولكن ليطوبينا نحن:

شرف للموت أن نطعمه أنفسًا جباره تأبى الهوانا
وردة من دمنا في يده لو أتى النار بها حالت جنانا

حسناً قلت، وقد سمعنا جاهليًّا يقول: إنَّا لنرخص يوم الروع أنفسنا. ولكن لا ترى أنه ليس من حسن الذوق أن يجعل طريقنا على النار بعد ما ذكرت الموت، وجعلتنا في يده؟ فكلنا يا أخي من المؤمنين بالله واليوم الآخر، نخشى ساعة نقف فيها على النار، أرحمنا يرحمك الله! وكم يكون حظ الناس أبيض إذا حالت النار جناناً، فَدُمُّ المسيح الذي افتداك ونجاك من الخطيئة الأصلية ما استحق كل هذا!

ثم قال فأجاد:

قل لمن يبني على أسلائنا وطنًا هلا حذر البركانا

ولكنه لثالث بيتهن بعده حتى قال بيتهن مقبولاً لم يشنه الجناس بين العنف والعنفوان.
والآن قد بلغنا المحجة فاسمع ما يقول الشاعر بعدما أشبع الدنيا ابتهاراً:

قرع الدوتشي لكم ظهر العصا وتحداكم حساماً ولساناً
إنه كفو لكم فانتقموا ودعونا نسأل الله الأمانة

آه من هذه الا «الله» التي ملأت أفواهنا حتى انقطع رزقنا، إن من يتهدد بالبركان
والعنف والعنفوان وغيرهما من وزن فعلان الطنان الرنان لا ينتهي إلى القول «أمان
جائم» أو ليس قوله الإنكليز: «قرع الدوتشي لكم ظهر العصا ... إلخ». كقول صبي
لآخر ضربه: «كنت ضربت ابن فلان الذي فرك مناخيرك أمس! أنا لست من قدرك!» فترو
يا أخي، غير مأمور، إن قلت شعرًا سياسياً فيما بعد، فالسياسة تتطلب التحفظ، نحن
لا ننهاك عن خوض غمارها، ولكننا نقول لك: توقّ الدول.
وبعد أن استحم بشارة بمياه جوفانس الحمراء، توهم أنه رجع شرحاً فقال:

قُمْ إِلَى الْأَبْطَالِ نَلْمِسْ جَرْحَهُمْ لَمْسَةٌ تُسْبِحُ بِالْطَّيْبِ يَدَانَا
قُمْ نَجْعُ يَوْمًا مِنَ الْعُمْرِ لَهُمْ هَبَّةٌ صَوْمَ الْفَصْحِ هَبَّةٌ رَمَضَانَا

ذكرني هذا الأمر بالقيم رتبة العنصرة التي يقول فيها الكاهن للشعب: قوموا بقوة
الرب الصباوت الراكب على المشارق والمغارب.
قمنا يا أخي فماذا تريدين؟ وما الفائدة من لمس الجرح؟ أتوجعهم فقط؟ سائل
المتنبي عن أيّ دم يستحيل مسگاً، فما لك وهذا الطيب تكثر منه في منظوماتك القومية؟
أتصبوا أيضًا إلى لقب أبي المسک؟ إن «لمسة تسحب بالطيب يدان» مشوشة التركيب، فلماذا
عنيت نفسك للاشيء؟ إنك لم تزد على ما قلت في رثاء هنانو إلا إغاظتك النحة المذاخيس،
فيما ضياع تعبك!

إنني أسألك فأأخبرني، لماذا أمرتنا بالصوم قائمين؟ ألا تراه أهون على القاعد؟ بل
ما حملك على نظم فكرة سبقك إليها فعلًا أخونا المجاهد سامي سليم؟ ليتك قلت مثله:
فلنجع، فلننضم يومًا من العمر لهم، وارحتنا من القيام في هذا الحر، أما أزعجت نفسك
وعرّقتنا؟ وبعد، فما لي ولك فقد تكون رأيت في «قُمْ» بلاغةً لم نرها نحن، أما أرجح

الظنون فإنك تطمع لنا بزيادة الأجر، عظَمَ الله أجرك وأجر كل شاعر يطول لقريحته في هذه المداعي.

كان الأخطل الذي انتحلت اسمه يرد التسعين ثلاثين، فما بالك أنت تمط الثلاثة لتجعلها ثالثين وأربعين؟ هل خبرك أحد أن قصائد هذه الأيام تُشَرِّى بالباع كحال القنَب، أو بالألفة كبعض بضاعة سوق سرق؟

وأخيرًا، لا بد من ملاحظة على «هبة صوم الفصح»، إنَّ صوم الفصح، يا سيد العارفين، لا يوفِّر إلا السلفة «الترويقة»، وإن كان فينا مَن يصوم حسب الطقس اللاتيني فلا نوفر شيئاً، فهلا تستدرك هذا في الطبعة الثانية؟ إنَّ كسر الصفراء لا يعبئ الكيس اللائق، أما إذا أمرت أن يكتب عليه: إن الهدايا على مقدار مهديها، فلا بأس.

وما تركنا القلم لنستريح من هذه الفجاجات حتى وقع نظرنا على نفحة جديدة من نفثات شاعر الأقطار العربية — بشارة لا خليل — ودرة من درره المكنونة، قالها لا فُضَّل فوه، ولا عاش مَن يشنوه — لو كنت أنا كما يزعم — في الفقيد العزيز الغالي المرحوم رحمة واسعة عبد الرزاق الدندشي، فأمرنا الله.

١٩٣٦ / ٩

٥

قصيدة بشارة في الدندشي

تشتغل الطبيعة من حول إلى حول لتصنع زهرة رائعة، أما الشوكة فتخلق شوكة. حَقًّا إن هذا العام عام غرائب وعجائب، فكما ظهر في فلكنا نجم ضخم، كوجه الفرزدق، كاد يخرب الأرض، كذلك لاح في أفق عالم الشعر نجم أعظم من كوكب أبي تمام الغربي ذي الذنب، وهو مطلع مرثاة الدندشي للأستاذ بشارة أفندي الخوري، شاعر الأقطار حتى الصين والهند، وهذا هو بنصه وفصْله:

عرفتك عَفَّ القول واللحظات حِيَا كمنديل بصدر فتاة

رأيت في حياتك أغرب وأعجب من ذنب هذا البيت؟ أما أنا — والله يشهد عليَّ —
فما رأيت بيتاً يقاربه إلا: فكأنني أفترط في رمضان، إن صدق الرواية.

لما منحت مدام دي نواي وسام جوقة الشرف — اللجيون دونور — من رتبة كومندور التي يقضي مرسيومها بتعليق الوسام في الرقبة، أخذت جريدة إفرنجية تداعب وتمزح، فقالت ما يقارب هذا: ترى أين تنفيط الوسام مدام دي نواي؟ أبعنقتها مكان العقد؟ أم في صدرها ولا يعوقها ما فيه من قمم؟ بل أين تشـكـه يا تـرـى؟ أتستعيض برباطه الحريري الأحمر عن محزم ضفائرها فتدليه فوق صدغها الأيسر أو الأيمن؟ أم تـرـاها تعلقه على ظهرها من خلف؟ ... إلخ، وهكذا بربـزـت تلك الجريدة الفكهة مصورة الشاعرة الكبيرة بالوسام الأـكـبرـ صورـاـ شـتـىـ من خـلـفـ ومن قـدـامـ، في الشـعـرـ وفي النـحرـ، وتحـتـ النـحرـ.

فهل لهذا العاجز — كما عَبَر الأستاذ خليل تقي الدين مرة — أن يسأل الخلق من ذكور وإناث عن هذا «المنديل الحي» بصدر فتاة أين يكون؟ وكيف يكون، ليجيء أقرب إلى الصورة التي استبطنها رافائيل الشعراة؟ — رافائيل المصور الظلياني لا رافائيل طوبيا، أبو لحاف.

قال أعداء شاعرنا الأعظم الذين يقول بشاره فيهم:

كلما أطبق الغبار عليهم حشرجوا تحته وماتوا اختناقاً

إن بشارة شاعر قديم غير مجدد ولا مبدع، شاعر غنّى يا ليل، فقال أحسن ما عنده واستراح، وهو لا يقدماليوم في مضيافته غير طعام بائت، وقد حمّض رزه المسكوب في قصاع من الفخار المشقق ناصل صباغها ... إلخ، فما عسى هؤلاء الحسّاد الكذابون يقولون إذ يرون هذا المنديل العجيب معلقاً بإحدى قرانيه أمام دكان بشارة؟ لا شك أنهم يسطمون أفواههم حين يشاهدون هذه الآية التي لم يحل بها أحد من الأولين والمتاخرين، لا في الشرق ولا في الغرب، ولهذا سميته - كما مرّ - شاعر كل الأقطار، وكفى الله المؤمنين القتال. إنه أشعرهم بهذا «العجز» ولكن بدون يا ابن أخي، ولا أحashi من «النظام» من أحد، إلا شاعراً عامياً ضيع منديلاً خطيرًا، في زمان ستّي أم إلياس، فقال فيه:

منديلي ضاع يا حويتو
واللى أخذ منديلي

وبعدُ، فما قول القراء الألباء، أي منديل يعني أخونا بشارة، أمنديل العرق والامتحاط؟ فذاك يختفي ولا يبين منه شيء، فهو بحق كلي الحياة والوقار والاحتشام، أم منديل السعوط وهو أثقل الأعباء على جنبي؟ أم منديل الزينة الذي يبيّن منه شيء يشبه الأذنين، وقد يكون أطول منها أحياناً فليولي عنقه ويتدلل فوق الصدر ولا يمسها إلا مسّاً خفيّاً، فيظهر حبيباً مهذباً أدبياً؟ أم المنديل الذي يكون في عبها احتياطياً لأمر يأتي، كالتلويح والإيماء ومارب أخرى ... فيقعد عاقلاً، ولا يتسيطّن كجرير لنهواه، بل يبدو رزيناً، عفًّا الحركات، أبياً نزيهاً وقوراً برغم ما في المحيط من مقبلات ومغربات وتوابل؟

ثم ما تقولون في اللون؟ فأنا أظنه بنفسجيًّا، بل الأرجح أنه أبيض، من لون زنبق مار يوسف البتول، شفيع النجارين، أو من لون عصاه التي أزهرت يوم اليانصيب، أي الخيرة لستنا مريم التي حبل بها وحبلت بلا دنس.

صدق الله العظيم، إن الشعراً — وأزيد عليهم المجتهدين في اختراع العجائب — في كل وادٍ يهيمنون. أما كيف أضع بشاره ذاك الذوق السليم، وخيم في الشاطئ ... فلا أدرى أين هذا يا أخي من قوله الفذ — إذا صحّ أنه لك:

والنسيم ... يلهو بثوبينا كطفل ذووه ما هذبوه

أما اختراع الجديد هذا ففات «المنديل السليماني» وسبقه ستين مرحلة، وأخرس القائلين ما ترك الأول للآخر.

عندما كنّا في مدرسة مار يوحنا مارون نلتقي الدراس السريانية حمي الجدال في مجلة المشرق (راجع السنة الثالثة ص ١١٠٣، والخمسة ص ١٤٤) حول عبارة سريانية من الشعر الرمزي، وهي «شوشافو شلامونوبتو، إلخ ...» وردت في الشحيمة — كتاب الصلوات الخمس اليومية للخوري الماروني — فاختلفوا في تفسيرها، وأخيراً تقرر أن الشاعر السرياني عنى بقوله: المنديل السليماني في أرض داود العطشى، أم الله مريم بنت داود، مشيراً بهذا الرمز إلى قول الشاعر سليمان في سفر الأمثال: مَن حصر المياه في منديل. فال المسيح هو الماء الحي الذي حُصر في أحشاء مريم البتول.

فهل يقوم بعد ألف عام من يفسّر منديل فتاة بشارة، كما فسر الأب يوسف حقيقة وغيره منديل الشاعر السرياني؟ قد يكون هذا إن ظهر المسيح الدجال الذي ينتظرون، وحينئذ يصير شاعر العروبة الأكبر أكثر من شاعر، فأبشر يا بشارة!

أهذا شعر؟ فلماذا نخدع الرجل وهو صاحبنا، فيعطي في قصائده الوطنية بعطاً، قد كرهنا يا أخي هذا الشعر المقرف، فإن كان عندك شيء من غير هذه البضاعة فهات. وفي البيت الثاني تأتي لفظة تدل كل الدلالة على ذوق شاعرنا الثنين، فاسمع ما قال لتحسين الحكم:

ولكن إذا الأوطان نادت أجابها وقاح كتاب الليث عض بشاة

فهذه الوقاح وقحة خشنة مثل كبابك الشوك، ولو لا القافية لعنة الله عليها، لاختار بشاره كفواً للبيث غير الشاة، ولو لا الوزن أيضًا لترك العضة للكب. ثم علق بشاره يخبرنا ما لا نعلم، أي إن السيف لا يلقى بالعصا، والأعداء لا تدفع بالصلوات، وإن:

صدق العلي نفس تسيل على الظبي مرصعة الآهات بالبساط

أي مكشرة. لم يقل بشاره هذا إلا بعد ما «سأل الله الأمان» في قصيدة فلسطين، ولم يستجب له فعاد إلى زعمينا، والعود أحمد.

وكان يكون ما تمناه من أمان، وكدنا نستطيع لقيان السيف بالعصا لو أعطينا نحن مثل عصا موسى، وأعطي المرحوم الدندشي مثل قضيب مار يوسف البتول الائف، الوصف؛ لأن بشاره أفاد في حديثه عن طهره وعفته حتى قال في ذلك ثمانية أبيات، كأنه كان ينام وإياه في غرفة واحدة، فجزم لنا أنه «لم يعط الشبيبة حقها»، و«زجر الهوى إلا إذا كان حلية لمكرمة». إن هذا لا يكون إلا في «lahoot» أخينا بشاره، أما نحن فما رأينا منه في «الغوري» الذي درسناه وحفظناه كالماء الجاري، حتى ولا في «الأسطوين والليكورى» من كتب المرحوم جدي اللاهوتية. والغريب أن الشاعر يتسلل إلى تطهير الدندشي بتتنقيته من الحب، كأنما الحب رجس أو دنس من الأدناس، وكان بشاره نسي أن الله محبة هو ...

وبعد طهير مزعج قال لنا هذه الحكمة المجلة الثلاث المطلقة اليمين:

سواك يعدون السنين لعمره وعمرك بالأفعال لا السنوات
إذا ضمن المرء الخلود على الصبا بما عمره الباقي سوى فضلات

وأراد «حسن التعليل» لموت الفقيد مصطدماً بعمود القطار الكهربائي، فجاءنا
بقبض المازني لضرورة الوزن، وإن تسألني ما معنى قوله:

فمتّ كما ماتت سوى خبث ريحها وغمرك للأرواح بالنفحات

أحلتك على «حاشية» بشارة لتسنير فتفهم أن الدندنشي والكهرباء كفؤان، وأنك لا
 تستطيع بعد هذا التعليل العليل أن تقول: الويل للمغلوب. فالكهرباء كالنحلة التي تشک
 إبرتها في الجلد وتموت على الأثر.

ثم لذّ للشاعر أن يعظ فقال كلمتين من حواضر البيت، وقد عجبتني غفلته عن
 نهر بريدي، و«دمّر» والعهد، وغيرها من ألفاظ الشعر الوطني الدبلوماسية، مع أنه يحب
 النهور جدًا حتى كاد يُجري في كل قصيدة نهرًا عبقرىًّا؛ ففي قصيدة شوقي نهر، ولكنه
 نشف كالبحر الأحمر حين انشق حتى جاز فيه موسى، وفي قصيدة حافظ نهران حافظ
 والنيل، وفي قصيدة الفردوسي نهر طوس، وإن لم يذكر نهر قويق في «الحلبية» فلأن
 تركياً قطعه عن الشهباء ... وإنما فكيف ينساه من لم يحرم الفيدار — نهر شتوي عندنا
 — من درة كاملة؟

ما لنا ولها التدقيق كله، فهو حرام في شعر بشارة السياسي، فالنهر والعهد والوعد
 من لوازمه، وخصوصاً يسوع الحمل الوديع، فهو له أطوع من الخاتم في الخنصر.
 صح: دمر غير منسية، وأظن القارئ يوافقني على أنه يعنيها لا غيرها بقوله:

وبالشاطئ المغمور بالظل والهوى على حركات الماء والسكنات

ولم يكتف بشارة بذكر الصداق — كما مرّ — بل أحّب أن يقطع الشك فقرر في
 أذهاننا ذلك المعنى ثانيةً فقال:

أحيي جهاد الحاملين إلى الردى مهور المعالي فوق كل قناه

وأين الفتاة؟ رحم الله عهدها، فلو عادت أيامها وأيام الكبش والمنجنيق والضبر،
 ونحّي المستعمرون غازاتهم وطائراتهم ودباباتهم ومدافعمهم الرشاشة لسُدُنَا العالم،
 قاتل الله المجرمين، فهم لا يعدلون بقديد اللغة شيئاً، وحسبك القناة قديداً. فوا حرج قلبه
 من هذه الصور الباردة، ووا طول شوقي إلى الجديد، إنما ليس كمنديل بصدر فتاة!

وختم الشاعر قصيده الفريدة بقوله:

ربى الأرز عن أزهاره بلهاطي
وإن أنا حيت الشام تنفست

والصواب عن أزهارها، فالأرز من الفصيلة الصنوبيرية ... إلا إذا كان يعني بربى الأرز «جبل الأرز»، وهذا أغرب من المنديل السليماني وتقسيره. ثم قال:

جذبت إليه العرب بعد نفارهم
وذوبت في كاساتهم نغماتي

وكُلُّ يدعى وصلًا بليلي ... ثم هل نحن تتر يا بشارة؟ كنت حسبتنا من المهدين «المجدوبين»، ماذما تركت لسيدنا البطرك المجل؟ ومهما يكن من الأمر فأنت تستأهل «قبل وبعد» يعطيك العافية ... ولكن — هذا سُرُّ بيبي وبينك — ألا ترى مثلَيْ أن هذه «الكاسات» ألبق بالجلاب واللبن الرائب — العيران بلغة حلب — منها بنغماتك الساحرة؟ يرحم الله شيبان ابن الرومي، قد تأخرت جدًا يا إبرام، فتسميت إبراهيم عتيًّا واختتنت منه ابن تسع وتسعين ... وإن لم تفهم نكتتي فإلنني محييك على التوراة، فخذ الكتاب بقوّة، وافتح الفصل السابع عشر من سِفر التكوين، في ذمتِي أنك تضحك لها ضحكتك النقية الناصعة البياض.

ليتك تنشر يا أخي قصيدة واحدة — ولو عتقة — من شعرك المطبوع لأقول فيك كلمة طيبة، فقد كدت تسيء ظن الناس بي، كما ساء ظننا أجمعين بشاعريتك. فهلا تعود إلى أيامك! ألا تذكر شيئاً من شعر الشباب الذي كنت تُسمّعنيه على السطحة أمام غرفتي «المعلقة» في بيروت؟ لست أزعم أنك أبدعت هناك إبداعًا مجتمعاً أشدَّه كالحجاج، ولكنني أقول إنك كنت مخلصاً، وأعزز قولي بالأيمان المغلظة. إنَّ من لا يستطيع أن يكون جباراً كما تشتهي فالإخلاص حيلته وزينته، وإن ظلت تفتش عن نفس غير نفسك لتصورها لنا، فإنك تطلب المستحيل، وتصير نفسك شيئاً قاحلاً في عيون الشباب المفتوحة علينا. فابكِ وعنِّ، ونُحْ وإنَّ، فخير شعرك الولولة! ألا اعمل — ودم شاعريتك في رقبتي — بقول سميك بشار — إن تركت النساء — ما لك ولقول صديقنا الريحانى، فأمين فيلسوف يقيس الشعر بالأنش والقدم، ويعرضه على الترجمة التي تمسخ حتى: يا جمل يا بوبعا ... ومن يعلم منه كان كمن يستغنى بنقطة عطر عن جمال الزهرة، فأمين في هذا الزعم

كأم تتعزى على فقد ابنها بأن روحه خالدة في ملکوت الله. أقول هذا ولا أغضب صديقي
الريhani لأن الفلسفة كبار العقول واسعو الصدور.
قد تقول لي وما يقول بشار؟ قلت:

ولا بد من شکوى إلى ذي مرؤة يواسيك أو يسليك أو يتوجع
فتتشكّ إذن يا أخي، فشكواك في الشعر حلوة، وتقهقرك أحلى، وأنت لا شك واحد بين
القراء أحد أصحابك الثلاثة، وما هو شرهم يا أم عمرو ... أما أن تصير الشعر الوطني
أرخص من الفجل ببيعة مساء، فهذا كثير.

١٩٣٦ / ٩

البراعم لعمر يحيى

١

صفحات هذا الديوان، ٢١٥، أما الطبع فبين بين، موشوم الوجه تنبئ تصويرة الناعورة
أن الشاعر حموي، أما اللون المحلي فيه فكأطلال خولة ...
قال عمر في (صفحة ١١٥):

لَيْ قلب يشكو النوى ولسان نادب مجد نزار

فحدد شعره تحديداً قاطعاً مانعاً، فديوان عمر كما قال: لسان يندب مجد العرب،
وقلب خافق يشكو النوى، بل قل الجفاء وسوء البخت ... أقول هذا بعد ما ركبت البحر
كما كان يسأل المبرد، وأؤكِّد لأنّي الأستاذ محمد أسعد الكيلاني أني لم أترك زاوية ولا
تكلّة من ديوان صاحبه عمر إلا وتغلغلت فيها، سحت فيه سياحة أحمد فارس الشدياق
في الأقطار، فعسى أن تكون لي لحظة ذلك النسر الخالد.

إن عمر النظّام يتكلّم قبل عمر الشاعر، لا أعني بكلماتي هذه أن ليس في الديوان
شعر، بل عنيت أن النظم أغلب، فالشعر مزروع فيه هنا وهناك كالنوعير على ضفتَي
العاصي، والأثنين في كل مكان، قوام الديوان أنات محروم قلما رأى يوماً أبيض، فهو رهن
الشكوى والرثاء كما وصف نفسه، وسبحان من يرزق من يشاء بغير حساب.

تقرأ في الديوان شعراً ولكنه كخمرة أبي نواس التي شبّهها بدم الجوف فتقطب
منها وتعبس، ما ظننت ولا إحال غيري يظن أن شاعراً في هذا العصر يتهافت على الغريب
تهافت عمر يحيى على قصاعده، فهو ينصبُ عليها ويأكل أكلاً عنيناً كشيخ بنى الهجيم

عند البحتري المكرّمان، مع أن بشارًا الأعمى البصير أدرك منذ اثنى عشر قرناً أن الأغراض طاعون الشعر، والفن كل الفن في الملازمة، فقال يصف لنا شعره:

وشعر كنور الروض لاعمتُ بينه بقولِ إذا ما أحزن الشهر أسهلا

فماذا جنينا يا ترى حتى يعود بنا عمر إلى الوراء، إلى نواريس القدماء، ويرينا قيام الساعة قبل الموعد، إذ بعث هذه المخلوقات من الألفاظ، فوقفت بين أيدينا كالأشباح تحمل في يدها كتابها. فماذا يقول العم بشار لو نهض ورأى أهل الكهف يُبعثون بعدما دفنهم هو وحٌطَ على رأسهم حجراً؟ ألا يقول بنا مقالته لذلك البصير الذي دلَّه على البيت؟

فما قول القارئ بالعدمي، والأطم، ولعا، وأشغى، والنغر «بدلًا من البليل»، والضحيان، والطخيان، وخمت ومشتقاتها في شعر عمر؟ أما العدى فالكتب من خيمهم، لماذا فضل خيمهم على طبعهم؟ لا أدرى، ثم الضريح أي الشمس، والعياش القيسية، ولولا القليل استعمل البعاع وأماتنا فزغا، والخيس الحبيبية، والعجول الخنساوية، وأغطش الشنفرية، والأنف العنتية، والأواذني النابغية، والمرقال الظرفية، وأختها الأمون، والعقرقوف النواسية، والأفتیات العقادية، وأخيراً مهيم: أي ما حالك، وهي أبغض من ملجن بشارة، الموروثة عن شوقي عن عمر بن أبي ربيعة، ثم جبرين أخت بغداد شوقي. وقد أضاف عمر إلى حب الغريب ولعه بالجموع الكريهة كأصحابنا الأئمة المصريين، فهو يستحلي مثالم هذه الصيغ المنبوذة: كالرئمان والتربان جمع تراب، وغضنة جمع غصن، وشجراء أي الشجر، وزاد في بلوانا أن ليَنْ هذه الأخيرة فقال:

أدواح عاصينا تمایل غبطة أطيار شجرانا ترن نسيباً

وخبرنا في الشرح أن «بابا» اللغة المعصوم، المثلث الرحمات امرأ القيس استعملها، وعندي أنها كريهة ولو استعملها جُدْ جُدَّ امرأ القيس، بل لو نطق بها أبونا آدم حين رثى عمنا هابيل أول شهداء المرأة.

وعمر يحدثنا كشيخنا امرئ القيس عن القلب المقتَل والمقصَّم، ويجيئنا بالهدون ثم بالركز بدل الجرس، إلى آخر ما هنالك من أحداث جديدة، ومفاجآت غريبة من الألفاظ مثل «توكاليف» العقاد مقيد الأوابد، ومحرر الدواجن. إننا نعلم أن مصر بلاد المؤميات،

والشام بلاد الدicens، فإذا كان في ثنية الأستاذ عمر منافسة الجارة العزيزة في خلق المومياءات اللغوية، فلنبن المتحف.

لا أظنك تستكِّبِر ما أقول متى علمت أن عمر استعمل الجبين بدلاً من الجبان، لا أنكر أنه مرّ على رأسي حدث يكاد يشبه هذا، حين نقل المرحوم لويس شيخو قصيدة بشر بن عوانه إلى كتابه «مجاني الأدب» فاستبدل الهصور بالهزير، فقال: هصوراً أغلبًا لاتقى هصوراً، وضرب مخُّ الخليل بأسطوانات عروضه، حين رأى الهزير خطراً يتهدد الأخلاق الصالحة، ويوسوس في صدور الناس ... أمّا لماذا آتَى عمر الجبين بذلك لا يعلمه إلا الراسخون في العلم.

قال لنا مَنْ مهدوا لديوان الشاعر — وهم كُثُر، كفتلى صاحبة أبي فراس المنحوس الطالع: إن عمر يطالع كثيراً. فقلت في نفسي: وأين هو من كتاب أبي الذوق اللفظي، ابن الأثير؟ أتراه لم يطالعه بعد؟ ثم هل كل مَنْ يطالع كثيراً يعود إلى الناس عودة تأبَّطَ شرّ؟

وإذا نظرنا إلى صور الشاعر رأيناها قديمة كالألفاظ، أو عدمليّة كما يحب أن نعبر، فربّيب عاصي حماة، يذكر لنا توضّح، ونعمان الأراك، وسنداد، ويضع سلمى — اسم جبل لطيء — زاوية لبيته الشعري، ويجري عليها الشاقول. قد فعل مثل هذا سميّي الخوري مارون غصن حين قال منذ أسبوع: رضوى بكركي راسخ الأوتاد فخلته يبني عرزاؤ، إنما أعجبني منه أنه تيقّظ للهواء الغربي القالع فرسخ الأوتاد. أنا لم أقرأ لسميّي الخورأسقف شعرًا منذ أطلق مائة مدفع ومدفع لعينطوره، في عيدها المئوي، إلا هذه الأبيات، ولوسوء حظّنا كلينا وقعت على رضوى الذي انتقام، وترك ألف جبل قبلة عينيه، إنه الاجتاز اللاشعوري مرض الأدب العربي، أرانا رضوى الخوري وسلمى عمر وسنداده، فلا حول ولا قوّة.

قد رأيت أن غريب عمر يحيى يجيء على صوره وقوافي، وقد يكون السبب دورانه في حيز الأقدمين، فكل أغراض شعره كأغراضهم، ولا جديد في الديوان إلا «رسالة الورد» التي أَدَّها عمر كما يؤدي الشاعر رسالته، أما «قلب أم» فأذكُر أنتني فرأتها لغيره.

وإذا أردت أن تعلّم حب عمر الشديد للتضمين أمكنك أن ترده إلى العلة الأصلية التي ذكرتها، فهي التي سبَّبت كل هذه الأدواء — الاشتراكات — حتى صحّ فيينا قول المثل العربي: ما ينفع الكبد يضر الطحال! وعمر يشير طوراً إلى «الuarية» وأحياناً ينسى لانشغال بالله بالأحباب القساة، والحسّاد الذين يضايقون الشعراء في كل بلاد الله.

ظهر لي، من المقدمات الأربع التي صُدِرَ بها ديوان عمر، أن شاعرنا يحب النقد الصحيح ولا يغطيه، ولهذا صارحه أصحابها بكل ما عندهم، وتلك لعمري مأثرة جديدة نسجّلها لحمة مدينة العلماء والأئمة، ونتمنى أن يشاعرهم عليها كتاب المقدمات في الأقطار، فلا يجعلونها كما عودونا: نشيد الأناشيد.

فالمقدمة الأولى كتبها شاعر هو أحمد الصافي النجفي، فانتقد قوافي عمر، والثانية للأستاذ قدرى العمر الذي قال لنا إن عمر لو أراد لجعل ديوانه غريبًا كله، ولو أراد لجعله سهلاً كله. قلت: يا ليته أراد وأراحنا من ألفاظ أعقد من ذنب الضب، والمقدمة الثالثة للأستاذ إبراهيم العظم، الذي يقول: إن لعمر سرقات ظاهرة يستحق عليها الجزاء بمقتضى قانون الشعراء.

قلت: أبشر بطول سلامة يا مربع! فالجزاء عندنا على السرقات الشعرية لقب الإمارة ويقول الأستاذ العظم أيضًا: إن شعر عمر قليل الحشو، وهو يكره الضعف في القافية، ويأبى النفور، مع أنني كثيراً ما لحت في الديوان حشوًّا ونفورًا، حتى قام في ذهني أن عمر كالصافي قليل الجلد، فهو يكثر من «إن» و«ما» الزائدين وغيرهما من طفليات الشعر كقد وأخواتها، التي أراها كالحصاة تُسند بها الخابية، وشر هذه الألفاظ «سيّما» في قوله:

والقوافي خالدات سِيّما خدمة الأوطان في صدق وجد

إنها أبغض من الغدة المنడقة على الصدر. ثم هل يقول من يكره الحشو:

إن من يذكر «منها» مجدها يتولى «وهو» بالقلب الحزين
فكأن الريح لما «أن» هفت ساعة المسي شكرة الواجدين

* * *

وتركت نفسي حرة ما «إن» ترى غيد الغزال وفتنة الحسناء

إن أمثال هذه التآليل كثيرة في الديوان، وخصوصاً «إن» أكثر منها الشاعر حتى جعلني أتصورها كالزائد الدودية تحتاج إلى مشراط طبيب لبق، كما أن «المسي» وغيرها — وإن صَحَّ استعمالها لغوياً — ليست من بضاعة الشعراء.

وإِنْ تَدْقُّقْ تَرَ عمر يزج في شعره من كعابير الكلام ما يبرأ منها الفن إلى كلٌّ مَنْ يعيقر، مثل قوله: من جرًّا ذنوبِي، فوالله، لئن غفر الله له ذنبه كبيرة وصغيرة، أو مميتة وعرضية كما يعبر النصارى، ولم يستمتهل دقيقه واحدة عند الحوض، فأنا لا أعتذر له استعمال «من جرًّا» وأنزه عنها النثر، بله الشِّعر.
ويعرف عمر الشعر فيقول لنا:

وَمَا الشِّعْرُ إِلَّا أَنَّهُ تَبَعُثُ الشَّجَى لَهَا الصَّدْقُ جَسْمٌ وَالْتَّخِيلُ أَجْنَحٌ

قلت: أما الصدق فحظ الشاعر منه كبير، أما الخيال فمحظه من الحب الذي يقول فيه:

مَا نَلَتْ فِي الْحُبِّ إِلَّا مِنَ النَّحْوِ مَرَادِي

ومن أين يأتي الخيال من هام بالقدماء حتى بات يصب في قوالبهم ولا يحسن ذلك، ويريك في كل قصيدة صورهم حتى النابغية منها، ومن نوع «وما الفرات» أيضًا ... اقرأ قصيدة ذكرى الهجرة الأولى لا الثانية، فهذه ندعها للأستاذ العظم الذي أدعى أن مطلعها للمرحوم جده أسعد بك العظم، ودافع عن حقه الموروث وختمه بقوله: إن عمر أخذ ديباجًا وحوّله ساجًا.

وفي قصيدة «فيصل» يحاول الشاعر التلميح إلى حادثة يشوع بن نون البطل المغوار الذي وقف الشمس، وأبى عمر كعادته إلا أن يشرح المعنى، وعندي أنه لو تركه للقارئ الليبب كانت العاقبة أسلم، ولكن عمر أحبَ الشرح كثيرًا فتعب وأتعب، فهو يشرح لنا حتى الأملود، وقاطبة، وأخيرًا يفسر أبيه بمايس ...
وفي القصيدة عينها يتعرض لبيت أبي فراس ولا يُحسن القبض عليه فيقول:

سِيِّذِكْرِنِي مَنْ كَانَ يَنْكِرُ سِيرَتِي كَمَا الشَّمْسُ يَشْكُوْ فَقْدَهَا مَنْ تَسْكَعَا

وأبى إلا أن يستصحب حبيبته «ما» الزائدة في هذه الغزوة، فامعن في البلوى، وترك زين الشباب يبسط يد الشكوى، ويسبل دمعًا من خلائقه الكبير. وفعلها أيضًا بالنابغة حيث قال: تعدو الذئاب على من لا كيان له. مع أن «كلاب» النابغة مشهورة، وهي هنا لا تثمن.

وفي قصيده «يا طير» وهي رشيقه تمشي الهوينا، كهريرة الأعشى، وصف رجال العرب الذين حموا فلسطين فقال:

فأصبحت عندهم كالخضاب
باعوا دمامهم في سبيل العلي
فُقلْ لَمَنْ يطمع في ظلمهم

فأنصت له عَلَيْ أرى كلمة كبيرة، وإذا به يقول: «أخطأت يا هذا فُعْدُ للصواب»، ذكرني فعله شاعر العراق وفيلسوفها المرحوم الزهاوي حين قال:

من غير تعقيد وإغلاق
شعري لقد جاءكم مستنهضاً
إن كان لا ينهض شعرى بكم مِزَقْتُ من غيظي أوراقي

وطاف عمر حول لسان جميل مفتاح فمَّصَه مصًا حين قال:

أشهى إلى قلبي مهما بدا متَّلَى الأنَى مصَّي ذاك اللسان

قلتُ: أَلَا ترى معي أن في العضْ قصاصًا أوجع، كما فعل مَنْ قال قبله لحبيبه:
هذا لساني الذي أخطأ فغضيه ...
ها قد وصلت إلى صفحة ١٩٣ فأطللت على «دفنة»، ودفنة فتنة الدنيا، فإذا بالشاعر يصف لنا نفسه بدلاً من أن يصف دفنة المسماة اليوم بالحربيات، هذى مصيبي بعمر في كل سياحتي في ديوانه، فكانه النساء يذكرها طلوع الشمس صخراً، وتذكره لكل غروب شمس. أما ختام الديوان فقصيدة المتنبي لذكرى الآلف، نظمها على منوال «جلالاً كما بي فليكُ التبريرُ»، فجاءت رائعة تحليلًا وتصویرًا، على ما في الحاء من طحير وزحير في رأيي، ومن اتساع وانبساط في رأي شيخنا الأعظم الشدياق، ولكنها لم تسلم من الغرابة ميزة شعر عمر يحيى.

في ديوان عمر وثبات ولكنها قليلة، وفيه شعر ولكنه يطير من براثن قلمه ملهوًفاً مذعوراً، كعصفور أفلت من يد الصائد بالدبق. وقد رأيت أنه لا ينتهي حيث يجب أن ينتهي كما في قصيده «كلنا يبكي على وطنه»، بل ينتهي حيث تظن أن هناك شيئاً بعد كما في: «الغريب في العيد».

كنت توهمت أن اللون المحلي سيكون كثيراً في الديوان، فإذا به قليل، كما قلت لك، وإن لم يخل منه ك قوله في وصف قلعة حماة:

ولها إما تراءت في الدجى صور شتى تروع الناظرين

لا تستغرب الوصف في الدجى فحمة في الصيف تنور، وخير أوقات التفرج منها
قرب الغروب وبعده، وهذا ما أوحى إلى الشاعر ما أوحى، لا يلطف ليل حماة الحامي إلا
العاصي، أما سحرها فكما يصفه الشاعر:

محمد مزجت باللين شدته كما يلطف ليل الصائف السحر

وتحلي وصف القلعة قصيدة «على العاصي»، وهي حافلة بشعر لا يخلو من برد النهر
وسلامه، وهبّات بليلة من نسيم أشجاره، في آب اللھاب الذي كنت أزوّر حماة فيه.
وعمر يُكثّر من المعانى المبتذلة مثل: من جد وجاد، ويقطع الجوهر في السيف الفرد،
والحق يعلو ولا يُعلَى عليه، ولم يضع حق نحاه طالب ... إلخ. وهو لو ترك نفسه على
سجيتها وأرخى لقريحته زمامها — كما رغب امرؤ القيس إلى التي حرمته من جناها
المعلّل — وقال كثيراً مثل هذا البيت:

قلت والليث كليم رابض يرقب القيد بغيط وحد

وك قوله:

إذا ما أصاب الداء عضواً تحرك له سائر الأعضاء تشکو وتشرح

لست أزعم أن تعبيره الشعري بلغ الذروة في ما قدمت، فقد كان في الإمكان أكثر
مما كان، لو تأثرَ عمر، وقصيده «يا قلب» تؤيد زعمي بأن الشعر يرسل إرسالاً تحت
خفاقة اثنين: الفن والقريبة، وليس على الشاعر أن يركض وراء الغريب، فلو كان في
الغريب خير لما قال المثل: «زوان بلدك ولا القمح الصليبي». ولقصيدة «يا قلب» أخذت في
الديوان اسمها «الكافية» التي لا تفارق شاعرنا، ولو كنت ممن يسمون الشعراء لسميت
عمر شاعر الكافية والحرمان.

على المحك

وفي قصيدة فلسطين قال بيّتاً بديعاً:

تُلَكَ الْضَّحَايَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا صَوْيٌ فِيهَا لِطَلَابِ الْحَيَاةِ دَلِيلٌ

على ما في «صوئ» من صفير ويبوسة، ولكن متى حللت اللفظة محلها برأي نذمة الشاعر من بين النقاد المتنطسين. وتتر في ديوان عمر فترى تنقاً عديدة عنوانها «من قصيدة»، وهذا يدل على أن عمر يحب بناته كثيراً فلا يئد منها واحدة، إلا أن بين هذه النتف بيّتاً كاد يبكيني:

شَبَّيْتِيْ قَدْ أَوْشَكْتِيْ أَنْ تَزُولْ لَا بَدْعَ أَنْ تَشْجِيْ تَرَانِيمِيْ

أما وداع غرناطة فشعر حي لولا هذا النمش الذي يصبح وجوه الحسان على ما فيها من معانٍ، فشرط الحسن التمام. ويدهشني أن ينتقل بنا من قصيدة «ذكرى الهجرة» التي مطلعها: «ذكرى تحول لنا في نشرها عبر»، انتقال سيدنا الجاحظ من حديث نبوئي شريف إلى قصة ماجن متهتك. نعم هكذا فعل عمر؛ فقد أخرجني من جنة الهجرة الفواحة العبير إلى أقدار سدوم وعمورة، قال:

وَتَمْلُأُ مِنْ سُكْرِ الدَّمَادِ وَشَدُّوْ ذِيْ غَيْدِ أَغْنِيْ
لَا تَفْرَقْنَ أَكَانَ أَنْثِيْ أَمْ غَلَامًا كَالْغَصْنِ
إِنْ قَيْلَ أَخْلَاقَ فَوْهُمْ مَا يَقَالُ وَغَشْ فَنْ

لا يا أستاذ، هذا من الكلام النازل بالمرة، أيسّحُ بك قول البهاء زهير: فافتضنا واسترحننا. أمّا أُمِرْنَا بالاستمار إذا بُلِّينا بالمعاصي؟ أعلى رأس السطح يا سيدى؟! ليت أخانا الشاعر والأستاذ استفنى عن هذه الأبيات فليست بالآيات، ثم انتقل إلى قصيدة عنوانها «لقد قصّته» – الضمير يعود إلى شعرها – فيصف لنا نعيمه هناك حتى يقول:

كَأْنَا فِي رَبِّيْ عَدَنْ فَلَا سَكَرَ وَلَا صَحْوٌ

قلت: نعيماً يا أخي. فلمثل هذا خلق فردوس عدن، فاسرح هناك وامرح ما شئت،
وافقاً حسراً في عين الحساد والعوازل، ولا بأس عليك فأوراق التي تستر، ولكن إياك
ثم إياك أن تلتفت فيما بعد صوب البحر الميت؛ فلا ورق هناك يُستتر به.
أما في مناجاة الورد فقال أبياتاً فيها شيء كثير من قوس الشنقري الهتوف، وخيرها
حين تجاهل الشاعر فقال:

من نسمة الصبح وتشكو الغموم دمع الأسى أم سرور مقيم أو فكرة الشاعر عند الوجوم	هل تطرب الوردة في غصتها وهل قطار الطلّ من كأسها تهتز كالألحان عند الصبا
---	---

مسكين عمر! لا يه jes إلا بالأسى! وفي قصيدة «تشرين» قال شعراً، ولكنه ركَّ في آخرها حتى أرانا أوراق تشرين متناثرة أمامنا، كقوله:

هذا على مدى الحياة يمين أبكيه ما «بكى» الخدين خدين	آليت لأنسى الشهيد ومصطفى أما علاء الدين فهو أخو الصفا
---	--

ولم ينس أن يحشر «جبرين» قافية في هذه القصيدة كما بَكَاه كثيراً على المرحوم فوزي الغزي حتى أسمعنا رنينه:

ولصوت جبريل رنين محزن	تهليل ثاكلة على ميعاد
-----------------------	-----------------------

ما أرق قلب هذا الملك! وما أطوعه! فهو شريكنا في كل أجر، ولكن ماذَا يبكيه هنا؟
أَوليس المرحوم فوزي ذاهباً إليه؟ أما كان الأولى أن يفرح؟ ولكن شاعرنا لا يعرف إلا
الكآبة، ولو كان كغيره لكانه عملاً آخر، وجبريل هو أطوع للشعراء من الخاتم بالخنصر.
وفي قصيدة «بين دمشق وبغداد» مقطع جميل، وأجمله هذا البيت:

كأني في البداء فكرة حائر	تزول وتبدو بين آل وعثير
--------------------------	-------------------------

لولا غرابة اجتماع الآل والعتير في وقت معًا كما أفهم من كلمة بين.
أما رثاء نورس الكيلاني – وهو موشح – فثورة عاطفية تجيش فيها نفس الشاعر
جيشان الفرات الأخطلبي، اتبع الشاعر في موشحه هذا خطى لسان الدين الخطيب، وختمه

أيضاً: بجادك الغيث إذا الغيث همَى، وشبه الفقید بيذبل، فاجتمع له الشرق والغرب، رغم أنف كبلنگ شاعر الإمبراطورية البريطانية الذي قال: إنهم توءمان، والتوءمان لا يجتمعان.

أما الهفوّات النحوية – وإن قلَّ اهتمام الناس لها – فمنها: وإن ننسَ لا ننسى، وإن نسلُ لا نسلو، ولا الليث ليثاً بعد ما قعدت بنا، قوله:

رحم الله يا فؤادي «الآحداث يسرى ويمنى بددتها» دموعي

إذا رمت السرور فهاك «خاو» بحب الخمر يستجي الأقاخي

مر «عشرون سنيناً» وهو يجري ويكد

فهذه العشرون سنيناً تعبير غريب، ولا تقل عنها: لاه المصائب، أي الله المصائب، لأن الأستاذ درس ابن عقيل مثلي فهو لا يزال يذكر الشاهد: لاه ابن عمك ... إلخ. ولكن هذا من الشذوذ، وما أغنانا نحن عن مثله، فما لنا والعنزة الثانية!

وبالنفي أيضاً أن الشاعر يقطع الجملة العربية – أي يستأنفها – متى شاء، مع أن ربط الجمل حسن عربي، انتبه ونبه إليه شيخنا الشدياق حين قابل بين العربية ولغات الغرب فليراجع. نحن لا نطالب الشاعر باختلاس ياء العاصي، فهذا بالقياس لجبرين مقبول، ولا بد من التصريح بأنني أخشى كثيراً أن يؤدي رفع الكلفة بين إخواني الشعراء وبين هذا الملك الذي يزورنا كثيراً، أن ينادوه أخيراً: «يا جبر» ويستريحوا.

وشاعرنا يسكن أواخر الأفعال فيقول مثلاً: قضي على، وهذا خلل لا يتسامح فيه مع شاعر حموي نشأ كبشار بين شيوخ وأئمة تتذكر، متى حدثتهم، العرب الخلق، فهم جميراً يتكلمون الفصحي ولا يلوكون ألسنتهم، وهذا قلماً تجده في غير حماة العربية اللسان واليد والبيوت.

أقول البيوت وأعني ما أقول، وشاهدت إعلان كتبه الزبروئي صاحب فندق العاصي، وإليك نصه: «على الذوات الذين يأخذون الزبائن إلى بيوتهم أن يؤدوا لنا البدل، أو يشاركونا في دفع أجراً الفندق يوم الاستحقاق ...»

أَلَا يدلك هذا على أن صاحب الفندق مهَّد دائِمًا بأخذ زبائنه الذين ينتظرون بفارغ الصبر؟ أقول هذا لأنني كنت ممَّن أُخْذُوا، وكيف لا أنوه بفضل ذوي الفضل؟ فَلَيُسَعِ النطق إن لم تسعد الحال!

إن صباح العاصي ومساءه يوحيان الشعر، فأتمنى لصاحبي الشاعر عمر يحيى ديوانًا أنظر من «البراعم»، وهو فاعل في ديوانه العتيد، فقد رأيْتُ آخر شعره خيرًا من أوله، أما في هذا، وهو براعم كما سماه، فلو لا بعض حوادث تاريخية كذكرى المتتبلي مثلًا، ولو لا ومضات كنار الحباجب، لظننا شاعرنا عمر يحيى ممَّن عاشوا قبل الهجرة.

١٩٣٧ / ٢

عَبْرَ لِشَفِيقِ مَعْلُوف

١

قصيدة عدد أبياتها مائتان وثلاثة وسبعون بيتاً، أكثرها مقفى على الطراز العربي، والبعض الآخر على النمط الفرنجي العتيق، بحرها هادئ غير عجّاج، رخو قليل الحيل كالكاهن سطيح أحد أبطالها، أما عنوانينها فستة وعشرون عنواناً.

أخرجت هذه القصيدة في مائة واثنتي عشرة صفحة، منها إحدى وعشرون بقلم والد الشاعر الأستاذ عيسى إسكندر الملعوف، مطبوعة على ورق صقيل فاخر، مزيّنة برسوم رائعة أبدعتها ريشة المصور الطليلي فرنكوشيني، ولو لا تقطّع بعض الحروف عند ضبطها لسلم إخراجها من كل عيب.

موضوع القصيدة شبه قصة هذا مساقها: ينام الشاعر فيتضحّى، وتدق ساعة اليقظة فينهض — لم يذكر إذا كان تمطى أو فرك عينيه — فيرى غمامه يسير تحتها شيطانه، يقبل الشيطان نحو شقيق ويحييه، فيسأله عن مقدمه السعيد، فيخبره الشيطان أنه آت من عبر، ويدعو الشاعر إلى زيارتها، فيركبه شقيق ويطيران إلى «البلد المرصود» فيعجبه الموضع؛ يطوف بالأبراج، فيرى الجن أشكالاً وألواناً، على نسق ما أنبأنا «السنكسار» عن ظهورها لأبائنا القديسين، وكما صورها فلوبير في روايته «تجربة القديس أنطونيوس»: أقزام يركبون مطايا من يرابيع وأنعم وديوك وعظايات وقنادذ وسلامف، وإن كنت ملحاً تريد أن تفهم جيداً كيف يكون عالم الجن فعليك بالجاحظ. ونزل الشاعر عن ظهر شيطانه مرة ثانية أمام «عرافة عبر»، ومن صفات عجوز الخير هذه أنها تتزمر بتعنان، ومع هذا الزنار العجيب يرتخي ظهرها، فترتاع العرافية لرؤية الشاعر ويهز الدنيا صريخها وتسمِع الشاعر كلاماً فجأً، تدعس في آخره على ذيله؛

يغضب شاعرنا غضب فزع، أي بهدوء ولين، فيهدي شيطانه روعه — وهذه أول مرة يكون فيها الشيطان ابن حلال، محب السلامة — ويحكي له حكاية أميرة الجن اللهبانة، فيسألهما الشاعر وشهوتها التي لا تشبّع، وتغنى الجنية مشتاقة إلينا لتطفّئ نارها، وتتمنى إتعابنا وعداً بنا لتحضن وتحتضن.

وينقلنا الشاعر من عند هذه الجنية الجميلة التي أبدعت تصويرها ريشة المصور أكثر من قلم الشاعر، إلى الكاهن سطيح، ثم إلى المحرّم الآخر شق، فيسألها حكمةً فيعلمانه شيئاً كلا شيء، أي ما يعرفه مفكّر بين بين.

وينتقل الشاعر فجأةً حتى بدون «دعْ ذا» النابغة، إلى غابة الحور فيريناهنَ في أعشاش، ويقول له شيطانه: إنهم أتعبن شياطين جهنم فشكوهن إلى الله، فنفين إلى عقر رحمةً بالأبالسة، وحفظاً لسلامة دولة النار، فقد كُنْ يطفئون القيد ... وهنا يسمعنا الشاعر نشيداً كله عتب على الله الطويل الروح والبال — والعتب على مقدار المحبة — فهو الذي خلق لهن قلوبًا تحب، فكيف يعاقبهن على فعلتهن؟ ولا ينتهي حديث هذه الجنية حتى نقف «على حدود عقر»، فنرى مقبرة ولكن العظام فيها مكشفة، وما تلك إلا عظام الشعراً ينقلها شياطينهم من أقصاص الأرض إلى عقر، المدينة الأزلية. يسأل الشاعر المعلوم تلك العظام الهزيلة عن ماضيها وليليها، فيخرج من عندها بأنه لا يبقى إلا أحلام الشعراً، ويرفض أن تقام لهم الأنصاب والتماثيل، ويقول هو أو الشعراً: كل شيء بلا الحب المعلوم خراب، وهنيئاً للأرض.

هذا سياق رؤيا الشاعر، أما كيف دبر خطته بالتفصيل، وأين قصر وأجاد، فهذا ما نقوله لك بعد كلمة لا بد منها في هذا المقام.

قال الخليل بن أحمد: لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه، ونحن نطلب كثيراً لنحصل على كفاف يومنا، أما إذا صحَّ فيما المثل: «من طلب الزيادة وقع في النقصان»، فتلك مسبة، فالرجاء من إخواننا أن يصبروا علينا، ولا يتهمونا بالتعنت والتقدُّر.

جاء في القرآن الكريم: الشعرا في كل وادٍ يهيمون، وما في هذا شك، وهذا واحد منا يذهب اليوم إلى أروع الأودية، كما ذهب قبله كثيرون إلى جهنم والسماء من يوحنا وأغوضطينوس إلى أعمى المعرفة ودانتي شاعر الطليان، فإيمان الشعرا بشياطينهم قوي، حتى إن العقاد قال شيئاً فيه، فألغوى الدكتور طه حسين.

أنا لا أستكثّر هذا، فالشعراء شركاء ربنا في تدبير الكون، والمتفلسف منهم يظن أنه هو الله بعينه، وقد يقتتنع بأنه ابن عمه، أو على الأقل ابن ضيعته!

ولكي نبرئ ذمة شاعرنا من الاعتقاد بالشياطين، نروي للقارئ حكاية الفرزدق حين أفحمه الأنصاري، فركب ناقته مع الفجر حتى بلغ ذباب «جبل المدينة»، فنادى بأعلى صوته: أخاكم! «يعني شيطانه»، فجاش صدره كالمرجل وقالها مائة وثلاثة عشر بيتاً، وهي التي على الفاء، ومطلعها «عزفت بأشعاش ... إلخ». والتي يقول الرواة أنه اغتصب بيتها المشهور:

ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومنا إلى الناس وقفوا

ولما سمعها الأنصارى قام كثيراً.

إن قصص الشعراء مع شياطينهم أطول من قصص الحياة، وأخبار الجن أكثر، وللعرب في عصر وسكنها حكايات طريفة يرويها لك الجاحظ مترصنًا، فتخاله يجدُ وهو يهزاً ويمزح ويُسخر، وقد قسم هذه الطوائف؛ إذ روى عن ابن عباس قال: «السود من الكلاب الجن، والبقع منها الحن، ويقال أن الحن ضعفة الجن، كما أن الجن إذا كفر وظلم وتعدى وأفسد قيل شيطان، وإن قوي على البنيان والحمل الثقيل وعلى استراق السمع قيل مارد، وإن زاد فهو عفريت، فإن زاد فهو عقري». (كتاب الحيوان جزء ١ ص ١٤١) أرأيت أن سادتنا العباقة أرقى رتبةً من العفاريت والشياطين؟ حقاً إن الشعراء عفاريت وشياطين كبار، أعود بالله من مطامعهم!

لا يحتاج إلى كد فكر لنعرف ما أوحى إلى الشاعر شفيق موضوعه هذا، فهو أخوه فوزي، المرحوم فوزي ركب الطائرة، فلا بد أن يركب شفيق شيئاً آخر، فكان شيطانه، ورحل كأخيه في طلب الحكمـة والفلسفة، طلبها برذردين دي سان بيـار بواسطة صاحبه في الكوخ، وطلبـها المـلعـونـيـان فوقـالـفـوقـ وتحـتـالـتحـتـ، وإنـجـذـبـهـ حـذـوـالـآخـرـ فـنـحـنـ — اللبنانيـنـ — مشـهـورـونـ باـحتـكـارـ الـمـهـنـ فيـ بـيـتـ وـاحـدـ نـتـوارـثـهاـ خـلـفـاـ عـنـ سـلـفـ، وـلـيـخـافـ عـلـيـنـ اللهـ ماـ شـاءـ.

قد جعلـناـ فيـ هـذـهـ القـصـيـدةـ كـلـ وـكـدـنـاـ، فـجـئـنـاـ نـنـقـدـهـاـ مـقـطـعاـ؛ لأنـ أـدـبـنـاـ يـسـيرـ عـلـىـ دـرـبـ جـديـدـةـ، وـشـعـرـأـوـنـاـ الجـدـدـ يـطـرـقـونـ أـبـوـابـ الـأـدـبـ الـعـالـيـ، فـلـاـ يـلـيقـ بـنـاـ أـنـ نـقـفـ قـبـالـهـمـ مـكـتـفـيـنـ؛ ولـذـلـكـ سـنـقـولـ كـلـمـتـنـاـ فيـ هـذـهـ القـصـيـدةـ الـبـدـيـعـةـ لـنـرـىـ ماـ بـلـغـ شـاعـرـنـاـ شـفـيـقـ مـنـ التـوـفـيقـ. لمـ تـلـهـنـيـ فـخـامـةـ طـبـعـهـاـ وـطـرـافـةـ رـسـوـمـهـاـ عـنـ كـلـمـاتـهـاـ، فـقـدـ غـمـضـتـ عـيـنـيـ عـنـ ذـلـكـ، فـالـنـاـقـدـ كـالـأـثـرـيـ لـاـ يـسـتـهـوـيـهـ تـخـرـيمـ التـحـفـةـ، وـشـرـفـ مـعـدـنـهـاـ، فـقـدـ يـرـميـ

قطعة مزّوقة، ويعنى بصحن فخار مشروم أكثر من تمثال مصوغ من ذهب عياره أربعة وعشرون.

عبر كل القصائد فيها شعر وفيها نثر، أي شعر كالنشر، والكمال لله، وكيفما قلبتها يظل اسمها أكبر منها ككل أسطورة، والذي عندي أن الشاعر قدّم طبيخه للناس قبلما نضج، وسيندم بعد حين ويذكر كلامي هذا — بعد عمر طويل — وإن سؤته اليوم فسوف يترحّم علىَّ غداً، ويذكر بالخير إخلاصي له وللfern، فأنا واحد من الذين يعلنون رأيهم بلا محاباة، ولو سُجِّبوا من المجلس كإسحق، ولعنة الله على كل مُخارق.

إنني أرى القصيدة تمشي مشياً وئيداً كتلك الجمال، وهي لا تمشي مشياً هيناً لينأ، فإذاً أن شيطان شقيق عنيد غير رهوان، وإنما أن شاعرنا غير خيال، يأخذ الشاعر حوادثها واحدة واحدة كأنه مستنطق يبحث عن الجاني، فيخشى التقاء المتهمين، أو دنوهם من بابه لئلا يفسد التحقيق، أو كأنه رجل يزور ضيعة فيدخل من باب ويخرج من باب، والضيافة معلومة فنجان قهوة، وشيء من النقولات أحياناً؛ ولهذا جاءت عبر باردة الحركة جامدة، فلا حياة فيها ولا في أبطالها، فكأنهم ليسوا جنّاً ولا عفاريت.

عالج المعلوم موضوعاً يشبه موضوعي المعري ودانتي من ناحية، أما قال هكذا من انتقدوا، وال الصحيح من قرطوا، هذه القصيدة؟ إننا نجاريهم في هذا الزعم، ولكن شاعرنا بلا نفسه وبلانا معه بشخصه الوهمية، فلم تتحرك تحت قلمه، رغم اجتهاده وجهاده، إلا تحرك من تهور قلبه عند الحقن ونخر الإبر. استعار شاعرنا شيئاً من دانتي، ولكنه لم يعش في إقليمه، فهذه القباب والأبراج مثل التي في «مدينة الشيطان» لدانتي، وهذا النور من نارها، والفرق بين النار والنور بعيد، وحرس أبواب جهنم دانتي طغمة من الأبالسة كحرس عبر المعلوم، وبنات الشر الثلاث يصرخن صراخ «أميرة الجن» المتمردة مثل «ماريناتا» ودانتي.

ابتداً الشاعر قصيده كما يبدأ الطالب فرضه، فلا بد من أن يذكر ماذا كان يصنع قبل أن عالج موضوعه، وهكذا فعل شاعرنا، فقال لنا قبل رحلته إلى بلاد أحبابنا:

صاحب هي اليقظة دبت على
جفني فاستلانت الموطن
وعالجت بالنور بابيهما
حتى استخارت فيهما ملأ

جميل جدًا دبيب اليقظة، ولكن لي على هذا الافتتاح اعتراضات جمة؛ إنه لم يدل القارئ على شيء من خطورة الموضوع، بل لم يقربه منه أبدًا، وهذا شرط من شروط الملامح إن كانت عبقر ملحمة كما زعموا، ثم كان في مكنته الشاعر أن يتخلص من «صاحب» التي تذكر بصلاح هذه قبورنا ... إلخ. أو بخليلي مرأً بي على أم جنبد. والصورة في البيت الثاني جميلة أيضًا، ولكن الشاعر لم يحسن استعارة البابين، فركبهما لأن ليسا له، ثم ماذارأى في «استخارت»؟ فهي — بله كراهة لفظها — غلط لغوي، فليست بمعنى تخبرت كما أراد الشاعر.

أما ما قالته اليقظة للشاعر فجميل، وجميل مثله الكلام الذي قاله الشاعر لها، ولكن البيتين الأخيرين أخوا النثر:

ومن تكن حالته حالتي
لم يستعرض بالأسوأ السيئا
 وكل ما في يقطنني رؤى
ما الفرق في نومي وفي يقطنني

فقوله «ما الفرق في نومي وفي يقطنني» لا نرضى به في قصيدة نتمنى أن تكون من بنات السلامة، لو كانت من شعر المناسبات الذي يموت بموتها لهان الأمر، ولكن نظرتنا إليها أكبر وأوسع.

ويستيقظ الشاعر بعد ما تضحي، فيري شيئاً جميلاً وصفه لنا بقوله:

على الربى استلقى شعاع الضحى
يعبث فيه الأرج العاطر
فعانق الزهر وضمتها
غمامة علقها الناظر

الوجه يعبث به. ويظهر الشيطان لشاعره سائراً تحت تلك الغمامات، فوصفه الشاعر فأبدع، ولا سيما في البيت الثالث:

في فمه من سقر جذوة
منها يطير الشرر التائر
ووجهه جمجمة راعني
أنبابها والمحجر الغائر
يطل منها الزمن الغابر
كأنما محجرها كوة

ولكن في هذا الشيطان — كما وصفه الشاعر — ملامح جهنمية، فهل عبقر سقر يا تُرى؟ أما إقبال الشيطان على شاعره فكان بليداً، ثم شرع يحدّثه حديث سائق سيارة ينتظر خروج الخواجة من البوابة:

أقبل نحوي قائلاً إبني طوع لما يقضى به الأمر
أتيت والليل طوى ذيله فعمَّ صباحاً أيها الشاعر

أما التحية فلولا أنها جاءت متأخرة ل كانت طبيعية، فهذه تحية الجاهلية، ونحن فيها، كما علمت من ذكر شق وسطيح، ولكن طيَّ الليل ذيله غير مستحبة، إلا إذا اعتبرناها من لغة الشيطان — كما فعل بشار مرة — فالشيطان ذو ذَنْب كما صوروه لنا، ولا حرج عليه أن يخطر على باله.

٢

أما حديثه مع شيطانه فعادٍ: من أين جئت؟ فمن فوق أم من تحت؟ فيقول الشيطان إنه قادم من عبقر التي:

تسوس فيها الجن عرافة
ساحرة مطلسم مسحها
ترى بزجر الطير ما لا يرى
تطوي به الأجيال والأعصارا

رائع هو هذا المسلح المطلسم، وسحر البيان يدبُّ في هذا البيت دبيب الخمرة الأخطلية، ولكنني أعجب كيف تخصص هذه العرافة الجليلة بزجر الطير، ثم لا نرى ريشة واحدة في العالم الذي تعيش فيه، اللهم إن يكون الديك منها، ولكنه لا يلائم الكهنة إلا على السفرة.

ويدعو الشيطان الشاعر، إلى مجهل موغر، إلى عبقر حيث:

جن من النور جلابيها
تضطرب الأرض متى أقبلت
من كل سعللة ترى نيرا
قادفة عزيفها المنكرا

لماذا استعار لهؤلاء الجنيات ثياباً من النور؟ وهل يكون العزييف أشد هولاً في النور فتضطرب له الأرض؟ وهذا الشيطان الذي قال للشاعر منذ هنهذه: إنه «طوع لما يقضى به الأمر» قد أصبح الأمر الناهي. قل لا غرابة في هذا، فمن طبيعة أصحابنا الشياطين أن يغوا الناس ويُوسوسوا لهم، فمما قال لشقيق:

فَقَمْ بِنَا صَاحِّيلِي عَبْر نَوْمَ ذَاكَ الْمَجْهَلِ الْمَوْعِرَا

حتىرأينا الشاعر راكباً شيطانه على الجلد، بلا حزام ولا لجام ولا ركاب، عرفنا ذلك من قوله:

وَانْطَلَقَ الشَّيْطَانُ فِي الْجَوْبِي
كَأَنَّهُ النَّيْزِكُ أَوْ أَسْرَعْ
مَكْنُتَ مِنْ فَقَارَهُ قَبْضَتِي
مَنْدَفِعًا أَصْنَعْ مَا أَصْنَعْ

يعلم الله ماذا، بل ماذا يعنينا مما يصنع؟ وسافر شقيق مخاطراً بنفسه، ورأى شحنة شيطانه المفزعة ولم يضرب له عرق، لم يقل في أحراج المواقف أكثر من «راعني»، فكان أثبت جناناً من عمر في ليلة ذي دوران، غير أنه أحسَ برهبة في هوة فزاد على راعني «واهي الجنان». وسألت نفسي لماذا لم يُعد شقيق لهذه الرحلة قبل أن حميت الشمس؟ فلو وصف شيئاً من غرائب الطريق لقام له عذر، ولكنه كان في طيرانه ووقوعه أسرع من النور. قبل أن رحل دانتي رحلته العظيمة وصف لنا ربعة وخوفه، ثم غشي عليه مرات، أما شفيقنا فكما رأيته، انطلق في الجو كالسماء، ثم تهاوى ككوكب بشار بن برد، إلى موضع أujeبه كثيراً فوصفه لنا ببلغة مار بولس الذي قال بعد رجوعه من السماء: لم تره عين ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر، ما أعدد الله للذين يحبونه. لقد قال شقيق أخصر من هذا وأوجز:

ثُمَّ تَهَاوَى بِي إِلَى مَوْضِعِ
مَا رَاقِنِي مِنْ قَبْلِهِ مَوْضِعِ

وكذلك فعل في وصف الأبراج:

فِيَا لِأَبْرَاجِ ضَخَامِ الْبَنَا
مِلْءُ الثَّرَى مِلْءُ السَّمَوَاتِ

إن «جواب الكلم» كثيرة في قصيده هذه، وما عليك إلا أن تختار أنت ما يحلو لك من الصور. تصور أبراً جاً ملء الثرى، ملء السماوات، وقلْ سبحان الخالق! أما عبقر فخطّطها على:

غمامٌ زرق على متنها منازلٌ جدرانها تسقط

أشهد أنه أصاب جدًا، فالعرب يخافون الجن ويتطهرون من العيون الزرقاء، ولكن إنارة الجدران بأشعة رنتجن حتى سطعت جدرانها لا تواتي السكان الذين قال فيهم الشاعر:

أتوا ناري فقلت منون أنتم فقالوا الجن قلت عموا ظلامًا

ما لنا وكل هذا؟ فقد تكون عبقر باردة كما زعموا، وقد يكون سعر النور رخيصاً في تلك البقعة الخافية، وقد تكون الشركات في عالم الجن تهادى ولا تطعم ... ووصف الشاعر عبقر بلسان شيطانه وصفاً مفزعاً:

تثور في أبراجها ضجة
عزت على الإنس فمن حولها
جهاتها الأربع مرصودة
ما أفلت الأنسي من زعزع
بها يضيق الأفق الأوسع
أبالس الأبراج تستطلع
تحرسها الزعازع الأربع
إلا تلقى صدره ززع

ثم دخلها وطاف بأبراجها كعقيد جيش يفتح الخنادق والمكامن، وما خاف ولا اصفرَ، رأى الجن أشكالاً وألواناً:

فمن يرابيع ومن أنعم إلى ديوك وعظايات

ثم ركب شيطانه إلى عبقر، لا يلتفت إلى «أنعم» ليعلم أنها ليست من أنعم الله التي لا تكفر، لم أعرف المسافة التي بين الأبراج وعبقر، ولكن الركوب خطرة ثانية يدل على البعد، ولو لا ذلك لتمشى الشاعر وشيطانه ووصف لنا ما هنالك وأرانا ما لا نرى، ولم يجعل أكثر هذه القصيدة تحويماً وتذويماً.

وَحْوَمُ الشَّيْطَانُ عَلَى عَبْرٍ يَشْعُرُهَا بَعْدَهُ، وَحَطَّ أَمَامَ الْعِرَافَةِ الَّتِي قَالَ فِي وَصْفِهَا:

كَأَنَّمَا اللَّهُ لَدِي بَعْثَاهَا زَوْدُهَا بِكُلِّ مَا فِي سَقْرٍ

فاستعاذه بالشيطان من شر الشاعر؛ لقد غاظ قدومه العرافه ورؤي الجن. سمعنا أن الناس يخافون الجن، أما شقيق فزعهن ورهبهن فاختبان بين الشجر! أنتول إنه صلب يده على وجهه؟ أو قال في قلبه على الأقل: باسم الصليب المقدس، شرط الندامة عند الموت لريح الغفران الكامل، والذهاب توا إلى الفردوس؟ وإلا فما سبب خوف الجن الشديد؟ ولماذا تدمدم العرافه سخطا حتى اقشعر أديم الأرض تحت الشاعر؟ ولكنه كان — والحمد لله — أشد تماسكاً من بحري السينية، فاهتزت الأرض ولم يهتز، أما العرافه فانفشت كربتها في الحال، فهدأت وصارت وديعة كالحمام، وحكمة كالحيات، بيئها فلتت لسانها كل عجوز غضبانة، وعيت الشاعر بما تعي به العجائز: مكار، شرير، حية سوداء، وبكلمة مختصرة: أزرع. وإليك بعض كلامها منظوماً:

وَدَدْتُ يَا غَادِرَ لَوْ أَنْتِي
أَطْلَقْتُ شَيْطَانِي لَا يَنْثَنِي
عَنْكَ فَيَرْدِيكَ وَلَكَنِي
أَخْشَى عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ غَدْرِكَ

شعر من طراز شعر ابن أبي ربيعة المشرع، وهذا نموذج منه:

تَخْشِي عَقَابَ اللَّهِ فِينَا أَمَا	يَا ذَا الَّذِي فِي الْحُبِّ يَلْحِي أَمَا
حَمِلْتَ مِنْ حُبِّ رَحِيمٍ لِمَا	وَاللَّهُ لَوْ حَمِلْتَ مِنْهُ كَمَا
أَطْلَبَ إِنِّي لَسْتُ أَدْرِي بِمَا	لَمْتُ عَلَى الْحُبِّ فَدَعَنِي وَمَا
قُتِلْتُ إِلَّا أَنِّي بَيْنَمَا	قُتِلْتُ إِلَّا أَنِّي بَيْنَمَا
إِلْخَ

أو كما كتب تيوفيل غوتié شعراً على قافية واحدة إلى شارل غارنيه جواباً على دعوة لعشاء. ترى العرافه الشاعر شرّاً من الأفاعي وأشد غدرًا ومكرًا، وقد أخطأ الشاعر حين قوله:

ليـسـ هـذـاـ الصـلـ بـالـأـفـعـوـانـ

على المحكُ

بل أنت يا إنسان!

فالصلُّ كما عرفه القاموسيون أخبت جًّا من الأفعوان، وإن كان اسم الأفعوان أطول. وما أظن الجاني هنا إلا القافية، وكم بذمة هذه الجارية من ذنوب! ثم ماذا نخسر لو ألسقنا هذه الخطيئة بالحياة ولعنَّاها، فهـي التي أدخلتنا اليوم والأمس في التجارب؟! وبـلسان العـرافة أفهمـنا شـفـيقـ أيـضاً أـنـ الجنـ أـشـدـ إـيمـانـاً بـالـلهـ مـنـا:

جعلـتـ نفسـكـ أعلىـ فيـ الأرضـ منـ ربـكـ

وبـعـدـ أـنـ تصـمنـناـ العـرـافـةـ بـحـبـ الذـاتـ وـأـكـلـ الـأـمـوـاتـ –ـ وـهـذـاـ النـعـتـ الـأـخـيرـ يـلـيقـ بـالـشـعـراءـ –ـ تـتـبـأـ لـلـإـنـسـانـ أـنـ لـيـسـ خـلـفـ ضـحـاهـ إـلاـ دـجـىـ لـيـلـهـ.ـ حـاـوـلـ الشـاعـرـ أـنـ يـعـالـجـ مـسـأـلـةـ الـخـلـودـ الـهـرـمـةـ،ـ فـتـوـسـلـ إـلـىـ ذـلـكـ بـغـسـالـةـ مـنـ الـمـلـوـقـاتـ كـشـقـ وـسـطـيـحـ،ـ وـغـيرـهـماـ مـنـ جـنـ وـحـنـ،ـ فـأـسـاءـ إـلـىـ الـفـلـاسـفـةـ الـذـينـ يـحـلـمـونـ بـحـيـوـاتـ أـخـرىـ –ـ لـاـ أـدـرـيـ كـيـفـ أـجـمـعـهـاـ لـأـرـضـيـهـمـ،ـ وـكـيـفـ تـجـمـعـ وـاحـدـةـ غـيرـ كـامـلـةـ؟ـ –ـ وـيـرـونـ الدـوـدـةـ مـنـ قـرـائـبـهـمـ،ـ وـيـقـولـونـ لـلـغـرـابـ لـبـيـكـ،ـ كـمـاـ فـعـلـ قـبـلـهـمـ بـهـالـيـلـ الصـوـفـيـةـ.

ثـمـ تـجـبـ الـعـرـافـةـ خـاطـرـنـاـ فـتـقـولـ إـنـ الشـعـراءـ يـحـكـونـ آـلـهـةـ فـيـ السـمـاءـ وـلـكـنـهـمـ يـظـهـرـونـ غـيرـ مـاـ يـبـطـنـونـ،ـ وـعـبـرـتـ عـنـ هـذـاـ بـكـلـامـ نـاـشـفـ مـثـلـ وـجـهـهـاـ:

فـهـاتـ حـتـىـ نـرـىـ مـاـ خـبـبـاتـ مـنـ هـوـلـكـ
يـاـ اـبـنـ السـلـامـ إـنـاـ مـاـ دـسـنـاـ عـلـىـ ذـيـلـكـ

وـقـدـ وـضـعـ الشـاعـرـ «ـعـلـىـ»ـ بـيـنـ هـلـالـيـنـ ظـلـانـاـ أـنـ التـعـبـيرـ عـامـيـ غـيرـ فـصـيـحـ،ـ وـقـدـ قـالـ مـثـلـهـ الشـنـفـرـىـ أـخـشـنـ الـجـاهـلـيـنـ فـيـ بـيـتـهـ الـمـشـهـورـ الـذـيـ اـسـتـعـانـ بـمـفـرـدـاتـهـ الـمـجـمـعـ الـلـغـوـيـ الـمـصـريـ لـخـلـقـ أـلـفـاظـ جـديـدةـ:

دـعـسـتـ عـلـىـ غـطـشـ وـبـغـشـ وـصـحبـتـيـ سـعـارـ وـأـرـزـيزـ وـوـجـرـ وـأـفـكـلـ

وداس تحمل على دعس فتعدى بعى مثلاها، وبهذا الختام حطّ العرافة الشاعر من
مصف الألهة إلى جماعة لا أسميهما، فاستاء شاعرنا وقال لشيطانه:

شيطانٌ شعريٌ قُمْ بنا نرتحل عن هذه الأرض وغيلانها

فطمأنه الشيطان ولهاه بأغاني «أميرة الجن» المنسوبة، وعندي أن «حسرة الروح»
أحد العناوين الستة الكبرى المتضمن: أميرة الجن، والشهوة، وأغنية الجنية، خير مقاطع
هذه القصيدة. فهذا المقطع عاطفي، وشفيق لكل شاعر عربي يجيد بسط العاطفة
أكثر من وصف المحسوسات، فقال وقلت، ورح وتعال، وما أشبهها من نظم الأخبار
تركها العرب وحايدوها، ولهذا قلنا في صدر هذا المقال: إن المصور أجد رسم أميرة
الجن أكثر من الشاعر الذي لم يتعد حدود الخيال العادي: الشمس كورت من حلقات
النور أضلاعها، رمت إلى الأرض أujeبة، شفافة كالنور، فجاءت هذه المخلوقة في شعره
كالمقول عنه في قانون الإيمان: نور من نور.

وأرانا الشاعر هذه الجنية تحصد الهواء حصداً يثير ويفتن، وإن بدا لنا كما تروي
أساطيرنا من مظالم فرعون:

ثم أراها وهي مأخوذة تطوي على ما لا أرى باعها

فالشهوة التي لا تروي تقييمها وتقعدها، فتتلوي كحبة فوق ملة، لا تدرك الجسد
لتتشبع فهي جائعة ثائرة صاحبة، وتغنى فتقول لنا:

هل أنا إلا ذرة من ضياء هل أنا إلا زفراة الله قد
صعدَها فوق قباب الجلد فلم تزل لاهبة في الفضاء

لا تتمنى هذه المسكينة إلا نقطة من ماء الحياة تطفئ لهيبها، فهي تريد أن تعمل
مثل الناس ولا تقدر، فقلبها محروم، خبرتنا أنهم هناك لا يتلذذون ولا يتنعمون مثلنا،
فالأرواح في دنيا ممالك الأرض وما عليها كقطع الغيم تضمحل متى تعانقت، ولا تثبت
للعراك البشاري المغازل الأشر.

ويفيض الشاعر في وصف تحسّر الجنية على ملذاتنا التي يسمّيها القليلو الذوق مناً «بهيمية» وهم ثمرتها المباركة، ثم يخبرنا بلسانها أيضًا أن النعيم المقيم مضجر. هذا — والله العظيم — شعوري، فأنا خائف من الآخرة وخلودها الهادئ الرصين، أنا خائف جدًا من رؤية الكاروبين والساروفيم، والملائكة وأجدادنا الآباء الإبرار والصديقين الهبيين الذين لا يحاولون ولا يزولون من وجهنا، ولكنني سأتكل على الله — سبحانه وتعالى — وألبي الدعوة. وأخيرًا أرانا الشاعر بلسان جننته هذه أن كل الصيد في جوف الفرا، أي كل اللذة في الجسد، فقال:

ما نفع روح خالد عشت فيه ما زلت لم أحضر ولم أحضرن

لا نجادل شاعرنا في هذا؛ لأننا لا نعلم ماذا ينتظرون هناك، فالقول مختلف. نعم، لا نجادل لئلا يصيبنا ما أصاب ذلك الفلكي الذي نظر إلى النجوم فسقط في الحفرة. ولا تنتهي «أغنية الجنية» حتى يسلمنا الشاعر إلى «حكمة الكاهن». إن هؤلاء المحترمين هم هم، كما في السماء كذلك على الأرض، هذا سطيح وصفه شاعرنا وصفًا حسنًا كما تخيله العرب، وجعله لحًما بلا عظم كما يقول في البانجان من يحبونه، وزاد عليهم المحيط الجهنمي حتى حيرتني عبقر هذه، ولم أهتدِ إلى حلٍ لها أحسن من تشبيهها بالملطهر.

وهناك أيضًا الكاهن شق، وهو في نظر شاعرنا أعظم من سطيح، ومغارته — إن جاز لي الاعتراض على المصور — كأنها صنع يد ماهره، فلما أن الكهوف الإيطالية غير كهوفنا، وإنما أنه رسمها بدبعة هكذا؛ لأن بناتها من أولئك الذي بنوا تدمر بالصفاح والعمد ... وشق جالس على باب مغارته كالخيثور — جني كنيته أبو هدرش — في رسالة الغفران.

وقف الشاعر ببابي الكاهنين الجليلين يصيح:

يا كاهني عبقر هل حكمة أعدها للغد بين العدد

فَلَبِّي سطيح وافتتح الحديث كالكهنة بالدعاء، فقال للشاعر:

أقالك الرحمن من عثرتك
هيئات أن يردعك الزاجر ما لم يك الزاجر من حكمتك

إنها لحكمة أقدم من الخبز، والبيت ممسوخ — كما عرف ابن الأثير السرقات
الشعرية — وهذه صورته الأصلية:

لا ترجع الأنفس عن غيّها ما لم يكن منها لها زاجر

وقد شوّه شفيق الكلام بنسخه «ما لم يك الزاجر» فتركت النون هنا لا يجُوزه النحاة.
ويخبر سطيح الشاعر أن الله حين خلق الأنام خصّصه هو — أي الكاهن — بمنتهى
رحمته، فسلّ عظامه «وملأ الفراغ من حكمته» كما يفعل الطاهي الأستاذ بالسمكة
ليقدمها مع الأدام بلا حسك، في المآدب العبرية. أما الحكمة التي يقول المحترم إن
الله حشّاه بها فهشة كالصوفان: الرياح تنام، ويعقب الليل الصباح، وتختلف الشمس
الشعب، والخلق حمقى وأغبياء، يجرون كالعميان خلف القدر، وفوق رءوسهم سيف
القضاء، وتحتملهم الحفر، وسطيح قابع في مغارته على عرشه الذي يخلد، وإنه ولـيـ الـدـهـرـ
ظـهـرـهـ فـقاـبـلـهـ الـدـهـرـ بـالـمـثـلـ.ـ كان سطيح شاعرنا والدهر كجارية المعرى التي حملت ابن
القارح «زقونه» ليجوز الصراط، أما الحكمة الخالدة التي راح بها الشاعر من عند
سطيح ليعدها للغد بين العدد فهذه هي:

الحكمة الحكمة في بسمة تمخض الهزء بها في الشفاه

لقد أضحكني هذا الكاهن الذي يوصي بالابتسام وهو أمرط كالوطواط لا مبسم له!
وإن كان هذا سلاحه في حرب الدهر، فلماذا صوره الشاعر يشك في وسطه «مدينة نار
غمدها من دخان»؟ وأغرب من هذا استعارة التمخض للهزء والشفاه؛ إذ لا بد للتمخض
من طحير وزحير، وليس مخرجه من الباب الفوقاني، ناهيك أن الهزء يرتجل ارتجالاً.

أما شق فيقول إنه نصف إنسان «وقد شقَّ من أعلى إلى أسفل»، ولكي تتصوره جيداً تأمل القصاب حين يقد الذبيحة على الدودة، وشقُّ هذا - كأختوه بالرب - يحمد الله على كل حال، فكأنه يقول بلسان داود: الربُّ نوري وخلاصي فمَنْ أخاف؟

أفجز فوق الأرض مثل القطا
والله يهديني سواء السبيل
لو شئت أن أعلو أو أهبطا
أعلو بجيل ثم أهوى بجيل

إنه ينط هذا النط وهو شَقَّة إنسان، فكيف لو يكون مثل الناس؟ وشقُّ كما بدا من كلامه مسيحي لا غش فيه، وشعاره: إن شكتك عينك فاقلعها، أو يمينك فاقطعها. وهو وإن نطق من نصف لسان وفم، فقد بلا دهره ولم يصل إلى الحكمة لولا السكوت، ويكيه قلب نصفه نَيْر «لا كان قلب نصف أسود»، أما الحكمة التي زُوِّد بها شاعرنا فهي:

سبحان ربي وهو رمز الكمال أني لولا النقص لم أكمل

لو قال المثل: «القرد في عين نفسه غزال»، لقلنا صَحَّ في شق، ولكن الأمثال لا تتغير عن مواردها، أما حكمة شق فتنقض فلسفة الشاعر التي وضعها على لسان العرافة، ولو تأملها لردعته عن تعنيف الإنسان وسخطه عليه.

ومن حكمة الكهان الملة ننتقل إلى «ثورة البغايا»، والضد يظهر حسن الضد، فترى في «غابة الحور» أعشاشاً مطينة بفتیت المسك، والحور فيها عاريات شُعث الشعور، طبقاً للمثل القائل: «شعرها منكوت مثل الجنية»، وما رأت الحور الشاعر حتى فرنن ووقفن منه بعيداً يغمزنه، فعرف فيهن بنات الفجور - هن هن في الدنيا والآخرة غمازات متشيطنات - ويعن الشاعر في تصوير نهودهن وتشبيهها:

هل النهود البيض أصنفتها
من نتف الغمام فوق الصدور
أهي من الفجر بقيّات نور
والنقط الحمراء في وسطها
تؤجُّ فيها جمرات التغور
أم بقع منذ عناق الهوى

فولاً «الصقنها» في البيت الأول التي أرتنا النهود ملزقة تلزيقاً، لتمَّ له ما اشتتهى من فن رفيع، ويخبره شيطانه أنهن ثُرْنَ على الله وأبِرْمَنَ الجهنميَّين، ولذلك «زَجَّ بهنَ الله في عَبْرٍ»، وهذا أحْتَجَ باسم صاحبي جبرائيل، فشفيق جعله خازنًا للنار أو وقادًا لجَهَنَّمَ، أو لا أدري ماذا، بقوله:

إن ينفض الرجوم عن سيفه
جبرين قهقهن لجبرينا

قلت لا أدرى ماذا، لأن هذه «الرجوم» مضطربة مثل اضطراب الأسطورة، فجبرين بشير سلام، ورسول خير، طرقته دائمًا صوبنا لا صوب عقر، فهو لا يعرف درب جهنم. أما وزير الحرية في ملوك الله، وقامع ثورة الملائكة، يوم تمردوا على الأب الأزلي، فذاك ميخائيل رئيس الملائكة، هذا هو رب السيف الذي وطد دعائم العرش السماوي، وبلانا — نحن البشر — بإخوته الذين طردوه من الفردوس، فأي بأس على الشاعر لو صبَّ اسمه في قالب حرين فصار مixin، وسلم التاريخ؟!

أما مادا قالت البغایا في نشیدهن فملخصه: إنهن فراشات صرفن أزمنة اللهو كما ينبغي، وأقبل الليل وأطفأ الأحداق فتركتن الجسد مدائساً تحت أقدام العاشقين، وهن لا يأسفن على الكأس المحطمة بعد شربها – كما فعل بشاره – ثم احتججن لثورتهن على الله بأنه خلقهن للهو، وحاء بعاقبتهن عليه.

المقطع حسن — يا أخي — فاقرأه، إن هذا المقال لا يتسع لكل شيء، وما علىَّ أنا أن أمضع لك، جرِّب أنت أضراسك ومعدتك، أقول لك هذا ولا أحرمك شيئاً منه، فاسمع:

عسفاً فلم نصبر على عسفه
وحيث العذاب من خلفه
بجزية العبد إلى ربها
وراح يجزينا على ذنبها

وإنْ تقل لِي وهل يخرج هذا الكلام عن قول الشاعر القديم:

لألك أنت تبلو العاشقين
إلهي ليس للعشاق ذنب
به تسبي عيون الناظرين
أتخلق كلَّ ذي وجه جميل

وتأمرنا بغضِّ الطرف عنه كأنك ما خلقت لنا عيونا

قلتُ لك: ما غادر الشعراً من متقدم ... وبعد «ثورة البغايا» يأتي «العقريون»
فيجعل الشاعر محلّتهم مقبرة على حدود عبقر، كما جرت العادة بالمقابر في عالمنا هذا،
ولأمر ما خطط أبو العلاء للحظيَّة كوحاً في أقصى الجنة وقال: إنه لم يصل إليه إلا بعد
هياط ومياط، فهل من يقول لي لماذا جعل شقيق الشعراً رفاتاً، ولم يهبهم الحياة في
عبقره؟ ولماذا رأهم رمماً وجمامج باليات؟ أليسأل شيطانه عنها ويقول لنا:

فقال لي وقد لوى ضاحكاً هذا الذي تلده الأمهات

إنه لجواب شيطان مگار، ومن حقه أن يقهقه ويستلقى على قفاه، لا أن يلوى
ويضحك فقط، ولكنه كان رفيقاً بصاحبِه هذه في الرحلة بجملتها. أما أنا فما ضحك،
بل أحسست باشمئاز كثير حين رأيت الجرز والفار والجماجم والعظم المبعثرة. أما
حديث الشاعر مع هذه العظام النخرة والجماجم المكشّرة، فكلام خوري يعظ محدداً
أولاده المباركين عن الموت والدينونة، وكذلك جوابها حين صاحت لتقول كأليوب في بلواه:
الربُّ أعطى والربُّ أخذ. ثم ينهي الشاعر عن إقامة التمايل للعقريين كما فعل موسى
من قبل فقتل الفن، فقال بلسان الشعراء:

أحلامنا نحن فُقلُّ للألى شادوا لنا الأنصاب إكباراً
أحلامنا كنَّ لطافاً فلا تصيروا الأحلام أحجاراً

وهل التمايل حجارة؟ لا يا أستاذ، فكم من تمثال صيغ قصيدة، وكم من قصيدة
جعلها الفنان تمثلاً ناطقاً، الفن شعر حيث كان، أما ما يريد شقيق لزمائه فهذا:

لكنَّ مَنْ يهزُّ مَنَا الرفَات
فهو الذي كلَّ أمانِيَّ الحياة
يفترُّ في ثغره
وكلَّ ما في الأرض من ذكريات
يغفو على صدره

لا تستطِيب النجوم
غير تهاليه
وليس تبكي الغيوم
في غير منديله

ترى هل تمنع التمايل هز الرفات وبكاء الغيوم في هذا المنديل الذي هو كجزء
جدعون المحكي عنها في التوراة؟!
أما الفلسفة الكبرى التي عاد بها الشاعر من هذه الرحلة السنديادية، فهي أن الحب
المعروف هو كل شيء:

فالأرض إن كانت حبّما له وكان فيها تهناً الأرض

هذا رأي الناس حتى عوامهم، ولذلك تراهم يقرطون الترميم المنقوع حين تكُلُّ أضراسهم عن تكسير اللوز، فليت الشاعر خلق غير هذا الفكر المبتدئ، فقد أتعب قلبه، وأجهد قارئه ليقول له ما يعلم، يا ليته غنَّى له — كما يفعل المسافر — لينسى مشقة هذه الرحلة العمشاء، بل ليته لم يجئه بهذا الوزن المخلع الذي لا يستطيع المسيح أن يقول له: أحمل سريرك وامش. كنا نتمنى أن تكون عبقر المعلوف قهوة يلهو فيها العباقة، لا مقبرة تتبعثر فيها بقاياهم، كنا نتمنى أن تكون عبقره مثل قمم ألف ليلة وليلة، تنشق عن مارد ينطح رأسه السحاب ويسد زوله الفضاء، ولكنها جاءت بالعكس: الإطار أعظم من الصورة، فكانت كالأرض، في سفر التكوين، وما هكذا تنظم الأساطير.

ولاشقيق فلسفة أخرى تسود قصيده، وهي أيضاً مما ي قوله عامة الناس: الإنسان شرير خبيث لأنه يسيء، فكأنه لا يعلم أن الحياة كذا خلقت، خلق فيها الشر والخير تواعدين معدتهم واحدة. قال شاعر عربي أظنه بشر بن المعتمر في الحيوانات الضارة:

وكلها شرٌّ وفي شرّها خيرٌ كثيرٌ عندَ مَنْ يَدْرِي

فماذا عسانا نقول في الإنسان؟ إن الحياة لذيدة، فلنعش هذين اليومين بلا فلسفة، فالفلسفة تطحل الناس، الدنيا حلوة وزيتها الإنسان، ولو خلت منه لصارت كعقر المعلوف. ولو صار الإنسان خيراً بلا شرّ، أو شرّاً بلا خير لصار كالخالدين الذين وصفهم الشاعر، «لُو كان الشُّرْ صَرْفاً هَلْكَ النَّاسِ»، أو كان الخير محضاً سقطت المحنة، وتقطعت

أسباب الفكرة» إلى آخر ما يقول الجاحظ (الحيوان ص ٩٥ جزء ١٠) صدق جاحظنا الجميل.

الحياة في نظري بحر، وخير ما في هذا البحر مده وجزره، فما أكره هذه الفلسفة السوداء، فلسفة الغاضبين على الحياة وسيدها الإنسان! وبعد، فليقل الشاعر ما شاء فهو حُرٌّ في خلق عالمه، وليس لنا أن نسأله إلا عن «الحياة» فيه، وهذا ما فعلناه في مقالنا الأول إذ وصفنا بإيجاز أشخاص عصر.

أما لغة القصيدة وتعابيرها فلا تحيد عن خطبة القدماء، بَيْدَ أنها خالية من الكلام الوعري، وإن كان فيها كثير من الرواسم، فقد يكون الحوار أحوجه إليها، ولكنه كثيراً ما أنطق أبطاله بالألفاظ لا يعرفها رفاقهم، فجاء الكاهنان كأنهما من أئمة وقسيسي هذا الزمان.

وخلصة القول أن عقر قصيدة عادية مبني ومعنى وتصوّراً، تزيّنها فلتات تدلنا على الشاعر المرتجم خيره، وهي — على قلة حظها من الخلق — ستظل وجيهة إلى حين، يتبلّ بعضها بعضاً، وحسبها هذا، فقلما رأيت شاعرها يفعل كغيره من الشعراء الذين يترجمون البحور الشعرية بألفاظ مهيأة كأنهم يذكرون حفرة. إلى الإمام يا شفيق، ولا تقنع بهذه، بل هات في الغد قصيدةً أكبر من اسمها.

هريستي وزبوني

شاء صديق لنا أن يدافع عن «عقبر وصاحبها»، فكتب فصلاً ذكرنا بقول ابن القارح في مخاطبته المعرى: «فاعجبوا من هريستي وزبوني». إبني أشير على الأدباء والمتآدبين أن يقرءوا ذلك المقال الكيّس، ليتعلموا أساليب الرد المدملك، والنقد المذلك، وخصوصاً «الأدب» بكل ما تحمل هذه اللفظة من معانٍ.

طرح صاحبنا شبكته في حوضنا، فخرج له أخطبوط وتوتيا وسراطين، وغير ذلك، وفزنا نحن منه «بالأسماء الحسنى»، سبحان من هي له! فاسمع بعضها، جل شأنك: مجنون، سطحي، ضيق الصدر، بليد، منهوك الأعصاب، فج غير ناضج، حجر، مكشر ... إلخ. فأنا كما نعترى هذا الكامل وزيادة، فمن سمعني قلت إبني فرفور، وكيوسف الحسن في الجمال والبهاء؟

الخلاصة ما خلّ صاحبنا ولا بقى، وكأنه استحب أن يخلع على لقب سمّي مروان الجعدي، فقاله بمعناه لا بحروفه، وهو لو فطن لكان تهجّاه كما كنا نفعل صغاراً. رحم الله طريح بن إسماعيل الثقفي الذي قال: «عقول الرجال تحت أسنان أقلامها». ولكن شيئاً من هذا لم يكن، فجل ما فعل صاحبنا، إنه حاربنا بسلاحنا، فمسخ صورنا، ناسيأ قول المثل: الحديث المعاد، والطبيخ المزاد ...

قيل: سأل البختري ولده أبا الغوث، عن الفرزدق وجرير أيهما أشعر، فقال: جرير. قال: وبِمَ ذلك؟ قال: لأن حوكه شبيه بحوكه. قال: ثكلتك أمك، أوفي الحكم عصبية؟! وإلا فلماذا يكتب بديع زماننا بالسس؟ هل ظن جلي متنسحاً؟ قيل لي إنه مسخر، فكدت أصدق، ولكن قوله «إبني لا أجد حسنة في الأحياء، وأجدتها كلها في

الأموات». نَمَّ عليه وذكرني ما كنتُ نسيته. لهذا قصة ستذاع في حينها، وفيها خير كثير عند من يدرى ويُعنى بالأدب، فكثيرون منا يرون أنفسهم دنيا المتقدمين والمتاخرين، قُلْ:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

ولهذا لا نحمل حقدًا على أخينا كما خشي، ومَنْ يحقد على الدنيا جميًعا ... كان من المجانين.

عاب على أخي نقمي النحو واللغة فلم يستغرب هذا، فكلنا يعلم أنَّ من يعجز عن مَصْنَع العظم يستطيع الحريرة، غفرانك اللهم، أَنَا «مغربي» لِأعالِج الأدب بالبخور القاطع، والبخور المانع، والبخور الشافع، والمارار الهندي؟ ثم اخْضُض الدواء قائلاً للمريض: اشرب وتوكِل على الله، وادْعُ للحاج إبراهيم!

إننا ندع هذا «للغارية» الذين يحملون الأعشاب بالخرج، وينادون في الضياع: دوا للعين، دوا للحبَّة، دوا للربَّة». أما نحن فلا بد للمريض من أن يزور كل مختبراتنا، فهناك فحص الدم وتحليله، وتصوير العليل، ودرس السلالة، فللإرث عمله في الأدمغة كما نعلم، ومَنْ لا يصبر على هذا فلا يشرف محلنا. لا ننكر أننا نلْجأ إلى الفصاد إذا رأينا «الضغط» عاليًا، ثم إلى الكي إن كان آخر الدواء، فلا صديق ولا خليل في المختبر.

إن «مبذرنا» يفحص إفراديًّا، والبذرة المذرة غير الصالحة للتفقيص تُنْفَى خارجًا، فالنقد «الصخور» لا يحركهم إلا ديناميت الفن، وإن صدق ظني فعندني منه على الرُّفَّ، ويومئذ يرى هذا المُحَبُّ أننا لا نجُنُف عن طريق الحق، نرْذل الأحياء الأموات، ونمجّد الأموات الأحياء.

فهذه الهيصات والهمرجات، وحُكُّ لي أحَدٌ لك، تذهب مع الهواء السارح، فمهما دافعنا عن أحبابنا فهيهات أن نرد قضاء الأدب فيهم، وإن وقيناهم فإلى حين كما يعالج الطبيب تهُور القلب. لسنا نلعب بالسيف والترس، وليس النقد تهريجاً وبهلواناً وألعاباً كالتي يقوم بها داهش وسالمون ... إن إماممة الأدب لا تؤخذ بالدعاوة والأنصار، وما هي بيعة مساء. قد يصير الرجل الخامل ملگًا أو إمبراطورًا أو ديكتاتورًا، أو بابًا كما حدث ويحدث في التاريخ، أما أن يصير أدبيًا معذوبًا، أو شاعرًا كبيرًا، فهذا لا يأخذه إلا بحقه، أما حقه فالابتداع، فمن أراد أن يدخل ملکوت الأدب فليبدع، إن الصنوچ والمبادر لا تفتح بابه لأحد.

لا يكون النقد والرد مهارشة، والسب والشتم لا يدحضان حجة، فدانتي أفهمنا في أول سطر ما سوف يعترضه من أهواه، أما الشاعر شقيق الملعون فاستعار ابتداء الخيام، ولكن ابتداء الخيام يدل على مذهبة، وكلام شقيق أتبأنا أنه سيكون خياميًّا، فإذا به يصير كمار بولا أول الحبساء.

هذه الكلمة وحدها استحقت هذا الرد، ولن نجيب — فيما بعد — إلا من يقرع حجتنا بالحجية، فعمرنا قصير والعمل كثير، نريد أن نفتشر عن الأدباء الحقيقيين لنجليتهم على كراسיהם، وتُقْصِي مَنْ لا يستحقون الوقوف في الدار، هذا كان في نيتنا، ولا يزال منذ احترفنا النقد.

وا عجبًا! بل ألف وا عجبًا! كيف يفرقون والمكاوي بالنار؟! يهولون علينا بأسماء أجنبية طويلة، كأننا نخاف من طول أسماء الأعلام وغرابتها. إن شيء الغريب حلو، كما يقولون، ولكن في عين غربنا، أما نحن فنحترم هذه المخا خ الكبيرة ونجلُّها، إننا نزورها كغيرنا لمستير لا لأنخذ، فقد نسایرها وقد نعارضها، فلها كلامها ولنا كلمتنا، والحكم للتاريخ. إننا نشتغل للدهر العتيد، ولخدمة الجيل الجديد، نشتغل على الكبار لنهدب الصغار، فقلْ: رب لا تجعلني عبَّةً لغيري.

إنني أسمع وأنظر وأقرأ، وأقول كلمتي — كما تفهم بلادي وبلاهتي — فإن اعوججت فحسبهم أن يقوّموني لا أن يصارعوني ويناطحونني، لهم أن يسخرُوا بما أكتب ما شاءوا، أما شخصي فليعوا عنه كرمًا ولطفًا، وهبْ أنهم فعلوا ذلك فلا بأس عليهم، فأنا أحمل خشبي منذ سنوات فلا أحد من يصلبني عليها ... وعلى كل فالشكر لنقد عابر الذي نفَّسَ عن هذا الوعاء وإلا لكان انشق.

محصول الشهر

لن ننقى محصول الشهر كعادتنا بل نجوله جولاً كما تفعل أم العيال حين تفرغ خليتها ويستعجلها مكاري المطحنة.

كان بعد ظهر السبت الأسبق مشئوماً، فما بلغت العاصمة حتى قطع عليَّ الطريق بائع صحف يرغبني في شراء «الحديث»، ثم ماشاني ملحاً ملحفاً كأنه من خريجي مدرسة الحطيئة، أو كأنما له عندي ثأر. استعففيت فأبى، خبرته أن محرريها أصحابي وأنها تأتيني كل يوم، فزاده اعتذاري تشددًا وأراني قصيدة من نظم فحل الساحة حليم دموس، وشوقني إلى التمتع من شميم عرارها قبل المساء، وما بعد العشية من عرار، والتفت لعلّي أرى من أستعدديه، فلاح لي خبيث لاطئ بالجدار يكركر في الضحك، فعلمت أنه غريمي الذي عبث بي هذا العبث، فتصافحتنا وانتهى المشهد الأول.

وأزفت الساعة الخامسة، فشهدت مجمع أمين تقي الدين في مدرسة الحكمة، فإذا بالشعراء ارتفعوا عنه ولم يبق في الميدان إلا سعيد عقل، فسمعت أبياتاً طيبة أنسنتني بعض بلوتي بقصيدة ابن بلده شاعر البردوني. وركب المنبر الأستاذ السودا وألقى خطاباً عدّ في ختامه نوابغ لبنان، علمانيين وإكليريكيين ولم ينس إلا شيخهم الشدياق، فأدركت أنني أغنى في الطاحون ... أما إذا كان الأستاذ المدْرَه قد تقنَّ بقول الحريري: وألبس لكل حالة لبوسها، فهذا شأن آخر!

وانصرفت إلى حيث واعدت رفيقين صديقين، فالتفتنا حول الطاولة كيوم كثاً في المدرسة، ولكننا لم نتهنأ بذلك المجلس؛ جاءتنا قصيدة حليم دموس، وأبى ظريف إلا أن يطربنا بمطلعها:

فتاة على جمر الغضا تتقلب أليس لها يا قوم أم ولا أب

فقلت أعود بالله من شر شيطانك يا حليم، إن فتاتك هذه مثل سفود النابغة الذي نسوه عند الشواء، قد صارت هذه «الفتاة» شاورمة! إن استفهماك من نكتتها. ظن الخادم أنتا نطلب «شاورمة» فجاء بصحن منها، وهذه أول مرة يطعمنا النقد! تعود القوّالون أن يحملوا الريح سلامهم، أما حليم فجعل الشعر مرساله ووجهه صوب الحجاز والعراق ومصر و... و... ولا عجب فشعر حليم من حوامل الأنتقال التي حلّت بساحة ابن رجاء.

أما النكبة بهذه القصيدة فقد كتبت لسماحة المفتى الأكبر ضيف لبنان، ولا شك أنه استقبلها بصبر جميل مردداً قوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾. أما أنا فتمثلت عند حلولها بقول الشاعر: «كان الذي خفت أن يكوننا»، قلنا: خلت الجبهة الغربية من الأبطال – جبهة شعراء المناسبات – فإذا بهذا القرم العنيد يكشف عن رأسه متمثلاً بقول ابن العبد: إذا القوم قالوا مَنْ فتى ... ولم يسقط عنا هذا الحمل حتى قال أحدهم: وحليم قال قصيدة عصماء في حماة، ثم صفعنا بمطلعها:

لاحت على ضفة العاصي ربوع حما فانزل بساحتها تنزل بخير حمى

فقلت: أهو حمل كوسا وباذنجان؟ وأردت أن أقول شيئاً آخر فسبقني، وقال: اسمع قوله في مدح السيد موسى عزيز، أحد أركان الجالية الحموية المحتفى بهم. قلت: قُلْ يا أخي، قُلْ! ليلة مشئومة! اكتمل النقل بالزعرور! فقال:

سميه موسى كان الصخر فجّره ماء وموسى يفجر ماله ديمًا

قلت: هذا الذي يتكلم شيطانه بالهنديّة لا ذاك الذي خبرنا عنه علم البلاغة! حتّى متى يقرّزم حليم؟ والله لا أدرى، ومتى تتحنّن عليه ربة النظم؟ العلم عند الله، كنتُ أسمّأتُ الظن بالراوي ولكن جريدة الشباب الطرابلسية أثبتت هذا الشعر المطهّم الذي استولى على أمد الركاكة فصحّ الصحيح وانقطع الرجاء. فإلى القوّالين ننعي المولايا والدوبيت والدفن في الحازمية «أنفاليد لبنان».

وأشفق على رفاقي لأنّي في حميّة أوجبها على الدكتور الأمير رئيف أبو اللمع، فذفّعوا عنّي، وأنا من لحم ودم؛ أسمّعوني قصيدة القاضي الشاعر مراد أبي نادر فطابت نفسي وشربت عليها كما كان يفعل الرشيد، ناسيًا أمر الطبيب. تذكرت نفس لبيد واطراد ميميته، فقلت ما أصدق حديث الأمثال: الله لا يبتي حتى يعين.

وتركت الحانة أبغى عاليّة فصادفت الصديق الشاعر صلاح اللبابيدي، فلذنا برفوف نتذرّر بظله من الطش، ثم انتقلنا إلى حيث شربنا القهوة وأنشدني أبياته في رثاء أمين، فسمعت شاعرًا يرثي شاعرًا ويقول فيه ما لا يُقال إلا به، فحمدت من جعل ليلى خيرًا من نهاري. حقًّا إنّ أحكامه لا تُدرك!

١٩٣٧ / ١٢

(١) هذه طريقي

عدنا وما كانت روحه بلا رجعة، كما تمنّاها محبو السلام، فكأنما القضاء سخّرنا لبقاء شهامة في جعبته، فإنّ أصابت فلهذا بريت، وإن طاشت فلتتها المستهدفين العافية، ستقول في قوله العوام حين يدخل شباط وفي وجهه الشر: جاء بطبّل وزمر.

نعم نعم، وبسيط وترس وتبّان، فالحياة نضال وصراع.

من يلومنا إن اشتقتنا إلى حديث «أدبنا وأدبائنا»، قد وقف قلمنا خمسة أشهر لمرض غلبناه بقوّة هيكل — غير هيكل الروح القدس — أقل ما يقال فيه: كجلّمود صخر حطّه السيل من علٍ ... أما خطتنا فتكل، ونصيحتنا إلى أحبابنا قول بولس الرسول للأعزّاب والأرامل: من يدفع بتولته للتزوّيج فحسناً يصنع، ومن استطاع أن يحتمل فليحتمل ... قد نقول يا قارئي العزيز: لو عرفنا بداعك لعدنان، أما جوابي لك فمن جراب الحديقي في سنته الجاحظية: «العالّم محجوج والجاهل معذور»، فلو كان مارون عبود شقة موظف في جمهورية أفلاطون لجاءتك بأخبار وعكته الصحف، ولو كان أكثر من

ذلك، وانهَّى الماء في مصارينه أو عطس مع الصبح، لحسبوا لعطلته ألف حساب، ولكن مارون أديب، وفي لبنان.

وبعد، فما لنا وللناس، ما زال الدم نقِيًّا، والعقل في الرأس، فأنا وأنت بآلف خير، قد لبست بعزمي الأرض وعدت إلى مهنتي التي أرى فيها لذات الجاحظ ثلاثة.

قرأت مؤخرًا — والأصح سمعت واحدًا يقرأ — خبر رسالة — في لندرة كما أذكر — نامت في إدارة البريد سنوات، ثم فتشوا عن صاحبها فإذا به قد مات، فهل ترى بين موضوعي وتلك الرسالة الكهفية بعض النسب؟ المرض عذر مقبول، ودروس الأدب ليست أخبارًا محلية، ولا سندات تجارية يبطلها مرور الزمن، فاعذرني إذن إن حدثتك اليوم عن معركتين.

كان للشهر في هذا العام موسمان: الأول مع موسم البلح في مصر، والآخر مع المشمس اللوزي في لبنان، أما الذي وافق موسم البلح فكان يوم عرس جلالة الملك فاروق، وخير ما قيل فيه قصيدة المهندس طه، وهي معارضة لقصيدة الشريف الرضي القافية التي عرض بها رائحة البحري:

أخفى هوى لك في الضلوع وأظهر

أما في النثر فقد جلى أمين نخلة — مندوب لبنان — إلى فرحة صاحب الجلالية، فأزرت خطبته بالكلام المنظوم، وقامت دليلاً على أن النثر يماشي الشعر في لبنان، وأن لنا في كليهما قدحاً أعلى. كانت خطبة أمين سلسلة من نور البيان فربطت الوادي بالجبل، طرحها شبكة فوق «بحرنا» فاصطاد كثيراً، ولم يقف كثيناً كبطرس القليل الإيمان. وكما كانت تلك «القنية» بريد العيد بين البلدين يوم كانوا يعبدون معنا ابن بلدنا المرحوم أدونيس، هكذا كانت خطبة أمين تذكرة للقاهرة بعهود لا تتناساها:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكرها من كان يألفهم في المنزل الخشن

وشاء بشاراة الخوري — كعادته الحميدة — ألا يمر عرس بلا قرص، فنشر بعد رجعة أمين بضعة أبيات هناً بها صاحب الجلالة من بعيد، فعدّما الخباء تحدياً للأمين وإفهاماً للبشر، وخصوصاً الغلاظ العقول مثلي، إن مبيّض وجه لبنان هو شعر أخيطله العظيم، وكل ما عداه وساوس وهذيان، ولكن الذين يعرفون يؤكدون أن الأستاذ لا يزاحم في المضيق ... أما الراسخون في العلم فيعرفون أن نثر الأمين الفذ خير من شعر مبتدل كقول بشاراة:

أنزلت آية الهدى في جيئنك فإذا الكون كله طور سينك

أرأيت هذه العرائس: آية الهدى، وطور سينا وغيرها — كيف يحيّنها الشاعر ويجلوها بخمار جديد ولسان حاله يقول: قومي تخطري يا زينة ... ولكنها ويا للأسف لا تخطر ولا تتننى، بل تقوم لاحتتها متحاملة كأنّ عظامها من سنديان. فما أشنع طور سينا متصلة بها الكاف، ولو هطل الوحي فوقها ميازيب! وأبشع منها نزول الهدى في الجبين فهو يذكرنا الحفر والتنزيل، لا الوحي الذي يرفف ولا يقع!
ثم تغار الشمس، وغيره الشمس محمرة أكلة كفيرة إيليا على بيت الرب، ولكنها تعقّلت إذ رأت أن ليس في اليد حيلة فوقفت عند حدها، وقدعت ملومة محسورة تتمنى لو تكون من «عين» جلالته؛ ولذلك قال شاعر العرب يصف موقعة أبي قير:

فتن الشمس مفرق زين التاج فودت لو أنها بعض عينك

ما معنى «عينك» يا أخي؟ أعانك الله على ترويض القوافي في هذه الآخرة، وكأنه قرأ في الصحف عن تقوى الملك الصالح فنظم ذلك شعراً:

ما رأى مصر قبل يومك هذا مثل دنياك في الملوك ودينك

ثم استحل توتخامون زاوية لهذه الصومعة المتواضعة، فاقطع منها ما احتاج ليقول:

شرفًا عرش مصرته وتقل بين فاروق تارة وأمونك

لا أفهم الداعي إلى «شرفًا» التي قالها البحتري منذ ألف سنة وأكثر، قد تكون مثل قولهم: بشرفي. إن لشاعرنا الأكبر حق كشف الغطاء عن هذه البازنجانة، أما المعنى فيذكرني كثيراً قول شوقي حين قرئ أمون الملك الوثنى قائلاً له:

فؤاد أجل بالدستور ملّا وأشرف منه بالإسلام دينًا

وتحيل بشاره الدهر راكعاً يلثم راحتي جلاة الملك أو العرش - لا أدرى إلى من
يعيد الضمير - ثم مسخه رجلاً كسيد درويش وهو يعني عبقرى الألحان تحت غصون
صاحب الجلاة. وإذا كان لا بد من أن يكون في الإمكان أكثر مما كان - اللهم في شعر
المناسبات - قال شاعرنا الأعظم في النيل وشاطئيه ثلاثة أبيات من شعره الخالد ختمها
قوله:

حسدتك الأنهر حن أتهاها
أن فاروق من هواك وطنك

أما هذه الطين فستحق جائزة القرب. وحكاية جائزة القرب: أن المدارس تعطيها — أو كانت — من يقارب الثاني بضع مرات، وبما أن طين بشارة قاربت بكل فخر قول ذلك الأغراي للأمير: «أنت كتيس يقرع الخطوب ...» اقترحتنا إعطاءها جائزة، وعلى «المكشوف» أن يخلقها مثلما خلقه الله.

نعلم ولا نجهل أن للنيل طميًّا خصيًّا، ولكن ذكر الطين والوحول يستوحش في آداب شعراء الملوك، وخصوصًا إذا كان ختامًا. قد تعودنا القول: مسك الختام لا طينه. أما إذا كان وحل النيل بلون المسك فإنني أعتذر، وإن قال أحد من رجال الجدل **الآية: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾**? قلت له: ليس هذا الكعك من ذاك العجين، ولكلام مواضع، والفن كله هناك.

ليت كلمة أمين نخلة في يدي لأنقل منها للقارئ بعض فقرات، فيقابلها بهذا الشعر المخض الذي هو زبدة الحق ... كما قال أبو تمام.

أَمَّا مَا وافق موسم المشمش فمهرجان الأخ الحبيب ميشال زكور، رحم الله أخًا غرَّه سراب السياسة، ففلَّ في صحرائها ودُفِن في رمالها الملتئبة شبابًا نقِيًّا كفجر عين كفاع، وبهيًّا كخروبها. كان ميشال طيرًا يرفرف في آفاق الأدب، فتدرج حرج كرَّة على مائدة السياسة بتلقَّفها رحل رحل.

ليس فينا من ينكر أن يومه كان من أرعب أيام لبنان — فبطرك بجنز في باريز، ورئيس جمهورية يمنح وسام الأرض، و... و... ثم تجيء ذكراء الأولى فيكون لبنان كلها فيها. ومن يمثل لبنان غير رؤسائه الثلاثة، والثلاثة كانوا بأنفسهم، ولكن أيساوي هذا كله مقالة واحدة يرويها أبناؤنا لميشال حين يؤرخ الأدب؟

باع ميشال الأجل بالعاجل، وما ربحت تجارتة ... بل ربحت، فلو لم يكن ميشال وزيراً ما احتفل به هذا الاحتفال، ولكنه احتفال ينساه البشر كما نسوا صولة عبد الحميد وأبعة المير بشير، ولكنه يشهّينا ما نتكلّب عليه، فلو قامت الحكومة — ولو مرة في رأس الزمان — بتعظيم أدبائنا لارفَضَ عنها عشاق الوظائف من شبابنا المتّدّب، وإن لم تكن غليظة القلب.

إن «عبدو» و«ديوروسكي» — حصانٌ سباق — فازا بألفي ليرة ولم يصب الشدياق قرشاً مقدوحاً ينفق على يوبيله الخمسيني، ولكن المال آخر مطالب الأدباء، فحسب الحبيس صحن مخلوطة ورغيف يابس يتطاير شعاعاً كشعر بشار، فسعادته الكبرى في أن يخال العذراء تبسم له في الحنية، ويتململ المصلوب أمامه على الخشبة. سامح الله أخانا ميشال الذي تركنا وصار حزباً لغيرنا، لسنا ننسى ابتسامته الحلوة ولا شبيته الفتية الفاتنة. كان — رحمة الله — شباباً يمشي على الأرض، وكان «معرضه» زمناً معرض الأدب.

تناثر أيامي كأوراق ازدرختي، واحدة خلف واحدة، فإخوانني الذين يتدهورون في الأعماق هم تلك الحواجز التي تحجب عنِّي رهبة الهوة الأبدية، ولكنني — والله — مغورو أكاد لا أصدق أنني سأموت، بل أرى الموت بعيداً مني فلا أنفكُ لاهياً عابثاً، غير متذكر عوّاقبي الأربع كما علمّني جدي الخوري، أتبع هواي غير عابئ بمن يريدونني على غير ما أردتُ لنفسي. إن الحكم للغد، فلا يمشي بالعказ إلا كل محلول الظهر، ولا يقول: الدرب الدرب، إلا من ليس في وجهه عينان؛ ففي الانحراف عن السكة لذات لا يعرفها إلا من ذاقها، هناك ما يرى وما لا يرى، أما الجادة فلا تريك شيئاً جديداً، ما أشبه قولهم: نقد علمي، بحث علمي ... إلخ. بقول الكاهن للمعترف: زُرْ كنيسة الرعية يوم عيد السيدة، وصلّ الإبانا والسلام خمس مرات تربح غفران مائة يوم ... إن بونا ونتورا صلّ كما شاء وهو اليوم قديس عظيم قاعد في السماء مستريحاً، ويريح من يطلبون شفاعته بحرارة إيمان؛ فلنندع البحث العلمي لأصحابنا العلماء، وما أنا منهم — والحمد لله — فلنترك النقد العلمي لحملة البركار والزاوية والفادن والذراع، فالفنان

يصوّر بالملائكة، أما الناقل عن الصور الشمسيّة فليس في تأنيّه السلام، ولو استعار ريشة رافائيل.

نقد علمي، نقد فني، نقد يقطيني، كل هذه لا أفهمها، أفهم طريقتي فقط، فمن أعجبته فليقبلها، ولست لجnable من الشاكرين، ومن لم تعجبه فلينشقّ. أما من يكلف الناقل أن ينسج على نول المعقود، فكالطالب من الصائغ الأستاذ أن يكون في خزنته ألف دينار، وإلا فكيف ينقد الذهب ويقدر عياره؟ حُذْ يا أخي من المخزن ما توُدُ ولا تلُم تاجرًا؛ لأن دكانه ليس كمخازن ألف باء تاء ... اقرأ ولا تحكم.

يعجبني جدًا هذا الجمود، بل هذا التفكير، وبعد ما كنا نغرق للزنان في شعر المناسبات، وبعد ما كانوا يقولونه حتى على اللهجة — المازة — صرت لا تسمعه إلا في موضوع جليل كعرض ملك، أو موت وزير ... قرأت منذ حين كلمة لصحافة مصر تساعلت فيها: أين الشعراء لا يمدحون جلالة الملك؟ فارتاحت أيما ارتياح. حسن جدًا هذا الإحجام وأحسن منه عد العشرة قبل الإقدام، وأحسن الأحسنين تنزيه الشعر عن المواضيع التافهة؛ فملك محبوب كفاروق — أطال الله بقاه — يقال فيه الشعر كما يقال في تصوير أشرف العواطف وأصدقها، ورجل كميشال زكور يستحق أن يبكيه أصحابه شعراً، فهو رجل مات والرجال قليل. فبحراسته الله يا ميشال، وإلى اللقاء، إنما بعد إعادة عهد لبيه، وسؤال الناس كيف مارون؟

أما الآن فاسمع نceği لما قيل في رثائه، فشد ما أحبيت هذا النقد، وحثّت على المخي فيه، وكان الجواب أن تذكرت لا توص حريصاً.

فلنبدأ بقصيدة موسى نمور زمليك في وزارة الداخلية والصحافة.

(٢) موسى نمور، خليل مطران، الملاط، بشارة الخوري

ضرب موسى نمور صخرة الفن بعصاها، فأخرجت نميرًا غير غزير، تطيرت — فنِيًّا — من مطلع قصيّته، فقوله: «أحبابنا، رفقًا بمَن خلفتم» يعيد إلى الذاكرة — على بعد العهد — قول المرتل في الكنيسة المارونية بلسان الأنفس المطهرة:

أصحابنا لا تهملوا من يرقد في مطهر نيرانه تتقد

وإن تسألني ما الأنفس المطهرة؟ أقلُ لك — ثاني مرة: هؤلاء قوم يهلكون، موقتاً، كما تقف الحكومة الصحف، فيطهرون بالنار كما علمتنا أمّنا الكنيسة الكاثوليكية،

ليدخلوا السماء أتقياء. ولهؤلاء المؤسأء سفير « رسمي » على الأرض هو الأستاذ الغليوني، وزرته المرحوم والده فيما ورث، الوصاية عليهم، والعمل البري، لنشلهم من بحيرة النار بواسطة القداسات والصلوات، ولكن سيدنا المطران مبارك شجب العمل أخيراً، فقطع اللقمة.

أما ما بقي من القصيدة، فشعر سائغ محتمل، بل هناك شعر رصين ما مسَّ قطُ تابوت عهد الفصاحة، لولا قوله حين ذكر الصديقين ميشال وأمين تقى الدين: قبله فيدون كل بيت استقام وزنه وصحَّ تعبيره، حتى يسمعنا نصف ذينة من « علم الشعب »، فيذكرنا بقول المهلل: « قربا مربط النعامة مني ... » فهل لقت حرب شعر المناسبات عن حبال. ولو خمسة أبيات بعدها فيها شيء من نفحات شعر الخليل القديم، لخلَّتِ القصيدة من الشعر، وأنكرت أن يكون خليل مطران ضيعة لا رئيس أساقفة أقطار ... ثم يعود المطران إلى حوكه الأول فيقول:

أيها المنكرون أن ينقص البدر حين تم

لست أدرى لماذا أتعب مولانا قلبه، أليحل هذه المعضلة شعراً؟ فأي ذكي ... ينكرها؟ وكأني بشاعر « سجدوا لكسري »، و« هل تذكرين » و« ملحمة نيزون »، لم تصعب عليه معرفة نفسه اليوم، فما تفرعن ولا تعمَّ علينا، ولكن المطران كاسمه يعمل دائمًا بقول المرتل: القلب النقي المتواضع لا يرذله الله، فهو يقرظ نافجاً كل مستعط ثناء، وكلهم عنده أشعر العرب، رحم الله النابغة مبدع هذه الحكومة! وتلي قصيدة المطران قصيدة الشاعر القائل:

أنا جذع لبنان القديم فما نوى ورقى ولا لوت المصائب ساقى

فهذا البيت صورة الملاط الناطقة، فشبلي متنبئي الأخلاق، والنفس، والحظ، وشعره نَمَّ على صاحبه من قبل، فاسمعه كيف يفتح رثاءه:

أبا مكرم لولا العلي والمحامد لما كان محسود ولا كان حاسد

إن قصيدة الملاط هذه من الشعر الرصين ذي المستوى الواحد، فلا تحليق ولا إسفاف، يدوم فيها الشاعر كبواشق أيلول، ولا يغيب غيبات النسر، تعبر قصيده عن عاطفة مكبوتة فتقذف الحمم، ويعلن أللّا يذيب الشحم ويقرض اللحم:

هنيئاً لقبر أنت فيه وحباً مكان أمين ليس فيه مصائد

وكان شibli كريماً، كعادته في هذه المناسبات، فما أكل حق حزب ولا جماعة، مدحهم جميئاً على السواء، ولو تخلص شاعرنا المطبوع من زنجير «للضرورة أحکام» لانبثق نهراً عجاجاً لا يخرسه الاندماج بالبحر. لا أدرى من يعني بقوله:

نصرنا رجالاً ثم عند اختبارهم ندمنا وكم في التجربات فوائد

إنني أخشى – يا أستاذني – أن تقضي حياتك كلها «داخلًا في التجارب ولا تنجو من الشرير»، فوالله أنت مظلوم ...

ويمر على الشباح فتراكם الذكريات حتى تعود به إلى مقاعد المدرسة السوداء – كانت سوداء على عهدها – فتدفع العاطفة كماء بركرة المتوكل، فينظمها شعراً برأقاً كالفضة السائلة، حتى إذا بلغ آخر الشوط وقف وقفه جواد بلغ الغاية ورفاقه لا يزالون في المضمار، وكأنه يتذكر طرفة فلا يكسل ولا يتبلد بل يقول: «الحرب لمن ي يريد الحرب»:

عوازل لبنان إذا شئتم الوغى فلا تفزعوا فالسيف في الغمد راقد ولكنما في غاب لبنان عشر إذا غاب منا ماجد قام ماجد

في قصيدة شibli شيء سماه العرب التضمين كقوله: إذا مات منا ... وكتاباته: ألا كل شيء ما خلا الذكر بائد، وفيها أيضاً طباق كثير يذكرنا صناعة حبيب، ولكنه جاء عفو الخاطر.

تدل القصيدة على طول نفس قائلها، والملاط لا يدانيه في هذا حد، إن رؤته واسعة المسام، فهو لا ينخر ولا يسخر فكأنما يتتنفس من كير. تنزهت قصيده هذه المرة عن التشبيب بمحاسن ومكارم أخلاق حبيبه بشارة، فأين ذهب ذلك الغرام؟ وأين تلك الشررة

والعرام؟ أما بشاره فأبى عليه طبعه ألا يذكر بالخير أحبابه ومربييه فقال:

ورُبَّ أخ رأى فرجاً بذمي
فقطلت رضيت ذمك لو شفاكا
أتطمع أن تحلق للثريا
فتنطفئها عدمت إذن حاكا

أرأيت كيف يدِّجِل بشاره؟ إننا نشتغل ليل نهار لنهدية الصراط المستقيم، ويسمى
عملنا قدحًا وذمًا، إننا نسلم أمرنا لله ونقول: إن قصيدة بشاره على الكاف المفتحة كما
ترى، وبحرها الوافر، والبحر والقافية كفؤان لهذا الموضوع، فلنـ ما قال. لا أدرى أبهاء
الدين يعارض أم أبا الطيب؟ فبشاره هتلري المطامع ولكنه لا يُحسن انتهاز الفرصة،
ويسعى إلى الهيجا بغير سلاح... ضمـ قصيـته من شـعـرـهـما وـشـعـرـغـيرـهـما فـكـأنـهـ يـقلـدـ
أبا نواس. أما مطلع قصيـته فـجيـدـ، غـيرـ أنهـ لاـ يـخطـوـ ثـلـاثـ خطـوـاتـ حتـىـ يـتعـثـرـ بـأـذـيـالـ
الـغـلوـ والإـغـراقـ فيـقولـ:

أجُنَّ الموتَ أَمْ هُوَ رَامَ كَفُؤً؟
فَهَرَّ شَابَ قَومَكَ وَاصْطَفَاكَ

إن هذا «الهـ» ملائم جـاً لموسم المشمش، وعلى الشاعر أن يطابق مقتضى الحال،
ولكن من يرثي بشاره؟ أيـبـكيـ وـزـيرـاـ كالـحملـ الـودـيعـ، أـمـ يـنـدبـ كـبـشاـ نـطاـحـاـ، سـفـاحـاـ
جلـادـاـ؟ وإـلاـ فـكـيفـ يـكـونـ الرـجـلـ كـفـؤـاـ لـلـمـوـتـ؟ وـيـمضـيـ بـشـارـهـ رـاسـمـاـ عـلـىـ لـوـحـتـهـ صـورـاـ
سـخـيـفةـ خـفـيـقةـ كـخـربـشـةـ الـأـلـاـدـ عـلـىـ دـفـاتـرـ الـخـطـ، فـيـقـوـلـ: «ـحـبـيـبـ الـأـرـزـ بـؤـبـؤـ نـاظـرـيـهـ...ـ»
ثم يقول:

إـذـاـ اـحـتـرـقـتـ حـشـاـ الـأـرـزـ فـقـدـمـاـ
حـرـقـتـ عـلـىـ مـجـاـمـرـهـ صـبـاكـاـ

إـذـاـ سـلـمـنـاـ بـاحـتـرـاقـ حـشـاـ الـأـرـزـ، معـ إـنـناـ زـرـنـاهـ مـنـذـ أـيـامـ فـوـجـدـنـاهـ بـخـيرـ وـعـافـيـةـ، فـمـاـذاـ
تـقـوـلـ فيـ «ـقـدـمـاـ»؟ أـعـمـرـ الـمـرـحـومـ مـيـشـالـ مـيـشـالـ مـثـلـ مـتوـشـالـحـ وـمـاتـ عنـ شـيـخـوـخـةـ مـتـنـاهـيـةـ،
مـتـزـوـدـاـ الـأـسـرـارـ الـإـلـهـيـةـ؟ قـاتـلـ اللهـ الـوزـنـ، بلـ قـلـةـ الـذـوقـ وـالـجـلدـ! ثـمـ تـسـعـفـ الشـاعـرـ ذـاـكـرـتـهـ
فـلـاـ يـنـسـيـ لـفـ الـفـقـيـدـ بـالـعـلـمـ الـلـبـانـيـ، فـيـبـدـوـ لـهـ الـلـوـاءـ ذـائـبـاـ حـزـنـاـ عـلـىـ الـمـرـحـومـ كـأـنـهـ أـمـهـ أوـ
أـبـوهـ. الأـفـضلـ لـيـ وـلـكـ «ـوـلـبـاءـةـ» الـذـمـةـ خـصـوصـاـ، أـنـ تـسـمـعـ الـبـيـتـ:

ومن شهد اللواء يذوب حزناً عليك يظن أملك أو أباكا

ماذا يعملان يا ترى؟ المعنى في قلب الشاعر كما يقول العوام. رحم الله هنا ذكره وزوجته فقد نشرا بيرقا في مأتم ولدهما النبيه، أرأيت كيف تكون الصور صبيانية مبتذلة، وكيف يكون التجسيد مضحكاً؟ إن هذا يكشف لك أسرار مخيلة بشارة الواسعة وإبداعه العظيم ... ويبسط لك «سفر تكوينه» لتعلم أن هناك واحداً آخر يخلق ذكرًا وأنثى ... فوحد رب ما شئت، وقل: إن تعدوا نعم الفن لا تحصوها. ففي هذه الدرة البوئية ألفاظ عذبة مثل «صاك وزاك» تذكرك أسطورة البداء، يوم كان روح الله يرُف على وجه المياه ... وفيها الجناس الأجل الأمجاد مثل «وشاكا ووشاكا» وأطراف قوافيها ما تسمع الآن:

إذا وطن أهال بنابغيه سبقت السابقين وقتل هاكا

أي قال: «أحْهُ»، كما كنا نقول حين نلعب القفيزي صغاري. ولا شك أن عقل بشارة الباطن ادخرها له لمثل هذه الساعة العصبية. إن في صفاء الأذهان لآيات لأولي الآلباب، وبهذا تتميز الشعراء، وينتقل بشارة إلى التعریض بممدوحية الذين لم يدرّ على مرعاهم اللبن فيقول:

كرهت الشعر يمدح غير حر ولو كان الملك أو الملaka

أفي الملائكة عبيد يا ترى؟ أم في القافية مغنتيس جذب بشارة كما جذب الحليب الخنفشار؟ إنها خنفشارية حقاً، لا، قاتل الله النسيان، أليس جبريل مرسال الله عباداً في الملائكة؟ أما رأينا شعراً لنا كبشرة وغيره يخسرونها في جميع المأتم والأعراس وغيرها من مواكب، وقد تعجبت كيف لم يمشوه في مناحة ذكور إما مجنحاً محلاً كالطائرات، أو ماشياً خلفه ساكناً، منكساً قوادم جناحيه كما ينكس الجندي سلاحه ... كيف غفل بشارة عن البطل المغوار رئيس وزارة الله؟ إنه سمى المرحوم، والأرواح المجنحة صالحة للمواكب الرسمية، فمخايل صاحب سيف وله في المعارك غبار، كان ولا يزال وزير حربية الرب، وقد أعاد الأمن إلى نصابه يوم ثار الملائكة على الأب الأزلي ليقبلوا حكومته الدائمة ...

وبعدُ، فمَنْ قال لبشرة امدح؟ أَمَا نهيناه وما ارعوى؟ فالحمد لله على رجوعه فائزًا من الغنيمة بالإياب، لقد صَحَّ به قول المثل: «خفة الرأس تتعب السيقان». ولكنني أكذب عيني وأذني ولا أصدق أبداً، فما وجه بشرة وجه مَنْ يتوب، فهو مستعدٌ أن يذرّي كلما طابت الريح.

ويحاول في البيت التالي أن يبرئ شعره من المديح فيقول:

إذا غنَى حماة الحق شعري
فكم غنَى البشامة والأراكا
يطل به الزمان على الليالي
شعاعًا من هناك ومن هناك

إن شعراً يغنى البشامة والأراك وحوله ما حوله من سحر الكون – حتى في
البوشرية التي لا تطلب منها العافية – ليس شعر شاعر يحق له القول:

ويا وطناً كسوناه جمالاً على العلات أنفسنا فداكا

فلنَدْعُ هذا الآن فما هنا محله، وَلَنُؤْدِي إلى البشامة، لماذا خصّها الشاعر بالذكر وهي بنت عم النقاخ؟ أليس بمقدور لو تركها في ذقن أهلها؟ إنه لم يرها قطُّ، ولكن التقليد الأعمى أجراها والأراك في شق قلمه، ولأجلها استحق صاحبنا لقب شاعر العرب. لست أقول شيئاً في «شعاعًا من هناك ومن هناك» إلا أنها تصك الآذان حين تُنشَدُ، وشاعرنا يصك كثيراً حين يجري في مضمار الاحتياط على الخلود.

(٣) بشرة أيضاً - الدكتور حبيب ثابت

ويبلغ بشاره تصوير العاطفة فيقول شعراً:

خليلي كيف أنسى عهد كنا
تطوف بنا مجنحة الأماني
وكم أفق هناك يفيض سحرًا
وقد نسج الزمان لنا وحاكا
فتعبث في مفارقها يداكا
كأنك قد طبعت عليه فاكا

الثلاثة من جيد الشعر لولا الإكثار من «قد» التي لا تستسيغها أذني في النظم ويکاد يغض بها حسي، ثم لو قال الشاعر «يوم كنا» بدلًا من «عهد كنا» لأمن شر هذا النبو. أما «تعبث في مفارقها» فقد أساء بها الشاعر من جهةين: الأولى لغوية، فعل شاعر العرب الأكبر أن يحسن التعدية، والثانية فنية ذوقية، فقد شاك مفرق مجنة الأماني حين جمع. أما البيت الأخير فتصوير جميل لا يضيره النقص في بعض خطوطه وألوانه، وما أجمل صرحة بشارة الصادقة:

فيا ذكرى الأحبة مات قلبي فإنني لا أحس له حرًا

ففي «مات قلبي» حياة فنية لا حد لها، والشاعر يصدق دائمًا حين يحدثنا عن قلبه، فهذا الفتور الذي تحسه في شعره اليوم يأتينا بناءً أكيد عن احتضار هذا القلب الذي أحسن شوقي مخاطبته أيضًا حين قال:

والليوم تبعث في حين تهُنِّي ما يبعث الناقوس في النساء

ويتذكر بشارة أمين تقي الدين فيطريه إطاراً يستحقه أدب الأمين وذوقه الفني، ثم تسنح الفرصة فيغتنمها شاعر حماة الحق ليقول مثل شوقي القائل:

رواة قصائدي فاعجب لشعر بكل محلّة يرويه خلق

فيسمعنا:

ذكرتك تملأ الآفاق باسمي فتنفحني الزهور شذا شذا
إذا أنشدت قافية بقطر جعلت طراز بردتها ثناكا

كان البيت الأول حسناً لولا ركوب الشذا على الشذا، أما الثناء المطرز البردة فزمته مضى وراح، ذاك كان يا أخي يوم لم يكن نقد ولم يكن تجديد، يوم كان التقرير يكال بالمد للشعراء ويقولون: أحشقاً وسوء كلبة؟ أما اليوم فالفالؤس ملقاء على أصول الأشجار ... أما بلغك أن الدنيا تغيرت، وأن الحرب العظمى قلت الأرض بالطول والعرض، فماذا تتبعي منا يا حبيب القلب ... وأنت اللاحج بالبشامة والأراك بفخر جزيل؟ إذن ليس

الحق علينا. تحرك قليلاً، قم من فرشتك نقم معك، فكل ما في الكون يردد في مسامعك «ديوغراسياس»، أنسيتها؟ تذكر فجر مدرسة الحكم، وحنجرة قسيس الليل ... ولم تلْمُك فمناخ البشرية لا يساعد على القيام الباكر.

يعلم الله يا عزيزي أننا لا نرى فرجاً بذمك — فرج الله كربتك وكربتنا — أما أن هناك ثريا نطبع أن نحلق «لها» فنطافتها، فما نظن. ليت هناك مسرجة كالتي رثاها الشاعر العربي، وإن كنت لا تصدقنا فعمما قليل سنوجه المجهر صوب ثرياك ونريك أن وراء هذه النجوم السبع عشرات مثلها، قاتل الله خداع النظر، كم يرينا الأسود أبيض! ويذكر بشارة قول زهير: «يعز علي حين أدير عيني»، فيوضعه في محله. أما شطر المتنبي فجاء كقوله: «ووضع الندى في موضع السيف بالعلى»، فقول بشارة:

وتدعونا البلاد فلا نبالي «أنمشيها أذاة أو هلاكاً»

لا يصح إلا إذا كان محل بشارة من الإعراب « مضافاً » إلى ميشال زكور، وإذا كان قوله هذا كقولي، مثلًا: أنا والمُسْتَر فورد أغنى خلق الله، فبشرارة لا يجازف في السياسة ولا يغامر، فهو في أقل حساب نصف إمّعة ... وهناك بيت آخر لا بد من التعليق عليه وهو خاتم قصيده:

ويا وطني كسوناه جمالاً على العلات أنفسنا فداكا

أما المعنى فمتى كسا بشارة هذا الوطن جمالاً وهو القاعد كالزبرقان؟ فشعره كما حدد له: إما مدح للذين يسميهم حمامة الحق، وإما غناء لل بشامة والأراك. وإذا نظرنا إلى المبنيرأينا «على العلات» تعل القلب، ولو قال: «على علاته نفسي فداكا»، لكان الخطب أهون. وأنا أضمن له تسامح ميشال، قد فداء ميشال واستراح، فالله نسأل أن يطبل بقاء بشارة ليغنى البشامة والأراك، وحمامة الحق عند اللزوم، وإياه نعظم لهذا الجمال الذي خلعه ويخلعه كل يوم على هذا الوطن المحتاج إلى خلع أمير شعراء العرب.

وإن قلت أيها القارئ العزيز: ما هذا التعمُّت؟ وأي فرق بين قولنا: على العلات، وعلى علاته؟ قلت هذا ينبع في أبن الأثير، فاقرأ «المثل السائر»، فليس في مكتني قول كل شيء.

والآن قد بلغنا «مسك الخاتم» — أي قصيدة الدكتور حبيب ثابت — إنها من الشعر الطري الناعم كغزل البنات وشباب المرثي، فيها من طرافـة ملبيـه شيء كثـير، ومن

أناقته ما لا يحد. لسنا نغالي إذا عدناها قصيدة الموسم بل قصيدة العام، فلقد سبق الدكتور ثابت شعراء مهرجان زكور، في قصidته «خيال الشاعر وفن الناظم»، وفيها حمى العاطفة – والإبداع حمى – ولكن بلا انتفاض كحمى الربع ولا هذيان كالدور الخبيث. والخلاصة أن قصيدة ثابت بريئة من عواء النادبات وهرير النادبين.

بكي حبيب صاحبه ميشال كما بكى داود صديقه يوناتان بن شاول، بيده أنه لم يقل كقاتل أوريا: قد ضاق ذرعه عليك يا أخي يوناتان، لقد كنت شهياً إلى جدّاً، وكان حبك عندي أولى من حب النساء، وقد أحبتلك حبَّ أم لابنها الوحيد ...
أدرك الدكتور أن الشعر صور وألوان، ومعانٍ راقصة كالفراشات حول ثغور الأزهار، فسار على رسله لا هادئًا ولا متعرضاً فشبّه صاحبه بالأمل، وذاك الأمل أشبه بالفراش يرُفُّ ويُلعب حتى:

هَبَّتْ عَلَيْهِ مِنِ الرِّيَاحِ سَمُومَهَا إِذَا الفَرَاشُ مَشَّرَّدٌ وَمَخْضُبٌ

ويطّل هذا الأمل على الوجود هنيهة فيشعشع ويكون، فتغمّر المنى الروابي الخضر، ويلهب الوجه الرمال الحمر، ويندوي الربيع المعشب، في القصيدة وحدها، وفيها ألوان الطراز المعلم، وهذا الذي سمّاه العرب تدبّيجاً، وقد أجاد الذي قال:

بِيَضِّ صَنَائِعُنَا خَضْرٌ مَرَابِعُنَا سُودٌ وَقَائِعُنَا حَمْرٌ مَوَاضِيعُنَا

لقد عرفنا التلوين قبل الذين اتّخذهم شبابنا مثلاً أعلى وسمّوهم رمزيين، ولكن القدماء لم يذهبوا فيه إلى أبعد الحدود فلّونوا ما لا لون له، حتى إنهم لم يقنعوا بتلوين الماء. إنهم لو يقولوا كمتطرفة شعراء الفرنج: صراغ السنونو الأزرق ...
وفي القصيدة بحر شباب يعُجُّ ويصخب، ومركب ضال – غير سكران كمركب مارمه – يتذكر له الشاطئ، وهناك كفُّ الموت تحمل منجلًا وتضرب حيث ميشال:

فَهُوَ كَفْرُخُ النَّسَرِ مِنْ عَلَيَّهِ لَا يَشْتَكِي أَلْمًا وَلَا يَتَعَذَّبُ

إن «فرخ النسر» هذه لا تعجبني، وليت الشاعر نَزَّهَ قصidته عن معنى مبتذل كهذا، كما أني أرفض «يتَعَذَّب» رفضاً باتاً، فالشعر العالي لا يقبل الزغل.

ويدخل شعر حبيب نفع السياسة فلا تفسده، ويغبر في السرايا تصونه لغته الشعرية التي يتعمّدّها، وتتغلب صوره وألفاظه على سرد الأخبار المحلية التي تهتك حرمة الشعر. احتزم حبيب بقرعات الفن، وألقى نفسه في العباب فنجا ولم يغرق، وبلغ شط الختام غير عاجز عن الخلق والإبداع، وإليك هذه الصورة الرائعة:

أرأيت بلور النهار محطّماً	يبكي عليه بمقلتين المغرب
أم راعك البدر الذيبح مجنداً	بين الغيوم السود وهو معصب
أم راعك الليث الهصور مصفداً	لانت ملامسه ولان المخلب
أم راعك الطفل الصغير ميتاً	لا الأم تسمع مشتكاه ولا الأب
خفف عليك فكل حي في الورى	يأتي إلى وادي الدموع ويدّهب

الأبيات مطمئنة هادئة، وأكاد أراها باسمة، رغم ما صرّور الشاعر من أهواه. إنها كصاحبة عمر حين أفرخ روعها، ما خلع عليها هذه الحلة القيصرية إلا ألفاظها التي أحسن الدكتور تزويجها، وشفاها من «الأمراض الجلدية» التي تذهب بالكثير من الحسن، ولكنها لم تخلُ من «لو»، فقد كنتُ أفضّل أن يقول: يبكي عليه بمقلتيه المغرب، فالتعريف أولى لئلا يظن أن المغرب أكثر من عينين، وما بكى على ميشال إلا بثنين، بينما أصحاب حبيب أقاموا الأرض وأقدوها، وبشارة حرق الأرز.

ثم لو قال: كلُّ المخلب، أو لفظة أخرى مشدودة بدلاً من «لان» لتمت له الموسيقى، فالفنان لا يتكل على الوزن وحده، وكنتُ أفضّل أيضاً أن يقول: لا أم تسمع مشتكاه ولا أب؛ إذ لا حاجة إلى التعريف، وفي التنكير غنى عن «لل ولل» التي تخفف من شدة التقطيع، فاللام رخوة واللامان أرخي إذا اجتمعا. أما وادي الدموع فهذا لقب خلعه الآباء الالهوتيون على أمنا الدنيا ليستروا عورتها، أما الشعراء المرحون، حتى في الرثاء، فلا مبر لاعتاقهم هذا اللقب؛ إن الفن وقع لا يستحي ...

مسكينة الدنيا مأكلة مذمومة مثل خبز البخيل، أما أنا فلو سئلت التنازل عن سنة واحدة بوادي الدموع لقاء ألف أعطاها في الآخرة لما رضيت، ومن يقل غير هذا فهو موسوس، أو معطل المحرك فلا بد له من الوقوف. فيا لله من هؤلاء الذين يحببون إلينا الموت! إنهم يريدوننا حيوانات مغامرين.

وشاء حبيب أن يرد العجز على الصدر، فتجاوز هذا المقطع ليقول:

من مدمع الماضي البعيد ونشرب
أمل بألوان الغمام مذهب
ونعيش بالأمل النصير ونرتوي
ونموت بالألم المرير يلفنا

وهذه موتة الأبرار والصديقين التي بشرَنا بها بولس الرسول بقوله: إن الذين يموتون بالرب لا ينبغي أن تحزنوا عليهم كسائر الناس الذين لا رجاء لهم. ليت حبيباً وقف على شفار وادي الدموع، فما نفع الجناس والطباقي قصيده شيشاً، كما أنه ليس في رد العَجُز على الصدر بلاغة سحبان، فدعه لغيرك يا حبيب، أنت لا تحسِّن، وإذا طبعت ديوانك وأثبتت فيه هذه القصيدة الجديرة بالبقاء فاحذف هذين البيتين، كما أني أفت نظرك إلى «وهو معصب» ففيها رائحة الطب ومطهراته وأضمهاته، فدعْ هذا لمرضاك وأعف عنه قراءك.

هذا شعر نحب أن نقرأه، ونحب أن يُحتدَى؛ فلا هو بالغامض المقوت، ولا بالواضح المكشف العورات. إنني أهنتك يا حبيب، فقد ربحت المعركة وبقيَّست وجه الفن، كما أهنت زميلك الدكتور أبا اللمع، ذلك الأديب الذي يزج نثره في معرتك الشعر فلا يقصر عنه، بل يسبق الكثرين من ناظميه.

وبعد فلنُفِّ، فلنُقلُّ كلمتنا في شعر بشارة عامة، فشاعر العرب ينتظر.
قد سئمتُ الآن فلينتظر أيضًا!

(٤) غذاء الخلود

قال أمرسون: يجب أن أفعل ما يعني شخصيتي، لا ما يفكّر الناس أن أفعل. وقال ريمي غورمون ردًا على غوت: إن النقد السلبي ضروري، فكثيراً ما نضطر إلى تحطيم تماثيل غير محكمة الصنع، وطرحها في البوتقة.

أعجبت العرب خطة شعرائهم فلم يمليوا عن طريقهم، وألهوا أصنامهم الأدبية ستة عشر قرناً، لم يشكوا قطُّ إلا بالصفات الزائدة على هذه الآلهة فقالوا: هذا شعر منحول، وهذا مسوق، وهذا مسبوق إليه ... إلخ. أما الصفات الأصلية فما عرضوا لها بخير ولا بشر إلا قليلاً، بل قدّسوها وجعلوا خطأهم قواعد فارتبتلكنا بها، وهكذا عاش الأبناء على ملة آبائهم يعبدون ما عبدوا، وإن خالفت معتقدهم بكلمة قالوا لك: أدينك يأمرك؟

ما شعر بشاره في القرن العشرين إلا هُبَلِ الجاهليه، فهو تقليد شعر خلا من العناصر التي تشبه ماجتنا الروحية. وبشاره — في نظر المنصفين — آله ذات وتر واحد، أما في نظر نفسه فكآلة الفارابي الغريبة الشكل، يبكي ويضحك وينوّم مثلها. يريد أن ينطّق بالسنة عديدة كالرسل الأطهار حين حلّ عليهم البارقلطي، وعدّته أكلها العث، وديباجته حَلَّة غسلت وكويت.

يطبع بشاره بخلود هذا الشعر الذي يقوله، ولا يدرى أنه كجبن الزكرة لا يسلم طويلاً، فليته يتداركه بملح الشخصية الذي يضاد الفساد والتعنف، ولكن من أين له هذا الملح وهو شاعر تفكير لا شاعر إلهام؟ ترعرع بشاره وفيه كثير من ملامح البهاء زهير، فقال في عنفوان شبابه شعراً لا أدرى كم يعيش، فيبعشه شعر حي إنْ فاته التجديد لا يفوته حسن التقليد، فيه شعور حار والحرارة تضمن الحياة إلى أجل ما.

أما إذا استثنينا العاطفة المتأقدة فبشاره أضعف الشعراء في صوره، فقير في إبداعه، وموسيقاً موسيقى دُفٌّ مخشنخ. أما هو فيرى أنه أغنى خلق الله، على مائدته ألف لون، والخمور المعتقة تتدفق كنبع أفقاً، يصدق بشاره كل هذا ويشكره تعالى ويبوس الأرض، وهو يظن أن نعمة ربه حلّت عليه بشكل حمامه، ولا يبعد أن يكون الله قد صاح ولم نسمع: هذا هو ابني الحبيب!

إن بشاره قانع، والقناعة كنز لا يفنى، وما للدرويش وللناس فهو راضٍ بما قسمه الله، لا يطعم بالزيادة، يرى في كشكوله دنيا لا حدّ لها ولا طرف، يسكن كوخاً يحسبه قصراً من قصور ألف ليلة وليلة.

إذا استعرضنا شعر بشاره كله — ما خلا المأخذ عن الفرنجة —رأينا صوره من عadiات العرب ولكنه جَدَّ فرنيشها، فهمه أن يلتقط من أقبية القدماء بعض الدمى فيحلوها برماد التعلم و يجعلها آيته للناس، فيبشره يعدُّ — في عالم الأدب — عالماً أثريّاً ينشّ الآثار الدفينه ويعرضها في متحفه، ولو كانت تصلح للمتحف اللبناني لأنّه وكساه جمالاً كما كسا الوطن.

قال بشاره شيئاً يوم كان قلبه ينبعض، أما اليوم فقد مات — كما قال — ولحق به الشعر، أعاضاً الله بطول بقاء الأمير وألهمه الصبر الجزيل.

لا يجمل الشعر إذا كان كله حركات هندسية، ولا يصلح للبقاء إن عافته يد الفنان،
فشعر بشارة يحدثنا عن متابع يزيدها بؤس التفكير وفقر التعبير ضنى وشقاء، وكيف
يثيرى مقعد لا يؤمن بفوائد الأسفار الخمس؟ فلا تعجب إن قال في رثاء زكور: «حبب
الأرز بوبوء ناظريه ...» أي يا حبيبي، يا بصوص عويناتي، ولو كان بشارة من دير
القمر لقال له: يا غلاتي، فالحنطة اليوم عزيزة غالبة. ولا تعجب إن سمعته يهْنئ فخامة
رئيس الجمهورية – إده – بالعود قائلاً، وهو يهْنئ كل راكب وقادم:

هنيء الأرز فالرئيس أطلأ يا حبيب القلوب أهلاً وسهلاً

فإذا كنتَ جبليًّا عتيقاً مثلِي تتبادر إلى ذهنك تلك الأهازيج اللبنانيّة – التراويد –
وتتذكرة:

طل القمير على العربان رحلم يا سعد من لو مع العربان رحالى

فهذه الترويدة الحافلة بالصور الشعرية يستقبل بها اللبناني القادمين عليه في
أفراحه، أما بشارة فبدون هذه الصور يقابل الرئيس، ولأجلها يطلب أن نضرر له إكليلًا
من غار لبنان، بينما نراه كأمّ نوح ينتقل من «طيونة» إلى عليقى.

كم استغلب على الضحك إذ سمعت هذه الترويدة المنظومة شعراً! شاء من قرأها
على أن بيلوني كما بلا لبيداً قومه قبل أن يهجو لهم النديم الذي يولج فيها أصبعه
... فعرفت دونما تردد أنها من بضاعة شاعر العرب والعجم. إن أغنية العام التي
ذكرتها أغنى منها فناً، وأخصب أسلوباً، فناظمها يرحب بزائره الكريم مستعيناً بالخيال
ويشبهه بالقمر المطل، وهو لم يصغره اضطراراً، كما يفعل الشعراء الرسميون، بل
للتَّحِبُّ أيضاً، ناهيك أنه يقول حقاً. فالقمر الذي يطل يكون قميراً، ثم يصف عاطفةً
صادقةً، فالقمر ينتظر وتنفتح له القلوب حيث الزيت شيخ الأنوار، والسرج زينة الديار.
ويا ليت شعري، هل في بيت بشارة شيء من روعة قول العامي: «يا سعد من لو؟»
ففي هذا النداء الرمزي المغربي ما لا تجد بعده في قول بشارة: «يا حبيب القلوب أهلاً
وسهلاً». قال الشاعر العامي ما شاء وتركت تفكّر، أما بشارة فيبْ كلاماً معرجاً يذهب
جفاء لأنه لا ينفع الناس.

لا ننكر أن شعر بشاره هذا من السهل الممتنع، فمن يستطيع غيره أن يقول:

هنيء الأرض فالرئيس أطلاء يا حبيب القلوب أهلاً وسهلاً

فيجمع التهنئة والأرز والرئيس، وطلته، وحبيب القلوب، وأهلاً وسهلاً ... إن هذا
لم جوامع الكلم في زمن فسد فيه لسان العرب: **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ إِلَرَبِّكَ وَانْحُرْ**. لو كان الكلام من بحر الطويل أو البسيط لحدثت أحدها نفسه أن يأتي بشعر
من مثله، ولكنه بحر الخفيف، والخفيف ضيق، لا يلجه إلا الفحول العتاق المذاكي.
فما أسعده عصرنا بشاعره القائل للرئيس أيضًا:

أيها الشاعر الذي ينظم المجد
د قصداً بكل حسن تحلّى
حسبك الشاعر الذي ينظم الخاتمة
د وما ضرًّا أن يكون مقللاً

أظنها «قصيداً» لا قصداً كما كتبت، ومهما يكن من شيء فالبلاغة تسكله، فهي
«بكل حسن تحلٍ» ألف جمال تجلٍ، فكان المتنبي عناناً وشاعرنا بقوله:

فتى ما سرينا في ظهور جدودنا إلى عصره إلا نرجي التلاقيا

فيما لسعادة عرب القرن العشرين بشاعرهم الذي ينظم الخلد في مسلخه، ويصنع
من فرائه جبة لإمارة الشعر. وقد اجتمعت بشارة في هذه القصيدة مرفاق لم تجتمع
لأكل الرؤوس الذي وصفه الجاحظ، فهي آخر ما استنبطته القرية العربية، ولن تبلغه
عقبالية فرنجي مهما طحر وزحر.

راجع قصيدة بشارة في زكور وافحصها فحصاً إفرادياً كما يفحصون بزر القز في
كورسقا، أو في عينطورة كسروان، فإن عثرت بمعنى ليس من متراوف أحاديث العوام
فلك مني ما تتنمى، إن كان في مكتني.

إن الأشياء لا تقول شيئاً لشاعر العرب، فعيناه في قفاه، فهو شاعر غير نباتي،
الجمال البشري وحده يوشوه فيقول الشعر تارة حياً وتارة نبياً، وهو في كل حال قال
الذي عنده، فمن البغي والعدوان أن نسأله تجدیداً.

حدّد إدغار بو الشعر بقوله: «يجد الشاعر غذاءه المخلد في الكواكب المتلائمة، وفي
ثنايا الأزهار، وفي الأشجار الضخمة المنحنية صوب الشرق – كخرُوب كفر عبيداً –

وفي الأنجام اللافتة بالأرض، وفي تموّجات الحصاد، وفي قمم الجبال المزرقة، وفي مواكب الغيوم، وفي لعان الجداول المظللة، وبريق الأنهر الفضية، وفي هدوء البحر، وفي أعماق الينابيع المعزلة حيث تتمرأ النجوم.

إنه يراه جلياً في أغاني الطير، وعلى معزف Eole، وفي تنهدات رياح الليل، وفي أصوات الغابة المؤثرة، وتموجات الشاطئ، وفي صفير الأحراج، وفي عبق السوسن الشهي، وبغير المساء الساحر، وفي الجزر البعيدة المجهولة.

إنه يجده في كل تفكير سام، وفي كل الغرائز النقية، وجميع أفعال البطولة، وفي نكران الذات. إنه يحسه في جمال المرأة، في ملاحة مشيتها، في تألق عينيها، وموسيقى صوتها، في ضحكتها العذبة، في تنهداتها، في حفيظ ثوبها ووسوسة حلتها.

أرأيت أين يجد الشاعر غذاء الخلود؟ فبشرارة لا يعنيه شيء من هذا، فهو جشع ملهوف لا يحيا بالروح، وحياة الجسد قصيرة العمر.

فسنة بشاراة في الحب: نقل فؤادك. ولكنه سرعان ما ينسى الحبيب الأول! إذا رأى أحبابً وتحرّق، وقد شهد هو على نفسه بقوله:

أفحتم على إرسال دمعي كلما لاح بارق في محيـا

أرأيت كيف يشط رياله كلما رأى طلعة؟ فلو رافق بشاراة في حبه شخصاً واحداً، أو أخلص لمحبوب، لوصف لنا تطور هذا الحب، وقال شيئاً جديداً، ولكنه ميال مع الهوى يراجع الدرس لكل طالب جديد يدخل مدرسته. إن بشاراة كالحجل لا يخرج من منطقته مهما تكاثر عليه الصيادون، أما اليوم ففي لبنان شعراء تجاوزوا التخوم المحبوس بها شاعرنا الذي غنى شعره حماة الحق والبشامة والأراك، ولكنني أشهد أن بيت بشاراة السابق لم يقل أحل منه شاعر غزلي حتى اليوم.

الشاعر هو من يدل على ما عنده كما يدل النبات على النبع الدفين في القاع، لا أعني بذلك هذا الغموض الذي مُني به شعراً علينا الجدد حتى انتهوا إلى أدغال الأجاجي والألغاز، وبدت حاجتهم القصوى إلى المواد الأولية، فهم يرددون كلمات بعينها، وتعابير مرت بها رياح الصيف، آثروا بمحبتهم ألفاظاً خاصة فأقبلوا عليها كالغوغاء في سوق النبطية، واللقطة كلمرأة متى كثر عشاقها لا تبقى تلك العقيلة المصونة. فتنهم الآب بريميون والشاعر فاليري فتهافتوا على ألوان وأنغام واحدة فأصبحوا كأنهم واحد، ما سموا حتى انحطوا، نقرأ قصيدة أحدهم فنجد مفرداتها وتراسيبيها عندهم كلهم، وصورهم هي هي

كأنهم يستقون من بئر واحدة وبدلوا واحد. وقد نصحت زعيم هذه المدرسة أن يخرج من هذه الدائرة — دائرة اللفظ والكتاب والرموز المعلومة — لئلا يصبح شعره طقطقة ووشوша، وأن يفتش عن ذات أخرى يستقل بها، أما الآن فقد اجتاحت بلاده، والعوض بالله.

لست أقول إن الكلمة دابة معلوم حملها، بل أقول إن على الشاعر أن يحملها ما تطيق، فعلى شعرائنا أن ينتبهوا للحروف فموسيقاها معروفة عندنا، وكل اتكلانا على الوزن وعلى عبارات مترجمة عن فرلين وما لم يفهم وربما وسامان وفاليري وغيرهم، فلتتقن علم فسيولوجيا اللغة لتحسين تركيب الأجسام، ولنعدل عن أحذتها مرکبة كالعقاقير الطبية التي تصدرها إلينا أوروبا، إنما يداوى المرء بأعشاب بلاده كما قال الحكيم العربي.

إنهم يريدون الشعر موسيقى بلا فكر، ولهذا قلتُ منذ ثلاثة أعوام: إن هذا الشعر كثير الفوسفور، قليل الفيتامين. فالشعر عندي فكرة موسيقية تضاف إليها طرافة النفس التي لا يكون الشاعر بدونها، والعوام يقولون: نفسه خضرا ... وهذه النفس الخضراء هي التي تقول شعراً إذا أمدتها الخيال، أما خضرة النفس فلبشرة منها حظٌ غير قليل، أما الخيال فليس له أثر في شعره الذي يطل به الزمن على الليالي.
لقد صرفنا سنوات ونحن نقول له: كخ كخ، وهو مهاجم مستقتل، فهل يتسبب بهذا الشعر يا ترى؟

قال رنان: «إن نفسي ستحوم بشكل طائر البحر حول أبواب كنيسة مار مخائيل، ويقول عنها الفلاح إذ يراها إنها نفس كاهن يطلب الدخول إلى الكنيسة لتلقاء قدّاسه». فعلق محّرر الديبوا على هذه الكلمة بقوله: «ولكنها ويا للأسف، لا تجد أبداً أولاداً يخدمون هذا القدس». أما نحن فإننا نتمنى لصديقنا بشارة قداساً احتفالياً، وبالعصا والتاج أيضاً، ولكن نحذر، فشمامسة اليوم ستتحمّهم الأيام، فهل يجد حينئذ من يحمل له المخرّة؟

إن هذا الجنون في الأدب العربي وليد عصور، أنمته المنافرة، وسرى في عروق الذرية حتى انتهى إلى بشارة الذي تخيل شعره تطاير شعاعاً من هناك ومن هناك. أما أنا فيظهر لي — والعلم عند الله — أنه لا يبقى منه إلى حين غير بعيد إلا أبيات كثيرات الضرات، وإننا نصارح بشارة وأمثاله أن تاريخ الأدب لا يخلد إلا الشخصية والتجدد، فهل عند بشارة شيء من هذا؟ ليفحص ضميره!

سيعلم التاريخ يا عزيزي إننا لا نرى فرجاً بدمك. وعلى ماذا نحسدك؟ إننا لا نطمع
أن نحلق «للثريا» فنطافئها، إننا نبحث الثرى حيث أنت ونحن مقيمون.
إنني أعرف نفسي وأثق بأخلاقي للأدب والفن، أما هذا العنف الذي تضيق به أنت
 فهو جبلاً، فلومك على المرحوم والدي الذي فطرني، فسبّ دينه، أو ترَحَّمْ عليه، فما قُدِّرَ
 كان ...

ثلاثة دواوين للعقاد

(١) وحي الأربعين «نمط (موديل)» (٣٣)

لا أدرى لماذا يحل بنا الفزع الأكبر وينخلع قلباً كلما ذُكر أدباء مصر الفرعونية، أغولٌ هي؟ أتضررُ الأدب العربي شيئاً هذه الفرعونية التي يتتجّح بها بعضهم؟ يا ليت شعرى أين هي؟ ومن يدلني عليها وله مني دنياً أعرض من الجنة؟
ومَن يخلقها؟ أهؤلاء الذين يفتشون عن دفاتر جدودهم العتيقة؟ أليست أكثر منسوجاتهم أكفاناً مغسلة مبسطة؟ إنهم لم ينشوا بعد ناووساً واحداً مصرىً لأنهم عاجزون عن الخلق، وهذه آثارهم تدل عليهم.

سألني واحد كيف تجد فرعونية طه حسين؟ قلت: لا أهتم ولا أنصب مما يقوله الأستاذ ويدعو إليه؛ لأنه هو لا يعرف ماذا يريد، فأقصى أمانيه أن يذكره الناس، وخير زلفى للشهرة عنده هذا البدع، ليته يرينا نموذجاً من هذا الأدب الفرعوني الذي يحلم به ف يجعله فرعوناً جديداً في دولة القلم، وهل إذا ذكر المصري رع، وأبيس العجل الإله، واللبناني أدونيس وقدموس والزهرة نسمى أدبهما فرعونياً فينقياً؟ إذن الفرد دافيني عربانى فقد نظم موسى، وبنت يفتاح، وشمشون وغير ذلك. والأخطل جاهلي وثنى لأنه حلف برب الراقصات، بالهدي المحرمة مدارعها. وإذا شئنا الرد على كل ما يقوله طه حسين فني الزمان وما انتهينا، ما لنا ولطه؟ هذا عارض من حُمى الشهرة يعاوده كل سنة. لقد صدق المترشّق التركي — إسماعيل أدهم — حين شبّهه بولد ورش يخرب آنية البيت ويشوّش نظام متاعه، حتى إذا غضبت أمه وهرّ لها أبوه القضيب، استدار وقع في الزاوية يضحك كأنه يبكي.

لا أنكر أن الأستاذ طه دكتور بلدي من الجامعة المصرية، ودكتور سربوني من الحي اللاتيني، وأمس حاز واحدة أخرى ويحوز أيضًا، الله كريم، ولكنه ولو نكح من هؤلاء الجامعيات ما طاب له ربع وخماس يبقى خير ما عنده أنه شيخ أزهري يستطعم كلام العرب. ربما صار طه رئيس الجامعة المصرية لا عميد إحدى كلياتها، ولكن كل ما خلق الله وما لم يخلق من ألقاب لا يمنعني من أن أعده مشاغبًا في دولة الأدب يشغلها بما لا طائل تحته. إن قلت أزرق قال أحمر، وهلم جرًا. فخير البر السكوت عن شنانته. لا تعجب إن ذكرنا طه في معرض كلامنا عن العقاد؛ فقد كان بينهما — في أيام العز — محالفة هجومية دفاعية، أما اليوم فلا أدرى ماذا فعلت بهما الأيام.

موضوعي اليوم العقاد الشاعر، خبروني أن له — غير دواوينه الثلاثة التي بيدي — أربعة أخرى سماها «الديوان»، كما سمي نحو سيبويه الكتاب؛ إذن للعقاد سبعة دواوين، لك أن تسيمها ضربات بني إسرائيل السبع، أو سبع بقرات فرعون العجاف، أما أنا فهي عندي كرجال الكهف تحسبهم أيقاظاً وهم رقود، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً، وللئت منهم رعباً، فإياك أن تفعل كمعاوية ...
وبعد، فلنذهب إلى الثلاثة وأولها «وحي الأربعين»، وإخاله سماء كذلك تيمناً بالأنباء الذين يكلفهم الله برسالته في هذا العمر، لا عملاً بقول الشاعر: وماذا تتغنى الشعراء مني ...

فالعقد — متّع الله الأدب بطول بقاه — سيلزم باب ربة الشعر، ولو فات المائة والأربعين وردد الله إلى أرذل العمر، فهو شاعر برغم أنفه وأنفك وأنفك كل من نطق الضاد، يرد الفرات زئيره والنيل ...

أما الديوان الثاني «هدية الكروان» فالأستاذ يستسفر فيه نفسه عنا إلى عالم الطير، جعله «بعض الهدایا التي يتصل بها السبب بين عالم الطير وعالم الشعراء». (ص ١٠)، فعسى أن تذكر الطيور أن الهدایا على مقدار مهديها، فتقبلها منه وتتّوّب معه.

أما ثالثة الأثافي فأخر ما أنزل على قلم مولانا الجليل، وعنوانه «عاشر سبييل»، اتضاع الأستاذ في مقدمة هذا الديوان وأفهمنا أنه يؤدي رسالة الحياة الحاضرة، تلك رسالة هذا الديوان الجديد «عاشر سبييل» وهو اسم يدل على مرماه، ولست أقول أنه أدى هذه الرسالة ولكن أرجو أن يقنع القراء بأنها رسالة قابلة الأداء (ص ٨).

ولكنها يا سيدي المتصابي، ستظل في شباك البريد بشرط التأدبة حتى يقبض الله لها من يؤديها. العقاد كاهن ذرِّي السان يحفظ التوراة والإنجيل والكتب البيعية كلها، فيحسن الوعظ والإرشاد ولكن غرائزه تعوقه عن العمل بما يعلم ويعلم. إنه الأستاذ القدير حين يضع دساتير الفن بمرسوم أو إرادة سنية، ولكنه يعجز عن المطابقة لأن الشعر سليقة، وإن صقله المرن بعض الشيء، كما توهَّم العقاد، فلا يجعله شعرًا، وببرهاني أن الأستاذ الجليل بلغ الخمسين من عمره المديد ولا يزال نظمه كما كان.

كان بشار بن برد جالساً أمام بيته وبيده مخرضة، وأمامه طبق تفاح، فحاول أحدهم سرقته فضربه على يده، فقال له الرجل: أنت أعمى؟ فتكثَّر أبو عبدة ضاحكاً وأجابه: يا أحمق، وأين الحس؟ إن في الشعر شيئاً أدرِكه إدراكَ بشار ولا أدرى كيف أعتبر عنه، ولكننيأشهد أنتي لم أحس بشيء منه عند العقاد.

أقرأ مقدمات دواوينه فأصبح: يا بارك الله! أحسبني أمام شاعر لا يجاري، حتى إذا تجاوزت الوصيَّد رأيت شعرًا هزيلًا كذب البختري، وظننتني أقرأ دفاتر المتمردين في الصفوف الوسطى لا نظم أديب كبير. إننا لفي زمن كثُرت فيه «الأصول» فأكثر الشعراء يضعون لنا في صدور كتبهم خريطة دنيا وحيهم لئلا تكون من الضالين، والعقاد أول من فعل هذه الفعلة، يقول في مقدمة «وحي الأربعين»: إن «التعبير الجميل عن الشعور الصادق» هو حد الشعر. فلنجعل هذه التميزة في أعناقنا، لعلها تنفع وتقينا شر توابع العقاد.

هذا كلام أحل من العسل، ولكن هل استطاع العقاد شيئاً من هذا؟ نعم، لقد طبَّق مفصل الشق الثاني، أي الشعور الصادق، أما الشق الأعلى — التعبير الجميل — فيعجز عنه ولو عمرَ مثل نوح.

لستُ أشك بشعور العقاد الصادق، ولكن هذا لا يكفيانا، إن هذه الحجة لا تقلِّي عجة، كثيرون جاءونا بها فما غفرت لهم وزرا. ليت للعقد شيئاً من التعبير الجميل فيستر به هذه العورة! أما الإخلاص وحده فلا يفتح باب الخلو، لا بد من الفصاحه وحسن التصوير في الفن، وإلا فهيهات أن يدخل العبد ملوك العبريين.

قال العقاد في كتابه «الفصول»: «الكلام العاطل ليس أدباً، وإنما الذي يستحق ذلك هو الذي يكسو الفكرة ثوبًا من الجمال والجلال..».

فأين الجمال والجلال في هذه الكتب التي يسميها دواوين شعر؟ هذا نسل معوه يحتاج إلى وقف ذرية ليعيش؛ فليوصي به الأستاذ أميناً من بعد العمر الطويل. لست

أجدد تجديده في العناوين، فوحي الأربعين وهدية الكروان وعاشر سبيل أسماء لا يستهان بها، ول ليست بالشيء القليل، قد فعل العقاد كشعراء العالم اليوم، ولكن الملبوس لا يصيّر القوسوس. لا يغضب العقاد أن نصارحه بما في نفسها، فهذا شعر جاف كأنه الحطب اليابس، ويلا ليته الحطب فيخرج ناراً ونوراً! فما هناك إلا دخان يعمي الأ بصار قبل أن تأتي السماء.

كأنى بهذا الفقير حين وضع حدود الشعر والشعراء للناس قد وقف أمام المرأة، فوصف لنا ملامح تخيلها في ذاته الكبرى، فقال: «ولكن المبدع من يكون له ينبوع يستقي منه كما استقوا — أي القدماء — ولا قبل بذلك إلا لمن كان له سائق من سياقه يهديه إلى موقع الماء، وبصر كبصر الهدى، يزعمون أنه يرى مجاري الماء تحت أديم الأرض وهو طائر في الهواء».

يتوق العقاد أن يكون الهدى أو زرقاء اليمامة، وهذا هو «الشعور الصادق»، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة، فتجمل يا صاحبى ولا تننس أن الله مع الصابرين! إن نيتك حسنة جداً، فعل الآلهة ترق لك وتتعرف بابك فتزورك ولو مرة، فلا تروح من هذه الدنيا وفي قلبك شيء من حتى انظم ولا تيأس من رحمة الله، فلولا تسمع مني وتسهر ليلة القدر لعل الفن يهبك من لدنه وليلًا!

ويقول العقاد: «لكل ذهن جلوة، ولكل طبع بارد سورة، والريشة الميتة قد ترفعها الريح إلى حيث تحوم أجنحة الكواسر». ثم يقول: «نحن عسيون أن ننظر إلى ذلك الشعر، فإن كان صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع، وإلا فهو من شعر التكلف».

هذا بعض ما قاله في مقدمة ديوان حليفه المازني، والعقاد — كما قلت — من أفهم كتاب مصر للفن، إنه لم يغفل شذرة مما قاله الأجانب فيه، ولكنه — وا حسرتاه! — غير فنان، فهو حرٌ بأن يُرثى له، وماذا يصنع إن كان شيطانه حرونًا؟

والعقد يحدد الشعر في «خلاصة اليومية» هكذا: «ليس الشاعر من يرصع قصائده بما يبهر ويخلب من الخواطر البراقة، والمعانى الخطابية المتلائمة، وليس من يزن التفاعيل، ولا صاحب الكلام الفخم واللفظ الجزل، ولا من يأتي برائع المجازات وبعيد التصورات، فالأول ناظم أو غير ناثر، والثانى كاتب أو خطيب، والثالث رجل ثاقب الذهن حديد الخيال، إنما الشاعر من يشعر ويُشعر».

ونحن نقول: إن الشاعر غير من يحب الشعر، والعقاد يحب الشعر حتى الاستشهاد، ولكن ما الحيلة وجنة الشعر مفتاحها البيان؟ ما قول الأستاذ بجميلة مzinة نظيفة،

وبآخرى تحاكيها جمالاً ولكنها منخرقة السربال علقت بأرداها رواح القطار، صفراء الوجه من وقود الأدخنات كقوم جرير؟ يضحكني جدًا أن أراهم ينشدون خمرة التجديد من معصرة الأوزان والقوافي والأغراض، فما هناك الشعر، إن النفس واللسان يخلقان الفن لا المدارس والدرس، فما بضاعة العناوين التي ترعب إلا طلاسم ورقى، وما أشبهها بصرر اليوم المغشاة بورق القصدير البراق.

لا يراود آلهة الفن الرفيع عن نفسها إلا العبرى! وما أحلى البلة والجذون إذا كانوا عبقرىين. وإن يعجبنى في العقاد شيء فهو هذا الإيمان المكين بفنه، إنه كأولئك المتهجدين في دنيا الفن يقومون الليل إلا قليلاً، على رجاء الساعة التي يحملون فيها كتابهم بيمينهم. كاد العقاد يكون منقطع النظر، فهو كثير الاطلاع ثاقب الفكر، ينافش أكابر مفكري العالم، ولكن تعبيره الشعري ليس كما يجب، فانحطت منزلته قليلاً عن شكسبير وغوت، ولا نقول راسين وهيفو؛ لأنه يرى الشعر الفرنسي جلجة، وهو لا يحب أن يقعقع بالشنان.

إذا طالعت دواوينه الثلاثة — التي أنفق على تحبيرها برميل حبر وقنطاراً من الورق وغابة من الأقلام — تحسبه سمساراً يصدر شعرًا في دواوين، وبضاعته أشكال وألوان، فكانه دكان الضيعة فيه جميع حوائج البيت. وليس الذنب ذنب الأستاذ، فهو عارف بأصول الفن، ولكن الكلام يتبعصى عليه، وفنه كقناة عمرو بن كلثوم لا يلين ويشجّع المثقف والجبين، نفسه تطلب ومعدته لا تقطع، فيقعد ملوماً محسوراً.

خُذْ هذا العنوان الرائع «عيد ميلاد في الجحيم»، فماذا ترى في تلك القصيدة وهي من خير وحي أربعينه؟ ببيانًا دون الوسط، وشعرًا أجش تغلب عليه صنعة النثر وصيغته، وعلى ضوء قوله: «إنما الشاعر من يَشعر ويُشعر». رحت أفتش في جحيمه ولا فرجيل يهدىني، فما وجدت خيالاً يرضيني، ولا شعوراً يسلّيني، فعدت بخيبة أردد: ما لي لا أرى الهدى ...

القصيدة غراء فرعاء مصقول ترائيها، ولكنها مقعدة، تخلو من الاهتزازات والنبرات والصدى البعيد، كأنها الشوحة في إسفافها. أنكون في جهنم ونبرد؟ أنحضر عيداً ونحزن؟ ثم نقول: إن الشاعر من يَشعر ويُشعر!

إذا تصفَّحْنَا «وحي الأربعين» رأيناه مبُوًّا أحسن تبوييب، فيه تساوق أكَّد لي أن العقاد يفتش عن مواضيعه تفتيشاً، بل هو ينظمها ليسد بها فراغاً، ويملاً بياضاً معلوماً من الورق يخرجه كتاباً للناس. وللأستاذ فلسفة، بل الأستاذ يحب الفلسفة جدًّا، وفاسفته لا مطَّ فيها ولا عطٌّ، من شاء فليؤمن ... اقرأ فلسفة حياة (ص ١٧)، فهي تتناول الكون وما وراء الكون: الإله، الخلود، السعادة في الدنيا، الخير والشر، الحلال والحرام. كل هذه المعضلات يدرسها الأستاذ الأعظم في خمسة عشر بيتاً فقط، وهذا كثير، فخير الكلام ما قلَّ ودلَّ. وهأنذا أذكر لك الخاتمة لتدركني بها:

فهو لا يحلو وإن حل الحرام	شرعك الحسن فما لا يحسن
غير مسخ الحسن أو نقص التمام	ليس في الحق آثاماً بين
فاستبّحه وعلى الدنيا السلام	ما عدا هذين مما يمكن

بخ، بخ، إلا اثنتين فلا تقربهما أبداً، هذا هو الكلام، وهذا هو التعبير الجميل عن الشعور الصادق، حد الشاعر العظيم والشاعر الرفيع.

هذه آية صغرى من الباب الموسوم «تأملات في الحياة»، وهناك أشياء غيرها لا تتحصى. في هذا الباب خمسة وثلاثون عنواناً في ستٌّ وعشرين صفحة منها هذا العنوان: «إنذار الغضب إلى الحق المحتجب»، وقد فهمت معناه بما هي اللفظ إغراط، ذكرني هذا السجع بطلاب اسمه كنعان، سأله رفيقه أن يكتب له سجعة في أول كتابه كعادتهم في ذلك العهد، فكانت: يا رب يا رحمن احفظ عبدك كنعان. فزاد عليها صاحبنا اسم والده الكريم وضيّعته فصارت: يا رب يا رحمن احفظ عبدك كنعان ديب من دلبتنا. أما العقاد فحافظ على روعة السجع وبلغ الحق المحتجب هذا الإنذار الخطير:

إنْ جئْتَ طوَّعاً فجيءِ
أو لا فلا تبرح خفاءك

فأيْ وليد لا يستحي بشعر كهذا؟
وفي هذا الباب ثلاثيات ورباعيات كرباعيات فيلسوف العراق المرحوم الزهاوي،
اسمع قول العقاد:

الموت طرَّاق على الأَ
بواب عافٍ كالعفا

الموت أَخَذْ فُخْذٌ
ما تستطيع من الحياة

وعندي أن الزهاوي قال أحسن من العقاد ألف مرة يوم نظم:

لَا تقف قدام لذَا
كِتْمَكْتُوفَ الْيَدِينَ
أَنْتَ لَا تَأْتِي إِلَى
دِنِيَاكَ هَذِي مَرْتِينَ

وتحدى الإمام عن النور فوفقاً لله إلى بيت عليه مسحة شعرية، ولكن بعد زحير
كرحير إمام عصبة أبي نواس في محاربه، فقال:

عجب لأرض تخطر الشمس فوقها
وتشرق فيها كيف يطرقها الغم

فكانها خمرة ابن الفارض فما سكتت والهم يوماً بموضع ...
ها نحن على وصيـد الباب الثاني وعنوانه «خواطـر في شؤون الناس»، فلنـقـف قليـلاً
عند ثلاثة أبيات عنوانها «عدل الموازين»، ولا تعجب لكثـرة العـناـوـين وقلـة الشـعـر فالـحـيـاة
قصـيرة، والأـسـتـاذ يـريـد أن يـقـول في كل فـنـ ومـطـلـبـ:

إـنـا نـرـيد إـذـا مـا الـظـلـم حـاقـ بـنـا
عـدـلـ المـواـزـين ظـلـمـ حـيـنـ تـنـصـبـهـا
مـا فـرـقـت كـفـةـ الـمـيزـان أـوـ عـدـلـ
عـدـلـ الـأـنـاسـيـ لـا عـدـلـ الـمـواـزـينـ
عـلـىـ الـمـساـواـةـ بـيـنـ الـحرـ وـالـدـوـنـ
بـيـنـ الـحـلـيـ وـأـحـجـارـ الـطـوـاحـينـ

أما عدم عدل الموازين بين الحلّي وأحجار الطواحين، فلا يكون إلا إذا كان ناصبوها
بهاليل. ليـتـ الأـسـتـاذـ وضعـ هـذـهـ السـفـسـطـةـ فيـ مـيـزـانـ منـطـقـهـ، وـوـضـعـ قـبـالـتـهـ الـعـيـارـ لـيـعـرـفـ
قيـمـتهاـ، وـقـدـ أـضـحـكـنـيـ بـعـدـهاـ بـيـتـانـ عنـانـهـماـ «ـشـطـورـ»ـ:

دـلـيـلـ عـلـىـ أـنـ الـكـمـالـ مـحـرـمـ
فـمـاـ الـمـرـءـ فـيـ جـسـمـ وـرـوحـ بـكـاملـ
إـنـاثـ خـلـقـنـاـ بـيـنـهـاـ وـذـكـورـ

أَتَقُولُ لِي مَاذَا يَنْظِمُ الْأَسْتَاذُ؟ أَوْيَا فِكْرَةً يَخْرُجُ لَنَا هَذَا الْهَدْهُدُ الْمُتَوَّجُ؟ اللَّهُمَّ أَينَ أَنْتَ، أَلْخَرَجْتَ أَبْوِينَا مِنَ الْجَنَّةِ لِتَنْزَلَ بَنَا هَذِهِ الدَّوَاهِيَّ؟
وَكَانَهُ يَعْرَضُ أَخَاهُ ابْنَ الرَّوْمَى بِهَذِينِ الْبَيْتَيْنِ، فَاسْمَعْ لِعَلَكَ تَوَافَقُنِي:

مَنْ سَاءَ بِالنَّاسِ ظَنًا دونَ مَا أَلَمَ أَحَقُّ عَنِي بِسُوءِ الظُّنُونِ وَالْتَّهَمِ
كَمَنْ يَظْنُونَكَ لَكُنْ مَكْرَهًا أَبْدًا أَسَيِّءَ ظَنُونَكَ لَكُنْ مَكْرَهًا أَبْدًا

ثُمَّ لَا يَحِمُّ عَنِ نَظَمِ الْكَلْمَاتِ الْمُأْتَوْرَةِ مُثْلًا: اعْرَفْ مَا تَرْمِيهِ تَعْرَفْ مَا تَجْنِيهِ،
فَيَقُولُ:

تَعْلَمُ كَيْفَ تَسْتَغْنِي إِذَا مَا شَئْتَ أَنْ تَغْنِي
فَمَنْ يَجْهَلُ مَا يَلْقَى فَقَدْ يَجْهَلُ مَا يَجْنِي

رَحْمَ اللَّهِ أَبَا الْعَتَاهِيَّةِ وَسَاحَةِ الْمُلُوكِ، وَلِيُسَمِّحَ لِي الْأَسْتَاذُ أَنْ أَذْكُرَهُ أَنَّهُ وَقَعَ هَنَا بِمَا
خَطَّأَ بِهِ جِرَانَ مِنْ تَرْكِ الْجَزْمِ بِمَنْ، وَلَكِنْ فَلَيْنِعِمْ بِالْأَلْفَاظِ الْمُهَمَّةِ فَهَذَا جَائِزٌ، كَمَا قَلَّنَا مِنْذَ أَعْوَامٍ.
وَفِي شِعْرِ الْأَسْتَاذِ كَثِيرٌ مِنِ الرَّجْعِ الْمُعَدِّ وَالرَّوَاشِ الْبَالِيَّةِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ جَاءَ
بِكَلَامِ كَانَهُ الْحَدِيثُ كَقُولِهِ فِي تَكَالِيفِ الْعَظَمَةِ:

تَنْصُفُ الْأُمَّةَ الْمُضْعِفُ وَلَا تَنْتَ صَفِ يَوْمًا عَظِيمَهَا الْمُظَلَّومَهَا

قَلَّتْ: إِنَّ الْعَظَمَاءِ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى مَنْ يَنْصِفُهُمْ، فَهُمْ يَأْخُذُونَ حَقَّهُمْ غَلَبًا لَا التَّمَاسًا،
إِنَّهُمْ يَفْرُضُونَ أَنفُسَهُمْ فَرْضًا عَلَى النَّاسِ كَمَا قَالَ بُودَلِيرُ.
وَقَالَ الْأَسْتَاذُ بَيْتًا فِي الْعَبُوسَةِ يَنْمُّ عَنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ:

قَطُوبُ كَرِيمٍ خَابَ فِي النَّاسِ سَعِيهِ أَحَبُّ مِنَ الْبَشَرِيِّ بِفُوزِ لَئِيمِ

أَمَا حَكْمَتِهِ فِي مَصَابِ النَّخْوَةِ:

وَأَخِفَّ مَا اسْتَطَعْتُ مِنْهُمْ يَخَالُوا أَمْنَهُمْ مَنْ أَذَاكَ غَنِمًا يَعْدُ

فَنِيَّتِشِيَّةٌ عَرَبِيَّةٌ، وَالْأَسْتَاذُ مَمَّنْ قَرَعُوا الْأَثْنَيْنِ.

وهذا باب ثالث عنوانه «قصص وأماثيل»، افتتحه الأستاذ بأسطورة أكاروس اليونانية، فقال في هذا الموضوع قصيدة هي أطول منظومات «وحي الأربعين» تدل على طول نفس الناظم، وإن ذكرتنا بعض قوافيها بيوم عصبصب وهلوف. وما عليها، فالشعراء العظام مثل المتنبي وغيره هفوات بلاغية كهذه. لا تخلو القصيدة من شعر رصين ينسينا بلادة ما سبق من الفلسفة الرخامية الركيكة، وقد لفت نظري منها بيتان لسبب أذكره لك، البيت الأول:

وسِرْ قدماً إن المطار لواحد ولكن سبيل الأوج ليس بمقرب

شرحه العقاد هكذا: أي إنك إذا طرت للأمام أو إلى فوق، فالمطار واحد، ولكن المطار إلى فوق لا يقربك إلى قصلك، وإنما يقربك إليه أن تطير إلى الأمام.
والبيت الثاني:

للامس شوق أن يرى الغد طالعاً فإن مات يوم قبل ماضيه فاعجب

وهذا شرحه: لا يحب الأب أن يموت ابنه قبله، فيكون كالغد الذي غرب قبل أمسه.
قد رأيت العقاد في هذه الشروح والتعليقات يفعل فعل المكري حين يسعن بغله إذا أسد في الجبل ورك تحت الحمل، فيا لضيعة التعب!

ثم تأتي قصيدة «هو وضميره»، فإذا بها حوار على طريقة الشاعر الإنكليزي هاردي، ثم تليها خير قصائد الديوان تفكيراً وتعبيرًا وتلويحاً وإيماءً ورمزاً، عنوانها «كعبة الأصنام بعد الزلزال»، إنها خير ما قرأت للعقاد بعد تلك اللعب التي ضيّع وقتها في نظمها وقتلنا بقراءتها، فهنا مسرح خيال وفكرة شاعر. ولكن إذا قسنا الأستاذ على قوله السابق: لكل ذهن خامد جلوة، ولكل طبع بارد سورة ... إلخ. وجذناب لا يستحق لقب الشاعر، لينتظر لعل الله يفتح عليه بشيء آخر.

ليته يقلّ من إدخال المضارع على المضارع كقوله: لم أشأ أحجرها، فهذا قبيح.
وتليها قصيدة بين الشاعر وعروس شعره فيزجرها بقوله:

كفي يا عروس الشعر خيّبت آمالي وكذبت أحلامي وأشمت عذالي

انعم بالاً يا أستاذ، فليس في الموت شماتة، إن عروس شعرك عانس ولا أدرني أعلىك
الحق ألم عليها، فلا تقلتها متى أقبلت، ولا تقل لها كأبي تمام: ليس ذا وقت الزيارة.
فأعذب الأكل القنصل، افعل ولا حرج.

أما الخيم فمخمة في الشعر، ومثلها «أبغض نفسي حزناً كمن بخعا...» ألا تراها بنت
عم الهخع؟ وإن جاء، فلعلك باخع نفسك، فالشعر غير النثر.
وأنقل منها هذه الا «حفزت» و«حفزي» في قوله:

إن منعت لذة حفزت لها فكيف حفزي من لم يكن منعاً

إن هذه الزعارير في الشعر العقادي فوق العدد والحساب، ولو شئنا استئصالها
جميعاً من شعر «أمير الشعرا» لاستعنا بـ «جلام» الأستاذ كافور.

«وحي الأربعين» أيضًا

كتت مرات أكثُر يدي عن قصاع العقاد فنفسي لا تشتهيها، والغريب أن نفسي ما كانت
قطُّ عيوفاً، فلماذا هذا الغنج والدلال؟ إنها غير ملومة، أما قطعت جهيبة قول كل
خطيب، واختارت معارف مصر ديواناً لعلي الجارم ولم تختر للعقاد غير النثر؟ يا ليت
أمر هذا الاختيار يصير إلى لأوجب على معاهد العالم العربي جماء تدريس دواوين
العقاد ثلاثة، فيكون لنا منها ألفيات فلسفية علمية تفوق حقاً ألفية ابن معطي، وهكذا
يتکافأ عصرنا وعصر ابن مالك والشيخ ناصيف اليازجي!

الليس عجبياً أن أخرج من هذه الدواوين كما تخرج الشعرة من العجين، لا يعلق
بذاكريتي بيت واحد؟ وإن تحلفني حلفت لك، غير آثم بربة شعر العقاد، فيا ضياع تعب
سيد قطب! لقد خسر قوة تذكر في تمشيط الأستاذ وجلوته... فتعمعقه في درس «غزل
العقاد» لا يقل عن تنطع مار توما في تحقيق الثالوث الأقدس وإثباته.

لا يستبعد أن يكون في «غزل العقاد» تلك الشخصية التي كشف عنها الغطاء سيد
قطب فأرانا ستة وجوه، لو يشتد أكثر لسبعها وكان لعصرنا رؤيا جديدة وتدين جديد.
قد يكون لشخصية العقاد هذا المدى البعيد، ولكنها - يا ويحها - شخصية بلا شعر؛
في بيانه لا يطاوعه، ويده لا تؤاتيه، وهو شاعر بعينيه فقط، وال Herb هيئنة على النظارة.

هذا رأينا في العقاد، أما العقاد فيحمل، وهو راقد في الظل الخلف البنفسجي، بأن سيقوم في أعقاب الدهور، عند ظهور الإمام الذي يملأ الدنيا عدلاً، عقاد آخر ينتبه لحسن عقادنا الحاضر، ويفلي شعره كما فلى هو شعر ابن الرومي. فإن صح هذا الحلم وأصبح الشعر رصيناً يزدري الموسيقى والرقص لأنهما يخففان الوقار، صار عباس محمود العقاد أول الشعراء الأربع، وإلا بقي ثالثهم — لا أقول رابعهم — لا يبرح مكانه الذي وضعناه فيه حتى تقوم ناقة صالح، ويَهُبْ كافور للمتنبي ضيعة أو ولادة.

نحن الآن عند باب «وصف وتصوير» من وحي الأربعين، وفي وصف العقاد غنة دموسية حلوة، يطالعك بها الفتح المبين في مشروع حليم الجديد، أي تحويل شعر القرآن نظماً، وإليك منه نموذجاً بلا ثمن. قال حليم ينظم سورة البلد:

أقسمت في هذا «البلد»
وبوالد وبما ولد
أتراه لم يره أحد
حتى تمنع بالعربي؟

ليت صاحب الملحة الجديدة تعقل **(فَلَا افْتَحَمَ الْعَقَبَةَ)** دونها ما جاء في الآية الثالثة عشرة من هذه السورة، أي **(فَكُّ رَقَبَةٌ)** — بالمعنى الأصلي اللبناني. أما مولانا العقاد فيصف خليج ستاني أو حمامات البحر في الإسكندرية على النمط الدموسي، فيقول في وصف المستحبات:

والسماحة كالصلف	تلق الطويلة كالقصيرة
وصغارها برق خطف	برق السحاب طوالها
رامي السهام أو اشترف	والسمهم يقصد إن جثا

ومنها:

قرح وأدب وانصرف	ألقى لهن بقوسه
م ولا ملام ولا خرف	عيد الشباب فلا كلا

قد أفاض غيري في تحليل القافية الأخيرة فلا أدنو منها، بل أدبر وأنصرف كقزح،
وإن أهاب بي العقاد:

قفْ في عبورك «غير مأمور» ومن يعبر وقف

أجبته: تعذرني وأنت كريم، فقافيتك تستغيث بموت المتنبي وعوده.
أرأيت الخرابيش التي يسميها هذا الفقير تصويراً؟ إن الشاعر يجسد الجماد ويريك
الأساطين عذارى مائسات، كقول شوقي في «أنس الوجود»:

أيها المنتهي بأسوان دارا
قف بتلك القصور في اليم غرقى
كعذارى أخفين في الماء بضا
كالثريا تريد أن تنقضها
مسكاً بعضها من الذعر بعضاً
سابحات به وأبدين بضا

لا فرق بينهما سوى أن أحمد شوقي يُحيي، وعباس العقاد يميت، سি�حرشري
العقد مع الذين مدحوا أحمد شوقي لأنه هو نقه، أما أنا فأتألو عليه آية الأعشى:

وما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم وبحرك ساج لا يواري الدعامصا

أوتَرَى الحياة — يا أمير نفسك — مائجة صاخبة في حمامات الإسكندرية فما تزيد
على أن تنصب قلبك هدفاً؟ الفنُ يا معلم، هو أَسر هذه المشاهد الهازبة وحبسها إلى الأبد
بين دفتري كتاب، أو صلبها على لوحة، أما أنت يا صاحبي:

فهتقت فليحيي الجمال وقد يعاقب من هتف

فيبدأ من أن تصف لنا الجمال الراخِر الذي تغنىَّت به في نثرك، وناقشت أكابر
المفكرين، رحت تسجّل نظماً ماجريات رخيصة تذهب مع الدوي، وما تفيد إلا الدلالة
على أنك تفهم الشعر كلاماً أبعد غاياته مطابقة الصرف والنحو والعروض، فما عذر
زورقك الشعري، والرياح تجري كما تشتهي؟ إذا كنت تضحي وتختصر، كعمر صاحب
نعم، فهلَّ إلى قطرنا، إلى حمامات طبريا، فلعل قريحتك الجامدة تسيل.

وتحت عنوان «القمراء» يعارض العقاد صاحبه ابن الرومي في: «تبرجت بعد حياء وخفر»، فيقول بيتين جيدين:

كَلَمَا أَشْرَقَ فِي الْلَّيلِ الْقَمَرِ
وَسَهَا النَّاسُ وَلَذَا بِالْحَجَرِ
خَلَتْ أَرْوَاحًا تَدَاعِتْ لِلْسَّمَرِ
زَمْرًا تَهْمَسُ مِنْ حَوْلِ زَمْرٍ

لقد قللت «في الليل» من وقار البيت وجلاله، والعقاد يعلم أن القمر سراج الليل المنير ولا يطلع نهاراً، ولكن الوزن استقام بها، وهو لا يرمي إلى أبعد من «التعبير الجميل» في الفن.

إن للفن فتنة الشبكة على وجه المليحة، والعقاد لا يُحسن حبك هذه الشبكة، يطوف حول أسوار أريحا نافخاً في أبوaque، والأسوار لا تسقط لأن زمن سقوط الشمس قد انقضى، فالشاعر شاعر يتمثل أغراضه ويخرجها من نفسه كما تصنع النحلة شهدتها. لا حياة فنية بدون هذا الهضم، فالعشب لا تخرجه الدرة لبنياً صريحاً إلا بعد أن يمر في ألف مأزق، وكذلك الفكرة لا تتحول شعراً إن لم تمر بخلايا النفس الشاعرة. والذي يزعم أن العقاد يجهل هذا يأثم، ولكنه يحاول الاندغام بالأشياء فتنتكر له وتتنفر منه وتقوم العداوة بينهما، ولا إكراه في الحب، فما يسمونه رقة وحناناً لا أثر له عند العقاد، ولهذا يرسل الشعر معقداً كذنب الضب، لا شدّ ولا لرز في نظامه كأنما هو حياكة الخوص.

اقرأ باب «غزل ومناجاة»، ففي هذا الباب تصوّر لا يأس به، لولا حبسة في لسان ناظمه، بل لولا تلك الليبوسة التي تجفل المحبوب. في القصيدة الأولى «مباراة بين الشفاه» يصطنع العقاد الأسطورة و يجعل الرّب حكماً في هذه المباراة فيحكم ذو الجلال لشفاه الملاح غير مبالٍ بشفاه العباقة والجبابرية؛ لأنه عزّ وجّل جميل – كما خبرونا عنه – ويحب الجمال، ورب العقاد هذا عنده ما عندنا نحن البشر، فسجّل حكمه ومهره؛ إذ دعا أقرب الملاح إليه:

وَقَبْلَ مَبْسَمِهِ قَبْلَةَ
تَضَرِّمُ مِنْهَا مَكَانُ الْخَجْلِ
فَأَصْغَوْا جَمِيعًا وَقَالُوا أَجَلَ
وَقَالَ أَجَلَ تَلْكَ أَغْلَى الشَّفَاهِ

أما العقاد الذي هو أشد عارضة من الرب، ففوراً اعترض واستأنف، وميّز ونقض،
وأبِرَم قائلاً:

فَلَيُسمِعوا رأيي المرتجل	بَذَا حُكِّمُوا بَعْدَ طُولِ الْمَطَالِ
قَلْتُ لَهُمْ شَفَّاكَ الْمُثَلِّ	إِذَا التَّمَسُوا مُثَلًا لِلشَّفَاهِ
وَعَاوَدْتُ بَعْدَ السَّلْوِ الْغَزَلِ	لِثَمَتِ الْحَيَاةِ بِلِثَمِيهِمَا

يظهر لي أن صاحبي العقاد يحب شيئاً في الدنيا: الضياء وخصوصاً اليوم المしまس، والقبلة وهي أولى لبنياته من الحياة. إنه يؤثر القبلة على كل هنات الحب والله أعلم ... ولكنه لا يحسن التحدث عن مفعولها، فمكان الخجل الذي تضرم حين قبل الرب مبسم المليح غير بارعة.

وتلي هذه المبارزة الطريفة قصيدة «المعاني الحية»، أي الوجه. في هذه القصيدة بعض الشعر، فعليك بها في الديوان ولا تننس أن عنوانهاأشعر منها. ها قد بلغنا أشهر قصائد العقاد وعنوانها الكبير «غزل فلسفياً»، وعنوانها الصغير «فيك من كل شيء»، قد شرحها سيد قطب في الرسالة شرحاً لاهوتياً، وإليك مطلعها:

فِيْكَ مِنْ شَمْسِ الْضَّحَىِ الْعَيْنِ الَّتِي	تَرْسَلُ الْلَّمْحَ مُضِيًّا فِي الظَّلَامِ
فِيْكَ مِنْ بَدْرِ الدَّجَىِ أَحْلَامَهُ	حِينَ يَسْرِي نَائِمًا بَيْنَ نَيَامِ

لا أناقش نظم العقاد كلمة كلمة، ولكنني أتعجب لتوقف العقاد إلى لفظة شعرية هي «أحلامه»، فقد كانت تقييم البيت لولا عجزه الذي يكوكي كدابة أصحابها البيطار. وماذا أيضاً في حبيب العقاد؟ فيه من كل ما خلقه الله في التوراة في ستة أيام، وأليكه جدولًا مطعمناً، فيه من طلعة الربيع، وبرق وغمام الشتاء، وغناء الطير، ونوح الحمام، وحرير الجدول، ونظر الوحش، وانفتال الحوت، وسطوة النسر، وخوف النعام، إذن هذا الحبيب بر وبحر كما يقول العوام. إن الأمانة الفتية تقضي على الآن بإيراد الكلام بحذايره بل بنصه وفصه كما عَرَّ السلف الصالح:

فِيْكَ مِنْ نَارِ الْحَيَاتِينِ الْهَوَىِ	هَلْ حَيَاةُ الْحَيِّ إِلَّا مِنْ ضَرَامِ
---	---

إن عجز هذا البيت فلسفة طبيعية فتفهمه جيداً، أما عجز البيت التالي:

والذي أرعبه وأسفًا هجرك المدعو بالموت الزؤام

فقد قصر فيه العقاد عن بيت البارودي، فأين قوله: «هجرك المدعو بالموت الزؤام»،
من قول ذاك: «أخو فنكتات بالكرام اسمه الدهر ...»

قيل: إن أحدهم نادى غلاماً باسمه عبد الله، فما رد عليه حتى نسبه إلى أبيه، فقال
له: أطربت أنت؟ أدعوك مرات ولا ترد على؟ فضحك الفتى وقال: كلنا يا سيدي عبد الله.
فأجازه معجباً بذكائه، وسمعها غلام آخر اسمه حمزة فخزتها يعلم بالجائزه، ولكن
جوابه المدخر: «كلنا حماميز الله» لم يطعمه خبزاً! وكهذه قول العقاد: «هجرك المدعو
بالموت الزؤام ...»

فلنعد إلى الجدول لثلا يفوت القارئ شيء من هذا المحبوب، وفيه: من نقص الدنيا
وتمام الآخرة، وطيب الملائكة، وغي الشيطان وأثامه، وسكرة الخمرة، وغذاء القوت، وري
الماء، وهياق الجوع، وحظ وافر من الأرض، وحظوظ من سماء لا تراهم:

أجديد؟ إي نعم قال الصبا أقدم؟ إي نعم قال الوسام

ولا تعجب إن رأيت أسلوبًا إفرنجيًّا في القول، فشاعرنا يحب التجديد. وفي هذا الحبيب
شيء من هندسة علوية لم ذكرها لك، وفيه من الشاعر ومني ومنك، ومن جميع الناس،
ومن كل موجود وموعد توءم — هذا شعر — فهو إذن أزيٰ أبدٰ وسع كرسيه السموات
والأرض. فليت الشاعر لم يesse في هذه القصيدة «النورانية» عن ذكر كل ما في هذا
الحبيب اللذيد، ليته نظم لنا شعراً كل المقادير التي فيه من كربون، وكلسيوم، وحديد،
ويود، ومغنيزاً، وفوسفور، وكبريت، وسود، وبروم، وفلور، وسلسيوم، وأكسجين،
وهدريجين، ونيتروجين! بل ما ضره لو ذكر أيضًا المواد المركبة مثل كربونات البوتاسي،
وكلورير السوديوم، ليرى الغناء العظامي، والكرماتين، والنيلكلايين ليثق من متانة خلiah
ونشاطها، والألبومين، وغيرها ليرى كيف دهنه وشحمه، والفلوكوجين ليرى كيف تكون
كبده أرقيقة أم غليظة، فيأخذ حذرها ويأمن غدره ... ناهيك بما في هذا من فائدة جزيلة
للطلبة إذ يتلعلون أهم «دروس الأشياء» بسهولة، فالشعر سهل حفظه.

رجاء: ليت الأستاذ الجليل يشبع هذا الموضوع درساً وتحليلًا فيحدثنا عن نفس
ذلك المخلوق العجيب، أحلَّ فيه عند الولادة كما يزعم أفالاطون، أم بعد الحبل بأربعين

يوماً إن كان ذكرًا، وثمانين إن كان أنسى، وهذارأي أرسطو المعلم الإلهي وعليه مار توما. فالأستاذ يجب الفلسفة وله فيها جولات تُدَرِّج فتُشكِّر.

حقاً إن الشعراء في كل وادٍ يهيمون، ولكن العقاد يهيم وهو غير شاعر، إنه يقول الشعر كالزجل وهاك البرهان: يبدأ الرجال اللبناني كل دور بآخر شطر من الدور السابق، وكذلك يفعل العقاد، وإن كنت تتهمني فاسمع قوله:

في مدى يوم لحوم وعظام قبلما تتقنها الأيدي الكرام نسقت أنواعها وهي حطام	هذه الروعة هل تجمعها لا ورببي بل دهور غبرت قبلما تتقنها الأيدي التي
--	---

انتبه جيداً، فهو يهدى إليك رأي داروين منظوماً، ثم يقول:

وأباحوا لي من الزاد المرام قلتُ هذا وعلى الدنيا السلام هوة الغيب وفي الثغر ابتسام	إن نفوني اليوم من دنياهم ثم قالوا ما تشاِمنا فخذْ قلت هذا وتقدمت إلى
---	--

أليس هذا كأسلوب الزجل؟ وما في فصاحته هذه خير، فهو دون عروضنا البلدي شاعرية وتصوراً وعاطفة، وزاجلنا لا يقول: قبلما تتقنها الأيدي الكرام، ولا يذكر حبيبه كالقصّاب فيقول: لحوم وعظام.

ونمر بأربعة أبيات عنوانها «مائدة» أحسن الشاعر الرمز إليها والتعبير عنها:

مائدة أسرف في طهيها عشرين عاماً عبكري الزمان مدت لنا طوعاً فما عذرنا	إذا تركنا لقمة في الخوان
--	--------------------------

للأستاذ تهنئتنا الحارة بهذه المائدة الدهرية التي أوحىت بيت شعر. أما «سعادة في قمم» فأسطورتها تافهة، ومثلها «عيد ميلاد» التي ألف بها العقاد ثالوثاً من الشمس والمسيح والحبب صاحب العيد، وقد وصف الشاعر ثالوثة الجديد بمنظوم دون النثر الوسط، وإليك نموذجاً منه لتحكم عنـي:

النور والحسن واليقين	تحتفل اليوم في مكان
----------------------	---------------------

أما فك هذه الرموز الهيروغليفية فهكذا: النور للشمس، والحسن لصاحب العيد، واليقين للمسيح، والثلاثة ولدوا في يوم واحد، فافهم ولا تنشغل عمّا بقي من بлага ساحرة:

إحدى وعشرين من سنين قد تم في أوجها القران

أي عمر صاحب العيد ٢١ ربيعاً.

فَلْيِمِضْ مَا شَاءَ فِي أَمَانٍ	ثَالِوثُكُمْ تَمْ بَعْدَ حِينَ
بِالْحَمْدِ فِي الْعِيدِ وَالْغَنَاءِ	وَلَيَهْتَفِ الْمَنْشَدُ الْفَصِيحُ
لَعَشْقُ الْأَرْضِ وَالسَّماءِ	كَلَاهْمَا مَغْنُمْ رَبِيعٌ

قد لا تصدقني وتقول في قلبك: هذا كلام منحول. لا والله، أنا شكت مثلث، وقد فرقت عيني مرات وحملقت جيداً لأنني كدت لا أصدق أن أديباً كبيراً كالعقاد يذيع شيئاً كهذا على الناس، ولكن وهي الأربعين هي يُرْزَق فافتتح «ص ١٣١». ونمر «بنبضات جديدة» فنهفو إليها ولا نقع إلا على سراب، وتسير قافلتنا في هذه الصحراء، فنبلغ فصلاً جيداً عنوانه «قوميات واجتماعيات»، أوله قصيدة عنوانها «إلى المحسنين» أُلقيت في احتفال سنوي لجماعة بطنطا سنة ١٩٣٠، فاسمع بعضها:

لَبِيكُمْ لَبِيكُمْ أَجْمَعِينَ	يَا جِيرَةَ الْإِحْسَانِ وَالْمُحْسِنِينَ
— لَارِيب — أَنْ يُسْمِعَ الْمَلْهُوفَ حَقَّ لَهُ	مَنْ يُسْمِعَ الْمَلْهُوفَ حَقَّ لَهُ
مِنْ عَيْنِ شَمْسٍ لَا تَرَاهَا الْعَيْنُونَ	مِنْ عَيْنِ شَمْسٍ جَئْتُكُمْ نَاهِلًا
بَنَاتُهَا فِي الْخَيْرِ صَنَوْ الْبَنِينَ	حَيَّيْتُ فِي مَحْفَلِكُمْ أَخْوَةً
وَكَلَّكُمْ آمِنَةً أَوْ أَمِينَ	مَرِيمَكُمْ أَخْتَ عِيْسَاكُمْ

ومن روائعها:

يَا غَارِسِيَ الْإِحْسَانِ فِي طَنَدَتَا مَا خَصِبَكُمْ فِيهَا بَمَاءُ وَطَيْنٌ

وطنّدتا لغة في طنطا، وقد تهم علماء اللغات القديمة، والمؤلفين بالأثار. وللشاعر ما لا يجوز لغيره، ويلي هذا البيت الأخير نظم بعض آيات الكتاب العزيز ببراعة يقصر عنها حليم:

ظل ظليل وجنى رحمة ريان يؤتي أكله كل حين

ويعقب هذه أبيات وجهها إلى غاندي يوم إفطاره، منها بيت يعلمنا فيه العقاد نظرية التقيح للجدرى وغيره، إذ يقول لغاندي:

خذْ من قراره دائهم لدوائهم بعض السقام ضمان

ومَنْ يقول بعد هذا لا جديـد تحت الشمـس؟!

وتلي الدرة «الطنـدوـية» قصيدة «الاستقلـال السـورـي»، وقد قضـينا لها ما يـجب مـنـذـ ثلاثة سنـوات وأـكـثـرـ، وهـأـنـدـاـ أـسـرـدـ لكـ خـتـامـهاـ الـبـيـعـ لأـذـكـرـ بـذـكـرـ الجـمـالـ الفـنـيـ:

وـخذـواـ التـهـانـيـ منـ مـهـنـئـ نـفـسـهـ بـغـدـ يـطـالـعـكـ بـالـاسـتـقـلالـ

أما رأيت أنوار الجمال الفني تتدفق من: خذوا التهاني، ومن مهني نفسه، ومن يطالعكم؟ أما المعنى فليس ظاهره كما تسمع وتقرأ كل يوم: نهني أنفسنا ونهني بكم الوظيفة ... إلخ. بل هنالك أسرار دفينـةـ لا يـعـلـمـهاـ إـلـاـ اللهـ وـالـرـاسـخـونـ فيـ الـعـلـمـ منـ شـرـاحـ العـقـادـ. عـابـ العـقـادـ عـلـىـ شـوـقـيـ شـعـرـهـ الـقـومـيـ الـاجـتمـاعـيـ وـانتـقـادـاـ غـلـيـظـاـ، وـلـماـ حـاـولـ هوـ أـنـ يـقـولـ مـثـلـهـ وـقـفـ حـمـارـ الشـيـخـ فـيـ الـعـقـبةـ!

أما بـابـ «ـفـكـاهـةـ»ـ فـيـتـأـلـفـ منـ عـشـرـ صـفـحـاتـ لـاـ فـكـاهـةـ فـيـهاـ، شـبـهـتـ فـكـاهـةـ العـقادـ بـفـكـاهـةـ صـاحـبـ ليـ كـانـ يـقـولـ فـيـ نـهاـيـةـ نـكـتـهـ: اـنـتـهـتـ اـضـحـكـوـاـ!ـ فـلـيـتـ عـقـادـنـاـ يـلـحـقـ بـدـيـوـانـهـ لـيـدـلـنـاـ عـلـىـ مـاـ يـحـسـبـهـ فـكـاهـةـ!

أما وقد أعييت ولم أجد تفكهـة واحدة فخـذها من قصيدة الاستقلال السوري ف تكون
فاكـهة في غير أوانـها، كما يقال:

بوركت من وطن يجل شهـيدـه في حـيـثـما أـلـقـى عـصـا التـرـحال

هل طرق سمعـك قبل الآـن مـثـل «في حـيـثـما»؟ هذا هو السـحر الـحـالـل بـعـيـنهـ، فـتـعـلـمـهـ
ولا تـعـمـلـ بهـ.

أما «متـفـرـقاتـ» وهي عـشـر صـفـحـاتـ أـيـضـاـ، فـفـيـهاـ — والـحـقـ يـقـالـ — بـيـتـ جـيدـ وـهـوـ
مـطـلـعـ رـثـاءـ حـافـظـ:

أـبـكـاءـ وـحـافـظـ فـيـ مـكـانـ تـلـكـ إـحـدـى طـوارـقـ الـحـدـثـانـ

ولـوـ أـرـجـعـناـ تـفـارـيقـهـ لـأـصـحـابـهـ لـمـ يـبـقـ لـلـعـقـادـ شـيـءـ، وـهـنـاـ يـنـتـهـيـ «وـحـيـ الـأـربعـينـ»،
أـعـانـنـاـ الرـبـ وـإـيـاكـ عـلـىـ اـحـتمـالـ «هـدـيـةـ الـكـروـانـ»، وـ«عـابـرـ سـبـيلـ».
إـنـنـيـ لـأـرـحـمـ الـعـقـادـ رـحـمـتـيـ لـقـبـيـحةـ تـحـشـرـ نـفـسـهـ بـيـنـ الـحـسـانـ وـهـيـ مـؤـمنـةـ بـجـمـالـهـ!
فـمـاـ أـكـثـرـ الـمـغـرـورـينـ فـيـ الدـنـيـاـ! وـأـوـلـهـمـ الـعـقـادـ الشـاعـرـ الـذـيـ يـرـدـدـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ نـفـسـهـ: ﴿وَاللهُ
مُتِّمُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

(٢) هـدـيـةـ الـكـروـانـ «نـمـطـ ٣٣ـ»

مـوـضـوـعـ بـحـثـنـاـ الـيـوـمـ «هـدـيـةـ الـكـروـانـ»، وـهـذـاـ صـنـعـ كـ «وـحـيـ الـأـربعـينـ» عـامـ ١٩٣٣ـ
وـالـغـرـيـبـ أـنـ يـكـونـ «هـدـيـةـ الـكـروـانـ» لـهـ ماـ قـبـلـهـ وـمـاـ بـعـدـهـ، وـهـوـ خـيـرـ نـظـمـاـ مـنـ «الـوـحـيـ»
وـ«الـعـابـرـ»، بـعـدـ مـاـ ظـهـرـتـ مـخـاـيـلـ النـجـابـةـ عـلـىـ عـقـادـ «هـدـيـةـ الـكـروـانـ»، أـمـحـقـتـ فـيـ «عـابـرـ سـبـيلـ»
الـذـيـ تـحـسـنـ قـرـاءـتـهـ تـحـتـ مـصـبـاحـ السـكـةـ الـحـدـيـدـيـةـ الـأـحـمـرـ خـوـفـاـ مـنـ التـصـاصـ.
مـاـ أـفـلـحـتـ سـفـارـةـ «هـدـيـةـ الـكـروـانـ» إـلـىـ عـالـمـ الطـيـرـ، بلـ كـانـتـ كـرـحـلـةـ مـلـائـكـةـ اللهـ إـلـىـ
قـوـمـ لـوـطـ، رـضـوـاـ مـنـ الغـنـيـمـةـ بـسـلـامـةـ الجـلدـ. فـدـوـاوـينـ الـعـقـادـ ثـلـاثـتـهـ بـيـضـاتـ دـجـاجـةـ
وـاحـدةـ، كـلـهاـ طـرـحـ. لـأـحـدـثـكـ الـيـوـمـ إـلـاـ عـمـاـ لـاـ يـجـوزـ السـكـوتـ عـنـهـ، الـعـقـادـ طـمـاحـ وـفـيـ
نـفـسـهـ آـمـالـ، وـلـيـسـ فـيـ الـقـدـرـ فـطـانـةـ. يـرـيدـ أـنـ يـكـونـ أـمـيـرـ شـعـراءـ بـلـ يـرـيدـ أـنـ يـكـونـ فـاتـحـاـ،
وـهـذـاـ هـيـنـ عـلـيـهـ، فـهـوـ جـدـ مـطـلـعـ عـلـىـ الشـعـرـ الـعـالـيـ، وـلـكـنـ الـقـرـيـحةـ حـرـونـ لـاـ تـسـعـفـهـ،
وـمـوـسـيـقـاـهـ مـوـسـيـقـىـ صـنـجـ مشـقـوقـ، وـأـغـرـبـ مـاـ فـيـ شـعـرهـ أـنـهـ كـلـهـ باـجـ وـاحـدـ، أـرـوـعـهـ تـحـتـ

الوسط، ورذله دون كل رذل، فهو بهذا يبُدُّ الشعراً طرًّا. والعقاد يؤيد قوله ويشير إليه من حيث يدرى أو لا يدرى، إذ يقول مخاطباً الكروان:

زعموك غير مجَّد الألحان ظلموك بل جهلوك يا كرواني

إننا لا نظلم ولا نجهل، وقد آلينا أن نقول للأعور: أنت أعور! فليطرطر العقاد ما شاء، فليس له غد في عالم الشعر.
ويقول في قصيدة أخرى:

وإنك مفرد في الطير لحنًا وما استقردت في تلك الخصال
إذا شابهتنا في النقص حينًا فأين «المشبهاًتك» في الكمال

هذارأي العقاد في نفسه، وهو يحدث الكنة لتسمع الجارة، أما نحن فما نراه يشبه
الشعراء إلا في النقص، ويقصر عنهم في الكمال، وما أكثر الأدلة على ذلك، خُذْ مطلع
قصيدة عنوانها «على الجناح الصاعد»:

حادي الظلام على جناح صاعد يا أرض اصغي يا كواكب شاهدي

وقابلة بشطر بيت لشاعر وسط هو ولـي الدين يكن:

وهذه بحمد الله مني براءة فيا أفق سجلها ويا أنجم اشهدي

لتـرى الفرق بين شطرين تـكاد تكون ألفاظهما واحدة، وحسبك هذا دليلاً على ذوق
العقـاد الفـني، إذا كان العـقاد يصـأى كالـفـرـخ علىـالـجـنـاحـالـصـاعـدـفـيـقـولـ:

أنا صائد لـصـدـاكـلـسـتـبـصـائـدـ لك أنت يا كـروـانـفـأـمـنـصـائـدـيـ

فكيف يكون على الجناح النازل؟ وللأستاذ أبيات يشفع فيها للغراب، فعسى أن يقوم — بعدها — من يشفع له بين طيور الشعر، ويرق لفاقته الروحية ومجاعته الفنية، فهو كما قال عن نفسه:

شاعرًا عاشقًا وقارئ كتب قرأ الكتب دارسًا فأطلا

ولكنه عاجز عن تحويل تلك القراءة شعرًا؛ لأنه لا يستمرئ ولا يهضم، والقراءة وحدها لا تعمل الشعراء. الشعر يحتاج إلى الكيمياء التي تخلق من اتحاد عنصرين عنصرًا جديداً، وهذا لا يحسنه العقاد.

والأستاذ يحب القبلة على رضا لا قنصلًا كما يأكلون «التبولة» عندنا، يريد على كبر هامته أن يزق كالفرخ، ولهذا قال:

ويزعمها قبلة من أخٍ ففيما إذن قطفها في حذر؟

وفي «ص ٥٨» يقوّي كذلك الشاعر في:

يا مبرمًا أهدى حمل خُذْ وانصرف ألفي جمل

ومن أين له طرافـة تلك؟ فهل من يقول لي ماذا يعني بقوله:

طلع الصبح حزيناً عاطلاً
أتراه كان بالقرب يزان
وسَرَّت أنفاسك يا حسرتا
أين أنفاسك يا زين الحسان

إن «يا زين الحسان» رقيقة ناعمة لا تشكو من شيء، ولكنها ليست كزين الشباب لأبي فراس. إن للكلام مواطن يدركها الشاعر الملام ويرشده إليها ذوقه الفني، وهذه الغريزة ضئيلة جدًا عند العقاد، لم يبلغ بعد ما نعني، فاسمع غير مأمور:

وتجلّى الباب لي عن زائرٍ من أودائي كأننا أخوان

أسمعت قبل اليوم بتجّي الباب؟ وهل حلمت بركاكة كالتي تلي هذا التجلي؟ وأن
سيقوم في القرن العشرين مَن يسميها شعراً في ديوان؟ لم ينته الشوط بعد فاسمع:

كيف يكسى الود ثوب الشنان	فتعلمت ولبّي شارد ...
بل دميم قال: زاه قلتْ قان	قال لي الأفقُ: جميلُ قلتُ: لا
نحو عمرو قلتُ: كلا بل فلان	قال: زيدُ قلتُ: حاشا فانثني
أسلام؟ قلت: بل حرب عوان	: فمضى يعجب مني قائلاً

الأستاذ ينظم نظرية اختلاف النظر باختلاف الأحوال والأخلاط، فافهم إنْ كنتَ
لبيباً! أما قصيدة «ساعي البريد» فصالحة جدًا للترتيل الكنائي، وهي على لحن:

فزت بكل منايا	إن ساعدت عذرياً
اسعي بمحو خطايا	يا عين ذات الظهر

وإليك قول العقاد للموازنة:

في ذلك الوطاب	لو لم يكن خطابي
يا ساعي البريد	لم تטו كل باب

ليت شاعرنا «العالجي» يطالع رواية إيفان بونين — ضحية الحب — ليعرف كيف
يتحدث الأدباء الكبار عن الخطاب «المكتوب» في العرف المصري.
ويحدثنا في صفحة (٦٥) عن قبلة بغیر تقبیل، أی قبلة لاسلكیة، أو لحس الفرن
على ریحة الکبة:

كلها غير ضمٌ ثغرٌ لثغر	تمت القبلة التي نشتتها
وهوئ نية وخفقة صدر	تمَّ منها شوق ورفٌ شفاهٍ

حدثنا ابن خلدون عن أحدهم قال: ذاكرت يوماً صاحبنا أبا العباس بن شعيب، وكان المقدم في البصر باللسان لعهده، فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها له، وهو هذا:

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين جديدها والبالي

فقال لي على البديهة: هذا شعر فقيه. فقلت له: ومن أين لك ذلك؟ فقال من قوله: ما الفرق؛ إذ هي من عبارات الفقهاء ... إلخ. ونحن نرى في أكثر دواوين الأستاذ نظماً لا ندري بمَن نلصقه، كقوله مثلاً:

هكذا الحب دواليك فَمَن لم يكن قط حبيباً

وعلى ذكر ابن خلدون نقول: إن في شعر عقادنا شيئاً كثيراً من نثر ابن خلدون، والعقاد متأثر جداً بأسلوب صاحب المقدمة وعلومها، وقد تكون هي التي أوحت إليه «عدل الموازين»، فقد جاء فيها ما يشبه ذلك (ص ٤٦٠، طبعة بيروت). وهناك قصيدة « وسلم » يبيع فيها العقاد الكون كله من حبيبه بيعاً صحيحاً باتاً تماماً بالتسلم والتسليم، فأين هتلر وموسوليني يقصداه ويريحها المستر تشمبرلين من متعابه ومظلته التاريخية!

لسنا نطالب الأستاذ بلات نظم، ولات نثر (ص ٥١)، فأخوه المتتبني قال: « حتى لات مصطبر ... » وعليه أن يفوتة، ولكننا بكل حشمة ووقار ننبه إلى قوله عند تسليم الزهر:

وسلم زهرك المحبوب في السهل وفي النجد
تراه ضاحك العينين تراه ناضر الخد

فجَزُّم «تراه» واجب هنا وهو لا يحتمل التعليل والتأويل، وإن رأى فعل أمر غير جازم الجواب فيكون من غير هذا الضرب. وللعقاد قصيدة في «المنديل» يفضل فيها الكتان على الحرير، زاعماً أن «الحرير نسج الديدان التي تذگر الإنسان بالموت والقبر، فيجمد من يذكرها»، هذا الشرح نثراً أما النظم فهذا:

على المحك

فماذا تنسج الديدان من ذكرى لمن سعدا
وما الديدان والذكرى ومن ذكر اسمها جمدا

وما ذكر «يحمد» في نثره إلا لقوله جمدا في شعره، قلت: إذن ومن يز التفاحة يذكر
الزبل، ومن يأكل البيض يذكر ما يذكر. وأخيراً، والذي يراني ويرى العقاد مثلاً يذكر
أشياء كثيرة، فما أبشع تقليد العقاد وأثقل فلسفته! يريد أن يجارى ابن الرومي بهجو
الورى، وابن المعذ بـ«بهجو القمر، وإنما يدرينا أنه شاعر كبير؟!
وتمر نفحة شعرية في صحراء العقاد لا أدرى من أين هبّت؟ أحب أن تستنشقها
معي لتفرج عنك وتقول: سبحان محيي العظام وهي رميم. العنوان «حلم اليقظة»:

أين مضى الحلم الذي كنت أراه هنا
إذا صحوت والتفت عن شمالي موهنا

* * *

وكان عندي حلماً في يقظة الليل المديد
أسمع من أنفاسه نسمة فردوس بعيد

والعقد معاشه هين تكفيه بوسة، اقرأ قوله في ثراثة (ص. ٨٠)، ألا تراه يقول
الزجال المصري الذي حدّثنا عنه الأستاذ المازني، وروى من قوله في الرسالة (عدد ٢٧٧):

يا بت أنا بدبي أبوسك بس أبوسك
وأطرب وأحظى بكؤوسك رقّي شوية

وفي «النجوم السواغب» يوزع العقاد البوس بلا حساب، يهب نسيم الليل عشرين،
والروض كذلك، وهلم جراً:

وخد يا نسيم الليل عشرين قبلة وخد مثلاها يا روض إنك غاضب

أي لا تزعلش، وهكذا يعدل الأستاذ ويجب الخواطر كلها، وما على الكريم شرط.

أما هذه الواو في: «ومسكنة هذى الكواكب» (٨١) فخطأ شنيع من كاتب حريص على اللغة وقواعدها، ونحن لا نغفر له ما دمنا نعلم أولادنا: البلاغة معرفة الفصل والوصل.

أما «كلماتي» فقصيدة حركتها خذروفية كمفهوف بديع الزمان، وإذا شرح ابن الرومي بيتاً ببيوت، فالعقد يشرح كصاحبه نثراً وشاعراً، مفردات ومعاني حتى مثل: عن كتب، وشتات، وكوى، وكثيراً ما يكتب فصلاً في هذا الديوان وينظمه شعراً، وهو على حق لأن نظمه كما قلنا لا يؤدي فكرته كنثره. اقرأ (١٣١).

لا أحذث شيئاً عن قصيده «صنوف حب»، بل أحيلك على الرسالة لتسمع الأستاذ سيد قطب ينادي عليها كصاحب صندوق الفرجة – صندوق الدنيا بمصر: تفرج يا حبيبي على عنتر، صاحب السيف البثار، عنتر أبو الشوارب ... والعقد يغزو صاحبه ابن الرومي أحياناً فيئوب بالنهاب وبالسبايا، مثل صبغة الله، ومثل:

علق الله في عذاريك مخـ لـاة ولكنـها بـغير شـعـير

فيقول:

أليس كفى هذا السـوـاد فـزـدـتـه سـوـادـ غـرـابـ فـي لـحـاكـ مـعـلـقـ

كم يكون للرجل، لحية أو لحى يا ترى؟ العامة لا الشعراء عندنا يقولون: «تضرب في لحاك»، فهل أخذها المعلم من هناك؟ ويزيد بيت العقاد رونقاً وبهاءً وفتناً وجمالاً قوله: أليس كفى. فيا ضيعة التعب في الدرس وقراءة الكتب الطويلة.

أما قصيدة: البيلا، البيلا، فقد ذكرناها بما تستحق في غير هذا الموضع، وليس هنا إلا تصفية الحساب نهائياً بيننا وبين هذا الفاضل.

والعقد هجاء ولكنه لا يُقرأ؛ لأن الهجاء يحتاج إلى شاعرية فذة، والعقد لم يكن يوم قسمة الحظوظ على الشعراء. ويختتم هدية الكروان ببعض الرثاء، والذي عندي أن قصيده في رثاء حسن الحكيم تشبه الشعر الرصين.

حاشية طاووسية

كان الذي خفت أن يكون! وسألني أحد أدباء العاصمة وهو لا يصدق أن الشعر الذي رويته من نظم العقاد، ظنَّ أنني نحلته إياه تهكمًا به، فنفيت التهمة عنِّي، فقال: إذن اخترت لنا أرداً النظم؟ قلتُ: من ذا وذا، ولو تعلم أن «فيك من كل شيء» آية العقاد الكبرى لما قلتُ هذا، لقد نشرتها أرصن المجالات وأخظرها كما نشرت غيرها من آياته، وكلها بعون الله من هذا الحوك. إن دواوين العقاد فوق الأرض لا تحتها، فاطلبها إن تشكَّ بأمانتي.

وافتلقنا على أن أنشر له في أول مقال نماذج من خير ما نظم العقاد، وعُدْتُ أقلب الدواوين الثلاثة، فرأيتها كأبناء بنت الحوشب بالمللوب، وبعد حيرة غير قصيرة خطرت بيالي العودة إلى ما نشره مار توما العقاد — سيد قطب — دليلاً على شاعرية صاحبه وأسلوبه ليقرأ حضوراً حصرياً في عين «الرافعين»، ووفاء بوعدي لصاحبِي ذاك أنشر هنا شيئاً من ذلك الشعر وأدع الحكم للقراء، ولا حق للعقاد على فشاهده من أهله، ولا بد لي — قبل نشر نماذج سيد قطب من شعر العقاد الرفيع — من أن أعود إلى الوراء، إلى سنة ١٩٣٤، فبين يدي عدد من مجلة الأسبوع أهداه إلى أحباب العقاد في ذلك الزمان، العدد رقم ٣٥ وتاريخه ٢٥ يوليو سنة ١٩٣٤، وإليك ما كتبه سيد قطب تحت عنوان «معارك النقد في مصر»:

فأما هدية الكروان فقلت عنها: إنها منتهى النضوج الفني للعقاد، إنها سلمت من بعض أشياء كانت تغض من الجمال الفني الكامل لبعض شعر العقاد، وهي ما أسميتها «قسوة القالب»، وعنيت به أن يحتاج الشعور الطليق في ثوب أضيق وأقسى مما يلائم هذا الشعور الطليق.

تلك كانت أرائي التي أبديتها بعد دراسة كاملة، والتي لا زلت أعتقدها، رغم ما دار من الأحاديث بشأن، ولكن فليسمع الناس ما أعقب هذا النقد من أحاديث ومن غضب ومن عتاب. فأما العقاد فهو ساخط حانق؛ ساخط لأنني جمعت بينه وبين أبي شادي في مقال، وحانق لأنني أقول شيئاً عن قسوة القالب في بعض شعر العقاد، وأنقاذه فيعلن هذا السخط، وهذا التبرم، وينذر أنه لا يفهم معنى للجمع بينه وبين أبي شادي في مقال. وهو كذلك لا يسلم بقسوة القالب في بعض شعره، ولا ببيح لي أن أوجه هذا النقد لأن منشأه هو

قصوري عن فهم شعره، وأن على الناقد أن يرتفع لمستوى الشاعر، وليس على الشاعر أن يهبط لمستواه.

وكان العقاد مهتاجاً ولكنني كنت هادئ الأعصاب، فشرحت النقطة الأولى بما أعتقد، وأما النقطة الثانية – قسوة القالب – فكنت فيها عند موقفى الأول كذلك، وذكرت أن الناقد الذي يكتب محاضرته عن ديوان «وحى الأربعين» للعقاد، فيفهم دقائقه فيما يرضى عنه العقاد لا يقصر عن «هدية الكروان»، وهي أسهل من «وحى الأربعين»، «... كذا» وافتقتنا وفي نفس العقاد شيء أحسه، ولكنني آسف له وإن كنت لا أنوي التأثر به. (الأسبوع عدد ٣٥).

وتمر الأيام فيكتب سيد قطب، بعد أربع سنوات وثلاثة أشهر وستة أيام بالضبط (الرسالة ٢١ أكتوبر ١٩٣٨) مدافعاً عن أسلوب عقاده فيقول:

بل إنني لأريد أن أفهم كيف يكون الأسلوب العربي الرصين المشرق، إذا لم يكن كالقطعة الأولى من الديوان الأول بعنوان «فرضة البحر» حين يقول:

يا ليت نورك نافع وجدا	ني قطب السفين وقبلة الريان
أرق يقلب مقلتي ولها	يرجى منارك بالضياء كأنه
تسري مدلهة بغير عنان	وعلى الخصم مطاح من ومضه
باب النجاة وموئل الحيوان	تحفى وتظهر وهي في ظلمائها

بل كيف يكون الأسلوب العربي المشرق إذا لم يكن مثل قصيدة «عزاء» حين يقول:

أربع عليك لكل يوم كوكب	يا شاكّياً وصباً أحاط بنفسه
أني لأجلد لهموم وأصلب	حمل فؤادك ما يئودك حمله

فأما حين يتطلبون الرصانة وقوة الأسر وجزالة الأسلوب وفخامة التعبير، فإن الجزء الأول من ديوان العقاد يجيئهم إلى طلبتهم في عدة قصائد، أذكر منها «وقفة الصحراء» وفيها يقول:

هل فيك من ود لغير التوهم
فلا تخدعيني إنني لست بالظمي
إلى الآل ركب الناس جموعاً فاعلمي

هضابك أم هذى أواذى عيلم
تخايلت كالدنيا وأقفرت مثلها
أيا ربّة الآل الخلوب وإنما

وأما حين يطلبون السلاسة والعذوبة، فما أكثر ما يجحب ديوان العقاد
الأول وحده إلى ما يطلبون:

الطير ينشد والأفنان عيدان
إنني ظمنت وأنتاليوم ريان
وهكذا الدهر آن بعده آن

يهنيك يا زهر أطياف وأفنان
طوباك لست بإنسان فتشبهني
هذا الربيع تجلّى في مواكبه

وبعد سرد هذا الشعر الذي نقلت بعضه لك إثباتاً لأمانتي الفنية يقول (الرسالة)
(١٧٨٠):

تلك نماذج مختلفة من أسلوب العقاد، فإذا استغنينا بالجزء الأول وحده فنحن
وأجدون للعقاد كثيراً من شعر الأساليب الفخمة الجزلة، والأساليب الرصينة
المتينة، والأساليب العذبة السلسة، وكل ما يعنيه الأسلوبيون ببدائع الأسلوب.
وَدَعْ عنك ما وراء أسلوب العقاد من معانٍ وفكرة وأحساس وعواالم واسعة من
الفن الفريد.

هذا ما كتبه الأستاذ سيد قطب رداً على الرافعيين، وقد زالت — والحمد لله —
«قسوة القالب» العقادي التي انتقدوها، وصار أسلوب العقاد عربياً رصيناً مشرقاً، قويّاً
الأثر جزاً، فخم التعبير سلساً، عذباً متيناً، في لغة قطب، وناعماً لييناً كقراء القلطط
والثعالب في لغتي.

قد يكون الشعر كالفحم يصبح أملاساً إذا طمر زمناً طويلاً، فليطمر العقاد دواوينه
ولينتظر.

أما صاحبي بيروتي فلينتظر في هذا الشعر الذي سردناه له، فهو خير ما في يدي
من نظم العقاد، والعقاد ممن يرفعهم الله إلى أسفل — في النظم!

(٣) عابر سبیل «نمط ۳۷»

«عبر سبيل» أحدث ما أخرجه معمل فورد للشعراء، يتلوخ في الأستاذ عباس كعادته مواضيع ينظمها كلاماً موزوناً مقفى لتكون أدبًا مصريًّا، ومثله كذا في أيام الولودية خطط المدينة وبنى الشوارع والبيوت ... رأى العقاد كما قال في نقده لأحمد شوقي:

وقد نظرت إلى العصور الحديثة بعد الإسلام، فلم أعثر على شاعر واحد أنيبته مصر يُذَكَّر بين أعلام الشعراء، وتسمع له رسالة من رسالات الحياة، فكل شعرائها عرب أو مقلدون للعرب، وكل هؤلاء وهؤلاء عالة على الأدب، ونفيافية قضائة أولى بها أن تتنبذ وتهمل.

ونظرت إلى العصور القريبة فأحصيت من نظم شعراً في مصر منذ خمسين سنة، فإذا هم كلهم – إلا قليلاً – يرجعون إلى أنساب غير مصرية ويعُرسبون في المصريين، وليسوا منهم في غير النشأة والإقامة، وأغرب من هذا أنك لا تجد في هؤلاء واحداً يتاجر على النظم بعد الثلاثين أو الأربعين، لأنما هي شاعرية الشباب التي تخفّ بهم إلى النظم والغناء في إبانهما، وليس هي بشعاعرية البيئة وسليقة القومية التي تفتّ فتية في الإنسان طول الحياة. (ساعات بين الكتب ص ١٠٣).

لعل أدركت مثلـي أن العقاد ينظم «عن سابق تصور وتصميم» كما يعبر المحامون، وبظل بنظم حتى يقتل الكثرين من قرائه فتحل عليه عقوبة المتعبد.

ليتنى أترجم لك نقد جورج ديهامل لشعراء فرنسا الذين يفتشون عن مواضيعهم في قاموسهم لاروس، كما يفتش العقاد عنها في السكة. ارجع إلى هذا الفصل الطريف في كتابه «الشعر والشعراء» (ص ٦٤) واذكرني بالخير، فالعقد يلتقط مثل أولئك، مواضيع «عاير سبيل» ليؤدي رسالة مصر التي لم يؤدها شاعر مصرى — فكل شعرائها عرب أو مقلدون للعرب — فهو إذن «عاير سبيل» حقاً في أزقة الأدب، يموش كروم مصر بعد ما نامت النواطير عن ثعلبها. حاول تمثيل الكناة المحروسة في مدينة الشعراء، فكان نموزجاً غير مرغوب فيه، وإنما هذه المواضيع العجيبة الغريبة التي يعجز عنها الفحول فكيف بالثنين؟ قال النابغة الديبيانى:

واستعجمت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلمنا ذات أخبار

هكذا يكتفي الشاعر العربي بإيقاظ شعورك ويتركك في شغل، فشعارهم خير الكلام ما قلّ ودلّ، أما العقاد فركب كتفي «البيت» كأنه غريمي، وأنطقه بالكلي والجزئي حاسباً أنه يخلق أدبًا مصريًّا، كأنما ليس في بيروت وحيفا ودمشق وبغداد وجدة بيوت تُؤجّر، وفنادق فيها الناس من كل الأجناس، ودكان كواه وواجهات دكاكين، كما سترى إذ نعرض عليك حوائج «عاشر سبيل».

أنطق العقاد البيوت بكل رخيص مبتذل، كما فعل في قصidته «فيك من كل شيء»، التي أزعم أنه استوحها من زميله شكسبير في قصائد الغزلية Sonnets رقم ٥٣ و٩١، كما استوحى «ربة شعره» من رقم ١٠٣، و«طلع الصبح كئيبًا عاطلاً» من رقم ٩٧، و«الظن بالأهل والحرم» من رقم ٩٣، راجع أناشيد شكسبير هذه لتعلم كيف يجني الشاعر العظيم أضاميم الزهر، وكيف يحشّ من يجمع العلف.

خبرنا النابغة أن الدار عندها أخبار كثيرة وما سألها شيئاً، أما العقاد فكان مستنبطاً بليداً؛ افتتح «عاشر سبيل» بقصيدة عنوانها «بيت يتلكم»، فوصف السكان الذين تعاقبوا عليه وأبقوا فيه مخازيهم، كالذي ردَّ مدح ابن الرومي، وكان العالم أحد المستأجرين فقال فيه العقاد:

حشا بالورق اليابس والأخضر حيشاني

أظن «حيشاني» خطأ صوابه حيطاني، إلا إذا كانت من غريب العقاد، أو لوناً من ألوان الأدب المصري الذي يخرشه! أما نظرية النشوء والارتقاء التي أقام نفسه وصيًّا عليها — بعد الزهاوي — فتجدها في «أمام فقص الجيبون»، قدَّم لها بصفحتين إلا ربَّا من النثر كانتا أشعر من قصidته، فتعلَّم الجلد مني واقرأها، ثم يعطف على الجيبون بقصيدة أخرى لأنه لم يصدق قوله فيه حين زاره أحد أصحاب العقاد، فكانت هذه كالخيارات عند رخص السعر ينفخ البطن ولا يغذّي.

وينتقل إلى «واجهات الدكاكين» وأصداء الشارع» و«عصر السرعة» و«عسكري المروّر»، فيقول في هذه كلها شعراً يستحي الوليد أن ينسبه إليه، وشُرُّ من هذه كلها قوله في «طيف من حديد» أي السيارة، فاسمع بعضه:

وظلم وانسجام	ذاك بعد وانسياب
هو طيف لا كلام	أي شيء ثم يجري
طيف يسري في منام	أي شيء ذاك إلا إلـ
سات بالسمع وهـاـيـهـ	يطرق العين وهـاـيـهـ

إن تعقد المعنى فاقرأ الشرح، فنثر العقاد وشعره متكافلان متضامنان. أما «هـاـيـهـات» فشرحها لنا: بـعـدـ جـداـ، لـئـلاـ يـفـوتـناـ معـناـهـاـ، فـكـانـماـ زـيـادـةـ الأـلـفـ الـهـاوـيـةـ اـحـتـمـلـتـ زـيـادـةـ جـداـ، لـقـدـ اـضـطـرـتـ عـبـرـيـةـ الـعـقـادـ إـلـىـ هـذـهـ اللـغـةـ فيـ «ـهـاـيـهـاتـ»ـ وـإـلـاـ فـكـيـفـ يـرـزـأـ الأـلـبـ المـصـرـيـ بـهـذـاـ بـيـتـ الفـرـيدـ، لـوـ يـغـيـضـ النـيلـ وـيـلـزـلـ الـهـرـمـ كـمـ قـالـ بـشـارـةـ الـخـورـيـ؟ـ وـأـحـبـ لـكـ أـنـ تـعـلـمـ أـنـ الصـغـانـيـ روـيـ فـيـ هـيـهـاتـ سـتـاـ وـثـلـاثـيـنـ لـغـةـ، وـصـاحـبـ الـقـامـوسـ أـوـصـلـهـاـ إـلـىـ إـحـدـيـ وـخـمـسـيـنـ، فـلـيـتـ الـعـقـادـ يـسـتـعـمـلـهـاـ كـلـهاـ فـيـ نـظـمـهـ الـعـتـيدـ فـتـكـونـ أـدـبـاـ عـقـادـيـاـ حـقاـ!ـ أـلـيـسـ مـنـ التـجـنـيـ أـنـ تـمـوتـ مـثـلـ «ـهـيـهـاهـ وـأـيـهـاهـ وـهـاـيـهـاتـ»ـ؟ـ وـبـرـىـ العـقـادـ فـيـ مـصـرـ فـنـادـقـ تـجـمـعـ فـيـهـاـ النـاسـ مـنـ كـلـ جـنـسـ فـيـقـولـ:

فـفيـهاـ يـافـثـ حـيـنـاـ وـشـيـتـ

هـكـذاـ يـؤـديـ كـبـارـ الـأـسـاتـيـذـ رسـالـةـ بـلـادـهـمـ وـيـخـلـدـونـ أـمـتـهـمـ فـيـ كـتـابـ!ـ أـمـاـ قـصـيـدةـ «ـبـعـدـ صـلـاةـ الـجـمـعـةـ»ـ فـلـاـ بـأـسـ بـهـاـ، وـهـيـ خـيرـ ماـ عـمـلـ الـعـقـادـ مـنـ شـعـرـ حـتـىـ الـآنـ، فـيـهـاـ وـصـفـ جـيدـ وـتـعـبـيرـ مـقـبـولـ وـدـرـسـ وـتـحلـيلـ لـأـشـكـالـ الـمـصـلـينـ، وـكـلـهـمـ فـيـ نـظـرـهـ ذـوـرـ رـيـاءـ:

لـعـلـهـمـ صـلـلـواـ لـهـ اـرـجـالـاـ	فـاخـتـلـفـواـ مـاـ بـيـنـهـمـ سـؤـالـاـ
فـلـوـ أـجـابـ السـائـيـنـ حـالـاـ	صـبـّـ عـلـىـ رـءـوـسـهـمـ وـبـالـاـ
وـأـلـحـقـ المـخـطـئـ بـالـمـصـيـبـ	

قوـامـ الـشـعـرـ شـيـئـانـ:ـ شـخـصـيـةـ عـامـرـةـ مـسـيـطـرـةـ تـسـوـقـ بـعـصـاـهـاـ وـلـاـ تـسـأـلـ إـلـىـ أـئـينـ،ـ وـمـوـسـيـقـيـ وـخـيـالـ فـاتـنـانـ،ـ وـفـيـ هـذـهـ القـصـيـدةـ تـسـيـطـرـ شـخـصـيـةـ الـعـقـادـ فـتـحـسـ أـنـ أـمـامـ مشـهـدـ حـيـ.

ثم يصف «القطار» و«الحي» و«الدينار»، فيرى المال يجُرّ المال كما يقول العوام، ولا يحرم «كوا الثياب ليلة الأحد» من قصيدة تضحك المجلدية تحت الصليب، وسأحكم هذه المرة فاسمع ببعضها وهو خيرها — بذمتي يا أخي:

إنهم ساهرون
أو غفوا يحلمون
وهم ينظرون
في غد يمرحون

لا تنم، لا تنم
سهروا في الظلم
أنت فيهن حكم
في غد يلبسون

قلت: وفي غد يأكلون ويشربون ويتكلمون ويضحكون ويهضمون و... إلى آخر كل ما انتهى بوا ونون، رحم الله توفيل غوتية ونونيته الشهيرة.
وفي «بابل الساعة الثامنة» يصف صراخ البااعة، وهي قصيدة تقرأ أيضاً، إذا استعنت بالله، ويصبح في «وليمة المأتم» أشنعم عاداتنا فيجيد إن يقول:

شقيل على الحزن أكل الطعا
فيا أيها الناس لا تولموا
فقلت مجاملة الراحلين

وينتقل إلى «سلع الدكاكين في يوم البطالة»، فيقول فيها هذا الشعر الذي أعجز عن نعته:

مقدرات مغلقات محكمات
كل أبواب الدكاكين على كل الجهات
تركوها، أهملوها

ذاك صوت السلاع المحبو س في الظامة ثار

ماذا تقول؟ أَمَا في مصر عاقل ينصح هذا الرجل؟ المروءة يا ناس! انقذوا أحـاكم
وكفوا عنا شعروركم!

راجع «عاـبر سـبيل» فالقصيدة هـنـاك بـجـلـدـها وـعـظـمـهـا، وـفيـ مـكـنـتـكـ أـنـ تـضـيـفـ إـلـىـ
هـذـهـ أـيـضاـ كـلـ ماـ اـنـتـهـىـ بـأـلـفـ وـتـاءـ، مـثـلـ ثـرـثـرـاتـ شـعـوـنـاتـ وـ... فـتـصـيرـ شـعـرـاـ عـقـادـيـاـ.
مـثـلـهـاـ، وـتـزـيدـ فـيـ ثـرـوـةـ الأـلـبـ المـصـريـ.

أـللـهـ أـخـتـنـاـ الـقـدـيمـةـ أـجـمـلـ الصـبـرـ عـلـىـ رـسـالـةـ يـؤـديـهاـ باـسـمـهاـ هـذـاـ الـبـافـنـوـسـ.
الـجـدـيدـ، وـطـوـاطـ أـنـاتـولـ فـرـانـسـ.

تعذرني إن عدت بك إلى الوراء لـأنـقلـ إـلـيـكـ أـبـيـاتـ «عـصـرـ السـرـعـةـ» فـهـيـ مـصـرـيـةـ
عـالـمـيـةـ. قـالـ لـأـفـضـ فـوـهـ وـلـاـ عـاـشـ مـنـ يـشـنـوـهـ، وـأـوـلـهـمـ هـذـاـ الـمـارـوـنـ عـبـودـ الـغـاشـمـ الـجـائـرـ،
اسـمـعـ:

طار في الذرى	هام في السهول
مسرع الخطى	حينما يجول
ماله عدا	عدوة الوعول
ماله سطا	سيطرة السيول
في صعوده	يشبه النزول
تلك سرعة الـ	هارب العجول
تلك سرعة الـ	حائز الملول
ذلك سرعة الـ	آثم الخجول
أين سرعة الـ	يسعي والوصول

وـأـيـنـ مـارـ تـوـمـاـ الـعـقـادـ —ـ سـيـدـ قـطـبـ —ـ يـشـرـحـ لـنـاـ هـذـهـ الدـوـاهـيـ؟ـ فـوـالـلهـ، وـحـقـ مـنـ
نـفـسـيـ بـيـدـهـ، لـوـ قـدـمـ لـيـ أـحـدـ تـلـمـيـذـيـ وـرـقـةـ كـتـبـ عـلـيـهـاـ مـثـلـ هـذـاـ الـحـكـيـ، لـصـفـعـتـهـ بـهـاـ
وـأـعـطـيـتـهـ صـفـرـاـ.ـ وـمـاـ أـنـاـ فـيـ ذـاـ يـاـ لـهـمـدـانـ ظـالـمـ،ـ أـمـيـلـ هـذـاـ يـتـهـكـمـ بـشـعـرـاءـ الـعـربـ وـيـقـولـ ماـ
قالـ؟ـ

ويصف «المنازل في الشتاء»، و«الطريق في الصباح»، و«معرض البيت»، و«متسلّل»، و«بعد الغروب»، وكلها من الباچ العقادي الفريد. والغاية تأدية الرسالة العظمى، رسالة الأدب القومي، رسالة البيئة، رسالة الفرعونية، فيا خجلة الذي طغى من هذه المومياءات! أما «أناشيد وأغاني» ففيها رائحة الشعر، فالنشيد القومي والنшиيد الآخر «على مقتضى الحال»، والأناشيد التي نظمت للأنسة نادية تشبه الشعر لأنها تقليد للعرب. ولا غرُو أن أجد الأستاذ في «على مقتضى الحال» الذي طعن فيه على وزارةٍ كانت مولعةً بـ«بِمَكَابِدِه» كما قال، فهو أبلغ ما يكون حين يكتب بالنبوت، فتغطي عاطفته عورة فنه. وفي «عاير سبيل» قوميات أيضًا أحسنها «يوم الجهاد»، و«عيد بنك مصر» قصيدة حية فيها أبيات تجري مجرى الأمثال! كقوله:

وَمَنْ قَالْ يَا أَمْتِي وَفْرِي كَمْنْ قَالْ يَا أَمْتِي جَنْدِي

أما قصيدة «نفل سعد» والرائية التي أولتها «أحسنتم الصبر»، فقد أشبعناهما درساً وتحليلًا.

وينتقل إلى باب «تأملات» فتعاوده النوبة، ثم تقرأ ست عشرة صفحة، كل كعكها من العجين العقادي، فترثي لناظمها لأنه قاسى أهواً في صبّها بقوالب شعرية لا هندمة فيها ولا ذوق، ولكنه إن لم يغنم بها إعجابنا فقد غنم ثناءنا على ثباته في محنته تلك، والثبات فضيلة، فعسى أن لا يكف عن قول الشعر فيكون شاعر البيئة، ويعرب عن سليقة القومية التي «تفتاً» فتية، كما توهם فعَّر.

وفي «عاير سبيل» لون جديد عنوانه « رباعيات»، فيه قصيدة على الحاء عنوانها «عودة الكروان». لقد صدق القائل: مَنْ صَبَرْ نَالَ وَمَنْ لَجَ كَفَرَ، ولو لا وقار الأدب لزغردت النساء في جولة العروس! قد بلغتْ قصيدة فيها شعر على غير عادة العقاد الرزين الرصين صاحب البرج الحصين، كما سماه الدكتور إسماعيل أدهم المتمشّق التركي:

بعد طول السكوت ليلاً وصبا	مرحباً أيها البشير ومرحي
من الغيب يفتح العام فتحا	جاءنا رائد الكراوين في جنح
طلق واية الليل فصحى	فإذا الليل خافق وظلام الليل

لا فُضَّلْ فوك يا سيدى الشاعر الكبير، فآية الليل الفصحي تسوى ديواناً كاملاً.

فكان الربيع معنى قديم في طويل الزمان يزداد شرحاً

عشت ونعشت يا أستاذ:

عة أوحى في الدهر ما ليس يوحى
وهي في ضحوة من العمر أضحى
تنجلي عالماً وتعبر لمحا
منكم يبهج الخواطر نصها
عيال على العصافير طلحى

مرحباً بالذى قد ارتجل السا
المعيد الزمان جيلاً فجيلاً
ويرينا الحياة وهلة حلم
أمة الطير لا عدمنا نصيحاً
كل من بشروا من الناس بالخير

إن كلمة العصافير لا تملأ البيت الأخير، فليت للعقد ديواناً صغيراً — حتة ديوان
— من هذه البضاعة، ففي قليلها غنى عن كل صرره وبوجهه. وهنا أيضاً يدرك الأستاذ
أنه لا يقول شعراً إلا إذا كان عالة على العرب.
وليعذرني العقاد أن أسترد ما وهبته، فبناءً على دستوره للشعر والشعراء — راجع
مقالنا الأول — لا نستطيع بقصيدة أن نسميه شاعراً كبيراً؛ ولهذا نستعيد لقب الشاعر
الكبير الذي خلعنـا عليه، فقانونـه حرمه هذا الميراث الأدبي، وقديمـا قالـوا: «على نفسها
جنت براقش».

والعقد نظام متفائل يرى العيش جميلاً — وهذه طبيعة مصرية — فيناديـك:

قل ولا تحفل بشيء إنما العيش جميل

ويجد متاعه الجديد في الشتاء والخريف:

تحت وهج المتأت يوم خريف
تحت بث الغرام شب سريعاً

من جديد المتأت يوم خريف
ومحيا في الأربعين وديع

ولكنه وحيٌ من يحب إلى الخمسين، وهذا أيضًا خلقٌ مصريٌ يرضي بما قسمه الله له ويضرب الدنيا «صرمة»، أما في باب «رثاء» و«مترفات» فيعود إلى نهج الحليّ وغيره من شعراء عصر الانحطاط، فيقول للذى اسمه «موفق»:

عش يا موفق دائم التو فيق مقروناً بسعد

ثم يجانس ويورّي في «تحية موسيقية» إلى ملك العراق، أرسلها ليكون له «شراع وراء دجلة يجري» كشوقٍ، فقال: «غازي قلوب الشعب ... غازي العدى. كعهد أخيك مأمون، في موطن بهداك مأمون». وهذا كما تراه علك صدئ. ويقول في رثاء صديقه غانم محمد:

أغانٍ إني في مصابك ذاهل
قليل التعزي سافر الحزن مضمر
عرفت أباً فتح تولاه رمسه
أخًا في وغى الأيام لا يتقهقر

لقد انقضى زمن البهلوان، أما أراحتك منه مطالعة نيتشه يا أستاذ؟ مضت أيام
كان الشاعر من يقول:

عباس عباس إذا اقتحم الوغى والفضل فضل والربيع ربيع

ويختتم العقاد ديوانه بفكرة دللت على عقله الراجح، وعلى طبيعته المصرية التي سمّاها الدكتور أدهم فرعونية، فهو ليس كبعض أدبائنا الذي لا يريدون أن يموتون، هو عقّاد واحد لا غير، إذا راح راح، بعكس صديقنا الأستاذ نعيمه الذي هو في الوجود كالوكيل الدورى: كلما عزلته فهو وكيل. وَهَبَنَا اللَّهُ قَدْرُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِّنْ هَذَا الإِيمَانِ الَّذِي يَقُولُ لِلْجَبَلِ انتَقِلْ فَيَنْتَقِلْ.

اسمع كلمة العقاد المنطichi في «على أطلال الدنيا»، وبرهانه ذا الحدين، قال:

إذا انطوت الدنيا ولم يبقَ من أبنائها أحد، فليس هناك خسارة وليس هناك
من يشعر بالخسارة.

إلى أن قال: «وإذا حسبنا ما للدنيا وما عليها فالنتيجة صفر؛ لأن النتيجة هي العدم». وإليك هذه الفذلقة وهي خاتمة الكتاب:

إليك ومنك من وجدوك حيناً
حسبنا جانبيك على استواء
ومن فقدوك بعد ضياع عمر
فيما لك خيبة ختمت بـصفر

انتهى الديوان.

ليست حسبتنا تختم بـصفر، بل أرى العقاد يستحق ثلاثة من عشرين – المعدل المدرسي اللاتيني – أو ١٥ من مائة في المعدل الأنكلوـسـكـسـونـيـ. وما إخاله إلا راسـبـاـ في امتحان القـريـضـ ولو عمـرـ كـلـيـدـ.

لقد عـدـتـ مجلـةـ الـهـلـالـ الغـرـاءـ فيـ تـقـوـيمـهاـ سـنـةـ ١٩٣٨ـ دـيـوـانـ «ـعـابـرـ سـبـيلـ»ـ حدـثـ أـدـبـيـاـ جـدـيـدـاـ،ـ فـهـلـ دـفـعـهـاـ إـلـىـ ذـلـكـ بـعـضـ مـوـاضـيـعـهـ،ـ مـثـلـ:ـ «ـكـوـاـ الثـيـابـ»ـ،ـ وـ«ـوـاجـهـاتـ الدـكـاكـيـنـ»ـ وـغـيـرـهـاـ؟ـ أـرـادـ العـقـادـ أـنـ يـؤـديـ رسـالـةـ مـصـرـ شـعـراـ فـهـلـ أـدـىـ شـيـئـاـ؟ـ وـهـلـ تـكـوـنـ الرـسـالـةـ فـيـ هـذـهـ المـوـاضـيـعـ؟ـ وـهـلـ يـكـوـنـ التـجـدـيدـ بـالـتـعـبـيرـ عـنـ الـأـهـرـامـ بـالـأـطـامـ الـمـخـلـدـةـ؟ـ يـرـىـ العـقـادـ التـعـبـيرـ لـاـ شـيـءـ وـيـحـاـولـ خـلـقـهـ فـلـاـ يـقـدـرـ،ـ فـهـلـ نـفـعـهـ بـنـافـعـةـ هـذـاـ الشـعـرـ،ـ بـلـ هـذـهـ المـوـاضـيـعـ الـتـيـ يـلـمـهـاـ وـيـضـعـهـاـ فـيـ كـشـكـوـلـهـ؟ـ يـقـومـ الشـعـرـ عـلـىـ الـحـقـ وـالـجـمـالــ كـمـاـ قـالـ شـلـيــ وـصـاحـبـنـاـ إـنـ عـرـفـ الـحـقـ فـشـعـرـهـ بـرـيءـ مـنـ الـجـمـالـ كـنـسـوـانـ تـغـلـبـ فـيـ عـيـنـ جـرـيرـ.ـ وـشـلـيـ يـقـولـ أـيـضـاـ:ـ «ـلـلـغـةـ الشـعـراءـ لـوـنـ خـاصـ وـصـدـىـ مـوـسـيـقـيـ يـوـافـقـ الصـوتـ،ـ وـبـدـونـهـ لـاـ يـكـوـنـ الشـعـرـ»ـ.ـ فـهـلـ لـلـعـقـادـ شـيـءـ مـنـ هـذـاـ؟ـ لـيـفـحـصـ شـعـرـهـ فـيـ غـرـفـتـهـ كـمـاـ فـعـلـ الـخـلـيلـ يـوـمـ وـضـعـ عـلـمـ الـعـروـضـ.

يـلـمـ الـعـقـادـ أـنـ المـفـاجـآـتـ مـنـ عـنـاـصـرـ الشـعـرـ الـجوـهـرـيـةـ،ـ فـيـحـاـولـ خـلـقـهـاـ فـتـأـتـيـ صـورـهـ رـخـوـةـ مـتـأـثـرـةـ بـحـرـارـةـ الإـقـلـيمـ،ـ فـلـيـسـ لـخـوـاتـيمـهـ زـخـمـ الـمـضـخـاتـ،ـ وـهـوـ يـتـيقـّـنـ بـقـاـ فـعـلـ الـأـطـفـالـ حـيـنـ يـتـرـاشـقـونـ بـالـمـاءـ.ـ أـمـاـ الـمـوـسـيـقـيـ الـتـيـ يـقـلـدـ بـهـاـ الشـاعـرـ أـصـوـاتـ الـطـبـيـعـةـ وـحـرـكـاتـهـ كـمـاـ فـعـلـ الـمـنـتـبـيـ،ـ وـالـتـيـ يـعـبـرـ بـهـاـ الـمـعـنـىـ عـنـ عـاـفـفـتـهـ،ـ فـلـاـ يـعـنـيـ الـعـقـادـ مـنـهـاـ شـيـءـ،ـ كـلـ الـأـفـاظـهـ وـضـعـيـةـ حـقـيـقـيـةـ لـاـ تـتـسـعـ لـأـخـيـلـةـ الشـعـراءـ،ـ فـالـشـعـرـ عـنـهـ اـنـطـبـاقـ أـضـلاـعـ وـزـوـاـيـاـ.

قال بول كلودل: «لا يـعـرـفـ الـإـنـسـانـ الـطـبـيـعـةـ حـيـنـ يـمـتـزـجـ بـهـاـ،ـ بـلـ حـيـنـ يـضـيفـ ذـاتـهـ إـلـيـهـاـ».ـ وـالـعـقـادـ يـعـرـفـ الـدـنـيـاـ وـيـرـيدـ أـنـ يـضـيفـ ذـاتـهـ إـلـيـهـاـ،ـ وـلـكـنـهـاـ يـظـلـانـ كـلـمـاءـ وـالـزـيـتـ.

يقول هازلت: «الشعر لغة الخيال والعواطف، وهو اللغة العالمية التي تصل القلب بالطبيعة. ليس الشعر فرغاً من فروع التأليف، وكل شيء يسمو في الحياة بمقدار ما فيه من شعر». فهل في دواوين صاحبنا شيء من هذا؟

لا، إن شعره حكي لا أكثر ولا أقل، وأغراضه تخرج من شق قلمه هزيلة كالمسلول، يريد أن يخدع أبصارنا بعناوينه لتقوم الساعة، بيده أن الساعة لا تقوم لأن العقاد لا يقول شيئاً، فالوصف مجرد للأشياء الطبيعية، والإفصاح المحدود عن الشعور الطبيعي مهما كان قوياً فعانياً لا يستطيع أن يحدد الشعر وغرضه دون أن يسمو بالخيال». فهل للعقاد شيء من هذا؟

قال ديهامل أيضاً: غاية الشعر هي التعبير عمّا هو خالد، وليس كل من حمل قلماً خليقاً أن يخلد أية مادة كانت، هؤلاء نادرون». أما العقاد فالشاعر في نظره من يعلن أنه يحب الحق والجمال، وكفى، كأنما الشعر هو فعل الإيمان – نؤمن – في المسيحية، أو كلمة الشهادتين في الإسلام، فمثل ابن عمنا العقاد يقوم ألف شاعر في كل دهر، ولكن العشب ييبس ولا يثبت للظبط إلا القمح.

لقد أكثرت من كلام هازلت لأن الأستاذ يؤثر اليد على المتر، ويرى الشعر الفرنسي جعجة وججلة، فليس معه أيضاً ما يقول هازلت:

وحشونة النثر وهلهلته وركاكته قاضية على فيض الخيال الشعري، ولكن الشعر يقضي على هذا، فهو موسيقى اللغة مجيبة لموسيقى العقل.

فليت العقاد يأخذ من نفسه ساعة نشاطها، ولا يبل يده بكل موضوع. على كل من يؤدي رسالة كما يتمنى العقاد أن يننظر الوحي، فهذا الشعر العقادى الذي هو كنضو الطغرائي لا يؤمّر أحداً، ولا يجعل الشاعر قومياً. والحمد لله أن بشارة وعديله العقاد المترافقين على الإمارة، قد انقضى حلمهما الذهبي وانقلبا على الجانب الوحشي. إن طابع العقاد منطقي وجدي لا يعرف الألوان والظلالة، يحب النور والضياء، ولعل هناك سبباً لأجهله أنا، قد يكون المزاج الفرعوني الذي دلّني عليه الدكتور أدهم، فالجماعة عبدوا الشمس.

والعقد يؤمن بالمران، فليتمرن لعله يفلح، ولكن أيهان – لغة في هايات العقاد – أن يخلق التمرين جباراً، والغريب أن يحلم واحد كهذا بشاعرية عالية، فقد قرأت في مجلة الإمام – التي تكرّم بها على محبوبه – أنهم ترجموا له قصائد إلى اليونانية لتقابل بشعر زميلاً هوميروس ... (الإمام، أول ديسمبر ١٩٣٤).

وعلى هذا القحط والمحل والقلح يعده سيد قطب، ولا يستحي فوق عشرة من شعراء العربية مجتمعين، وفوق هيغو وموسيه وبيرون وشلي (الرسالة عدد ٢٢٨). ويرى أيضًا في مكان آخر أن الشعر العربي في كل أطواره ليس فيه ما عند العقاد، وإليك نموذجًا مما علقه هذا القطب على إحدى آيات عقادة التي سمّاها «يوم الظنو»:

يا للهول! للكلام قرأت هذه القطعة سرتُ رعدةً في مفاصلِي وقشعريرة في كياني،
وأحسستُ أمامي بإنسان يعتصر نفسه قطرة قطرة في ألم مبرح عظيم.

ولكن أية قول لي قطب ماذا خلف الجبل بعد هذا المخاض؟ لأن سيد قطب خال نفسه أمام ذئب الفرد دافيوني، فهنيئًا له في الدنيا سيد قطب، وإن كان هذا لا يجدي فهو يسلّي ويضحك، رحم الله المتبنّي.

ماذا يجدي تعدد الأحباب وتلبيّ الأفكار كخضرة الدمن، والشعر نظم تذهب بنضرته لفحة حر؟ وهل ينماز الأدباء إلا بالأسلوب؟ إن العقاد ينظم بعقله، والعقل لا يعمل الشعر الخالد، وعنياته بالوحدة التي اكتشفوها عند صاحبهم جورجيسيس – ابن الرومي – لا تعمل الفن، فالشاعر الملهم يخلق الوحدة دون أن يفكر بها، العقاد كطفل يلعب بالفراشة ويتصيدها ك أصحاب المجموعات ليحلّلها علميًّا، بينما الشاعر يتأملها ويصفها ويعجب بها.

«العالم – الكلام لهازلت – يحمل الحبّاح إلى بيته ليراهَا على ضوء العلم، فلا يرى في الغد إلا حشرة رمادية اللون، أما الشاعر فيزورها مساءً عندما تشيد لنفسها قصرًا من النور الزمردي، تحت فروع السوسن العطرة وأشعة الهلال الباردة». أما العقاد السياسي الجريء، فأثره ضئيل في دواوينه الثلاثة، إنها تصوّر العقاد المحب القاعد الذي يأتيه رزقه رغداً ولا يخرج من البيت، وقد خفتْ أشواقه وبردت همته القuese في «عاير سبييل». والعاهة الكبّرى في هذا الكلام الذي يسميه العقاد شعرًا، أنه كله من طراز واحد، ولو كانت وجوه الناس هكذا لاشمأز الناس من رؤية الناس. وبالاختصار إن العقاد الفنان نائم منذ ثلاثين سنة حول البركة – بركة حسدًا – ينتظر الساعة التي يحركها بها الملّاك ليلاقي بنفسه فيها، فيا ليتني مسيح لأقول لهذا المقدّس المسكين: أحمل سريرك وامشي.

إذا صحَّ تشبّه شيء بصيرة طمسون فذاك شعر العقاد، لا أقالبه بناجي وأبي شادي وطه والصيري والخفيف وبشر فارس وصالح جودت ومبرك وكلَّ من يقول

على المحك

شعرًا بمصر، فكل هؤلاء حتى زكي مبارك خير منه — في الشعر — وإن عدلت شعراء
هذا العصر فهو سكين الحلبة، ودواوينه كأنابيب اللقاح تصلح لوقت محدد.
ما لي أقول هذا؟ فمن يدريني أن العقاد لم يرشح نفسه لجائزة نobel الأدبية كما
تقدّم طنطاوي جوهري لجائزة السلام، فالبدار البدار قبل انصرام شباط اللباط.

إلى الدكتور طه حسين بك
يا صاحب العزة

فتشت كثيراً في منظومات صاحبك العقاد، فما رأيته ذكر أمّا أو أباً، فما ترك
تقول فيه بعد خمسمائة عام — لو عُدت إلى الدنيا — أكما قلت بالمتنبي؟

١٩٣٩ / ٢

